رواية: عندما يفكر الرجل للكاتبة: خولة القزويني

أيها السادة ...

هاتفا من الشرق ينذركم أن لا حلم بعد اليوم , فقد آن الأوان ليتحول الطين إلى دم حتى تتغير موازين الحياة.

ليس لغزاً , وإنما صرخة ميلاد حقيقية مزّقت صدري , وأنا أستنشق الهواء الذي كنت أبحثُ عنه بين فوهات الجدران وبيوت العناكب , كان هواءً فاسداً , فثمة جراثيم تعبث به , وتنفخ دماءها في مساماته.

عندما تنفسنا ... كان ماردٌ خفيّ يحصي علينا هذه الأنفاس وبينما نحن نقاوم سلطوا علينا سلاحاً غير مرئي .

سأكتب لكم بعد هذه المقدمة قصتي , بل حكايتي لتسردها الجدات إلى الصغار ليلاً , حتى لا تأخذهم غفلة النوم , وتبقى الأشباح تراودهم في الحلم والحقيقة .

فلتتعلم أجيالنا الاستيقاظ في كل لحظة من لحظات الحياة , فخلف الأبواب ذئاب مرعبة تتحيّن الغفلة لتنهش الأجساد وتمزقها بالأنياب والمخالب .

أيها السادة ...

كنت على مشارف الزمن .. الأبواب مؤصدة .. لمحت أن هناك باباً شبه مفتوح .. أيقنت أنه الأمل , وعندما اندفعت إليه عرفتُ أنه كمين , وهذا الكمين هو محور الحكاية ...

خوله القزويني ...

(مقدمة)

يقولون " رجل"

لا يعرفون سر الرجولة التي تتفجر في ومضة فكر تحرق أعواد الظلم المتناثرة في الشرق والغرب .

قطرات من الدم تصرخ في وجه الحضارة النتنة , عندما يفكر هذا " المخلوق" يقرر حقيقة وجوده , وهدف بقائه في هذا الكون الفسيح . . .

فعند مفترق الطريق يقرر طريقه بين " الأنا " و" العالم " .

فالأنا تجرفه إلى حياة الركون في لذائذ الدنيا ولياليها المترعة بالشهوات , " والعالم " خطوات قاسية تذيب أعماقا تحترق في قرائح المنكوبين .

ولن يجتمع في قلب الرجل حبان .. فإما " الأنا " وإما " الآخرون" .

وأقزام " الأنا " كثر في هذه الحياة , سيان وجودهم وعدمه , فهم رماد على الأرض لا نميزهم عن التراب . .

وعمالقة العالم نجوم متلألئة في سماء الآخرين , نهتدي بنورهم إلى طريق الخلاص .

" خولة القزويني"

----

(1)

شاب في العشرين

_ أقبلت هذه الأيام التي تزجنا في متاهات رتيبة , نفس الوجوه , نفس الخطوات . . . نفس المكان ... لا شيء يتغير . .

قالها متذمرا. . .

فضحك صديقه الذي كان يجالسه في إحدى ردهات الكلية . . ونظر إلى ساعة يده وهو يتمتم :

_ ليست لي رغبة في حضور المحاضرة يا محمد . . .

تنهد محادثه :

_ وأنا كذلك يا محسن . . . لا أشعر أني سأكتب سوى نفس المعارف التي أقرأها في الكتب ..

نهض الشابان حينما وجدا أن لا جدوى من هذه الهمهمات الفارغة . . . وفي طريقهما . . . لقيا أستاذهما " عبد الغفور " . . . أستاذ الاقتصاد الذي يتوقف عنده العقل أحيانا . . ويسترسل لسانه في سرد قصة الاقتصاد . . كان رجل طويلا, ضخم الجثة . . . يتورع عن الابتسام وإن كان الأمر يتطلب ذلك . . .

_ السلام عليك أستاذ عبد الغفور . . بادراه بالتحية فأومأ . . برأسه متكلفا ثم انصرف . . .

ضحكا . . بل استغرقا في الضحك . . حتى أدكهما أحد الأصدقاء منطلق الأسارير يزف لهما بشرى .. عودا ستؤجل هذه المحاضرة ريثما يعود الأستاذ من القاهرة. . .

_ الحمد لله . . . تنهد محسن وكأن عبا ثقيلا أزيح عن كاهله .

أطرق محمد برأسه إلى الأرض . . . ثم استطرد :

_ أبهذه السرعة يذب فينا فينا الملل , ومن قبل أن نبدأ !؟. .

لم ينبس صاحبه ببنت شفة ..

ومضى يقول :

_ إننا لم نر الأستاذ بعد . . لم نعرف من المحاضرة سوى عنوانها . . . فلماذا نتضجر؟!. . لماذا يداهمنا هذا الشعور ؟!

تنفس الصعداء ثم صمت . . ليجيبه صاحبه :

_ هناك آلاف الأسئلة التائهة في نفوسنا . . تبحث عن جواب . . تطاردنا عشرات الأسئلة . . لكن . . لا أحد يجيب , بل نحن يا محمد لا نعرف من الإجابة شيئا فكثيرا ما أفكر عندما نتخرج بعد عامين . . نعلق على صدورنا شهادة العلوم السياسية . فمن يمنحنا القدرة على أن نتنفس ؟. .

قاطعه محمد غاضبا :

_ إن الله منحنا العقل لنحيا . . وهؤلاء . . يسحقون هذا العقل لنموت . . أنت تعرف كم عانيت مع بعض أساتذتي في السنوات الماضية يا محسن . . لقد خذلوني , وفي أكثر من موقف , عندما شئت أن أتعلم غير الذي أتلقنه . . ابتسم محسن ساخرا: . . .

_ أجل . . . لقد رسبت أكثر من مرة . . .

_ وفاجأني بعض الأصدقاء بجبنهم حينما دعوني إلى عدم التدخل في شؤون غامضة . . . قائلين : إنها لا تعنيك . . . ضع في حسابك المجموع . . . المجموع فقط . . .

وغلبت على حديثهما السخرية . . . وهما يقطعان شوطا طويلا في المشي . . . ثم يتخذان ركنا هادئا . . . منعزلا عن ضوضاء الطلبة . . . فقد كانت هناك حلقات لشباب وشابات . . . يتحدثون , يتمازحون . . . فلا شيء يدعو إلى الهدوء . . . والفراشون في ذهاب وإياب حاملين القهوة للموظفين هنا وهناك . . . وأساتذة . . . يتجمهر حول بعضهم جمع هائل من الطلبة والطالبات , ردهات الكلية كانت ممتلئة . . . تموج بحضور كبير . . . لكن هذين الشابين آثرا العزلة لعل في نفسيهما شيئا يختلف عن الآخرين . . .

" محمد " في العقد الثاني من عمره . . . يجمع في نفسه إحساسا ضد هذه الألوان المتموجة التي يظهر بها الآخرون . . . ويود لو يملك القوة الهائلة لتغيير هذا العالم . . . فكل محاولاته تبلغ في تصاعدها إلى الحد الذي يخسر فيه بعضا مما يملك ويحس , يعيش في بيت متواضع مع والدته وأخت واحدة . . . فقد توفي والده حينما كان صبيا صغيرا في الرابعة من عمره . . .

وصديق طفولته محسن , يجمعه معه ويشد أواصرهما هذا الإحساس المشترك لكل ما يمسهما ويمس الآخرين بسوء . . . إذ بلغهما أن هناك من يتهمهما بالتمر على قوانين الكون . . . وكانا عندما يفكران في هذا الأمر مليا يضحكان ملء قلبيهما .

كان من منغصات حيتهما " عادل " . . . حيث يتعرضان معه إلى كثير من المشاحنات والمواقف التي يحتد فيها كل شخص حتى يصل الأمر بهم إلى حد الاشتباك بالأيدي . . . ولولا قوانين الجامعة الصارمة التي ترغم كل فرد على الالتزام بها لحدث مالا تحمد عقباه . . .

يومهما الدراسي الأول ... يبحث عن تنفيس . . . أو على الأقل قدرة على التكيف , لكن دخول الطلبة وخروجهم من القاعات اضطرهم أخيرا إلى حضور المحاضرة التالية . . . جلس الطلبة على مقاعدهم في انتظار الأستاذ . . . الطالبات يتجمهرن مع بعضهن في همسات النفس الجائعة إلى أحمر الشفاه , ثوب حرير , عقد الماس . . وبين هنيهة وأخرى تنطلق ضحاكات تجذب انتباه الحضور . . . وأخريات صامتات . . . يتأملن أمرا لا يعرف معناه . . . أحد الطلبة يقلب في كتبه متمتما : " إن . . . المادة صعبة جدا . . . جدا . ." وآخر يشعل سيجارة صامتا . . . وآخرون خارج القاعة . . . في انتظار الأستاذ . . . الذي حضر بقامته الفارعة . . . ونحوله الشديد الذي جعله يبدو محدودبا بعض الشيء . . . وبلهجة صارمة . . . جعل يقول :

_ لا أريد أي طالب ينتظرني عند الباب . . . مفهوم . .

ثم شرع في يكتب على السبورة . . " سياسات دولية " . . وعندما انتهى حدق في الوجوه مليا . . . ليسأل . . . " ما هو تصوركم لهذا " الكورس " " ؟. .

أجابت إحدى الطالبات : " إنها العلاقات السياسية التي تربط الدول بعضها ببعض " و أشار إلى آخر ليجيب : " أهم الاتجاهات السياسية في العالم " . . . حرك الأستاذ أذهان الطلبة . . . فاستحضروا محصلة ما انتهوا إليه في سنين ماضية . حتى استقر على تعريف محدد جعل كل الطلبة ينسخونه . . لكنه أفلح بعض الشيء في إحاطة المحاضرة بأجواء بعيدة عن الروتين , وفي نفس الوقت , جذب الانتباه , وولد ردود فعل وآراء مختلفة . . .

أحس " محمد " بنوع من الارتياح . . . إذ أصغى إلى أستاذه بشغف كبير . . . حتى استأنس بالحديث معه . . . وطمع في صحبته كصديق . . . إضافة إلى كونه الأستاذ . . . واصطخب في ذهنه مزيج من الأفكار أفرز لديه تخطيطا طريفا يساعده على التقرب من أستاذه الجديد . . .

وعند الانصراف . . . اقترب منه قائلا :

_ من أي بلد أنت يا أستاذ , ومنذ متى تمارس التدريس ؟. . .

ابتسم الأستاذ بهدوء ليجيب :

_ أنا من السودان , وهذه السنة الأولى التي أدرس فيها , أراك مهتما يا محمد بدراستك . . . وهذا شيء رائع . . .

_ إنه أمر يسرني يا أستاذ أن يكون هذا رأيك بي رغم هذه الفترة القصيرة.

_ الأمر واضح يا محمد . . . فإلمامك بهذه الثقافة شيء نادر في صفوف جيلك . . .

وافترقا . . . لينضم محمد إلى رفيقه محسن :

_ "إني أشعر بجوع قاتل " قال محسن وهو يتجه ناحية الكافيتريا"

لكن محمد . . . قاطعه . . .

_ إنك " لا تحتمل الجوع " اصبر ريثما نلتقي بعض الأصدقاء . . .

ابتسم محسن وهو يربت على كتف صاحبه قائلا :

_ لا وقت عندي , فسيحين موعد محاضرتي التالية .

ومضى محمد إلى سبيله . . . يبحث عن أصدقائه . .

وكان جمع من الطلبة . . . يجلسون حول مائدة نصبت في وسط الحديقة . . .

انضم إليهم . . . وبعد أن حياهم . . قال على الفور :

_ إن هذا اليوم , رائع . . . فقد استطعت أن اجتازه بجدارة . . .

ضحكوا ليقول أحدهم :

_ وكيف حدث هذا ؟. . .

_ كنت أحسب ألف حساب لبعض الأستاذة . . . ووجدت بعضهم لا بأس به . .

وسأل آخر :

_ لم يبق أمامك سوى سنتين وتودعنا يا عزيزي . . .

أجاب وهو يرفع كفيه إلى السماء داعيا :

_ آمين يا رب العالمين . .

ثم جعل محمد يحدق بهم كان يفتقد أحدهم قائلا في دهشة :

_ أين علي ؟ لا أجده معكم ؟. .

صمتوا هنيهة . . كأن على رؤوسهم الطير . .

ثار قلقه وهو يعيد سؤاله :

_ ما بكم . . أين علي . . إن أمركم يدعو إلى الغرابة ؟!. .

ومضى يخاطبهم بأسمائهم " هشام . . خليل . . ماجد . . عمار . ." أين علي . . يا إلهي . . أجيبوني . .

فصرخ أحدهم غاضبا :

_ لقد فصل قبل أسبوع . .

صعق وهو يتمتم :

_ كيف حدث هذا ؟!. . ولماذا لم تخبروني . . وكيف تستهينون بهذا الأمر . . إنه في السنة الثالثة . . وما السبب ؟ لا أعتقد أنه قد رسب في امتحاناته . . . فمستواه العلمي ممتاز . . لكن قاطعه أحدهم :

_ النشرة العلمية التي كان يصدرها في الفصل الدراسي السابق قد تعرضت إلى سياسة الجامعة ومست المسؤولين شر مساس . . وأثناء انشغالنا في فترة الامتحانات أحيل إلى مجلس تأديبي من قبل إدارة الجامعة . . . وحسب ما سمعناه فإنه دخل معهم في مشادة عنيفة . . . أغضب المسؤولين . . وتجاوز حدوده . . فاتخذ قرار بفصله من الجامعة . . .

قال محمد بعد تفكير :

_ وأين هو الآن ؟!. .

قال خليل :

_ قرر أن يواصل تحصيله العلمي في القاهرة عي حسابه الخاص . . بعد أن حاول الاعتراض على هذا القرار . . لكن دون جدوى . . فهو إنسان متهور كما تعرفه . . تجرفه الحماسة دون أن يلتفت إلى عواقب الموقف . .

تنهد محمد ثم أجاب غاضبا :

_ الأمر لا يدعو إلى اللوم . .

وقاطعه آخر :

_ إنه أخطأ . . بل أمعن في الخطأ . . كيف يثير الطلبة ضد إدارة الجامعة ؟ . . فنواحي القصور يكمن معالجتها بالتي هي أحسن . . أما اتخاذ هذا السبيل الأرعن . . . فهو أمر لا يفسح للإدارة مجالا للصبر والتروي . .

قال محمد مندهشا :

_ وماذا كتب ؟! . . لم أقرأ هذا المقال . .

وجعل أحد الجالسين يشرح له فكرة المقال :

_" لقد وصف الإدارة بالذئاب الشرسة والطلبة بالنعاج الضعيفة . . ثم تعرض إلى سياسة الجامعة التي بدأت تفقد استقلالها على مر الزمن . . وجعل ينسب التنظيم الإداري للطلبة والموظفين إلى أصابع خفية خارج الجامعة . . بل خارج مجتمعنا . .

إنه متهور . . لقد كتب في شيء خسر معه أشياء كثيرة . .

نهض محمد غاضبا , وقال وهو في طريقه إلى الانصراف مشيرا إلى خليل :

_ أرجو أن تكتب لي محاضرة اليوم فأنا ذاهب للقاء علي . .

----

(2)

امرأتان في حياته

كانت الدار في تلك الساعة هادئة . . . يقطع هدوءها . . . أنفاس مضطربة حائرة لامرأتين حائرتين . . . تقطعان خطوات متمردة في صالون الدار, إنهما أم محمد . . . وأخته "فاطمة" . الساعة قد جاوزت الرابعة . . و"محمد" قد تأخر . . . فقرار فصل صاحبه " علي" صرف انتباهه عن ارتباطاته الأخرى . . . وبصوت مضطرب شرعت أمه تقول :

_ اتصلي يا فاطمة بأصحابه . . .

وتقول فاطمة الفتاة الهادئة . . التي تحاول أن تستوحي من أعماقها . . . وهدوء روحها . . . بعضا من الزاد تمنحه لأمها . . . القلقة. .

_ تريثي يا أمي . . . لا بد أن أمرا شغله . . . فإن حدث له مكروه . . . لابد من أحد . . . يخبرنا . . . فما أظن أن غيابه باختياره , وألف عذر يمكن أن يعطى له .

لكنها في قرارة نفسها تصطخب الوساوس. . . وتجيش في صدرها الظنون . . . فهي تعرف أخاها . . . شاب متميز . . . العيون ترقبه عم كثب . . . وتتصيد أخطائه . . . وكثيرا ما يجالسها ليتحدثا في شتى القضايا . . . ولعل الأيام أرغمتها أن تؤمن . . . بضوابط قد التزم بها محمد . . . وهي كفيلة ب، تجدد طريقه في الحياة . . . وطريقه هذا . . . يمتلئ بالشوك . . . ويمتلئ بالصخور . . . وتخيلته . . . وحيدا يحمل معولا بيديه . . . ليشق هذه العقبات . . . طريقا معبدا بالورود والرياحين . . .

تنهدت أمها جالسة :

_ أراك ساكنة , كأن الأمر لا يعينك . . .

وبعصبية تصرخ وهي تواصل تمتماتها :

_ أعطني أرقام أصدقائه . . لأتصل . . إن كنت متثاقلة . . .

وتجلس فاطمة إلى أمها تربت على كتفها هامسة في حنو :

_ اهدئي باسم الله يا أمي . . . وادعي أن يكون في التأخير خير .

وبينما هي في طريقها إلى المطبخ تحضر لأمها قدحا من الماء . . . يرن جرس الباب . . . تسرع إليه وإذا بمحمد أمامها .

نهضت الأم واقفة . . . تصطخب في نفسها الفرحة والغضب :

_ ما بك تأخرت يا محمد . . . أقلقتنا عليك . . ؟

_ كنت مشغولا يا أمي . . . بأمر مهم . . . واعذريني لأني قد غفلت عن الاتصال بك . . . وجلس على الأريكة . . .يطلب كوبا من الماء . . . يضع رأسه بين كفيه . . .

_ ما بك يا محمد . . . قالت الأم في قلقل شديد . . .

فأومأ بالنفي دون أن يرفع رأسه . . .

تنهدت أمه : أراك حزين القلب . . . كثير الهم . . . هل حدث كروه . . . ؟

تنفس الصعداء وهو يجيب :

_ لا عليك يا أمي . . . إنها قضيه تخص بعض الأصدقاء . . .

_ هدئ أعصابك بهذا الماء البارد . . . قالت " فاطمة " وهي تدفع إليه كوب الماء . . . ثم جلست بجانبه تتساءل عن سر تأخره. . . إنه مجهد . . . وهم بالانصراف إلى غرفته . . . لتستوقفه فاطمة :

_ تمهل ريثما أعد لك الغذاء يا عزيزي. . . .

وبوجه متجهم . . . بائس يقول :

_ " لا . . . لا أريد . . . أريد أن أنام فقط " ...

وعندما أوصد الباب خلفه . . جعلت المرأتان تحدق إحداهما بالأخرى مذهولتين . . .

قالت الأم . . . مشيرة إلى فاطمة :

_ اذهبي إليه وحاولي استيضاح الأمر . . . لعله يفضي إليك بشيء . . .

صمتت فاطمة . . كعادتها . . فهي بطيئة الاستجابة . . . تقطع في التفكير فترة حتى تصل إلى قرار :

_ إنه مرهق يا أمي . . . وأظن أن من غير المناسب التطفل على مشكلته , طالما أنه لم يفض بها إلينا . .

غضبت الأم صارخة :

_ أنت هكذا دائما . . تعانديني . . أتمنى أن تستجيبي لكل ما أطلبه منك . .

ابتسمت الفتاة وهي تحتضن أمها تقبلها :

_ أنت أمي الحبيبة . . . كيف أعاندك . . كل الذي أريده راحتك وراحة أخي . .

وتقرصها أمها قرصة حنان في خدها :

_ إذن . . . اذهبي وأعدي لنا الشاي . . .

_ حالا يا أمي . . .

وتثب فاطمة إلى المطبخ . . . وإذا بوجهها الوضاء يأخذ لونا آخر . . .

تحدث نفسها :

_ ماذا دهى محمد ؟!. . أتراه يعاني من مشكلة . . أعتقد هذا . . . لكني سأعرف ما به عندما نجلس ليلا نتحدث حول بعض الكتب . . . فهو يصارحني بمشاكله . . كان من عادته أن يناديني ليتحدث إلي . . لكنه الآن يبدو متجهما . . . تضيق به الدنيا . . . فربما اعترضته

مشكلة كبيرة . . . مسكين محمد إن قلبه ينوء بالهموم يوما بعد آخر . . . بيد أني أعجب . . كيف تسيطر عليه هذه المشكلة إلى الحد الذي جعله يفقد معه خصلة مهمة من خصاله . . . وهي قدرته على كبت انفعالاته مهما كانت . . . يا إلهي إن الأمر . . . يدعو إلى الغرابة فعلا . . . ويدفعني إلى الفضول أكثر . . .

وتعد قدحين من الشاي . . . تضعهما أمام والدتها . . . قائلة بشيء من السرور :

_ تفضلي يا أعظم أم في الدنيا . . . وجلست إلى جانبها . . .

رن جرس الهاتف . . .

وثبت فاطمة إلى الهاتف وكان المتحدث ابنة خالتها " منال" تستأذنها في زيارتها . . . وعادت فاطمة بوجه عبوس . . .

_ ما بك ؟ سألتها والدتها . . . من هو المتحدث ؟

وبتذمر أجابت :" إنها منال ستأتيني الآن ".

أجابت الأم في دهشة : وما لذي يضايقك في هذا ؟

_ أنا أجد صعوبة بالغة في التكيف معها . . لا هم لها سوى ذاتها . . . تتحدث عن مشتهياتها ورغباتها . . .

ضحكت الأم :

_ أنا أدعو الله كثيرا لتكون من نصيب محمد . . .

وبشيء من الاستنكار تتمتم فاطمة :

_ إنها لا تناسبه لماذا الإصرار على هذه الزيجة . . .

تقول الأم :" الفتاة تحبه , فلماذا لا نمهد لهذا الأمر ؟. . إلى جانب إنها جميلة جدا وستعرف كيف تستحوذ على تفكيره وعقله , وأرى من المناسب أن نعجل بعقد قرانهما ".

تجيب الفتاة بتذمر :" الأمر يرجع إلى محمد فهو يبحث عن زوجة من طراز آخر".

رن جرس الباب , وكانت " منال " هي القادمة . اندفعت إلى خالتها تقبلها :

" كيف حالك يا خالتي الحبيبة "؟ . . وبفتور رمقت فاطمة : " كيف حالك يا فاطمة "؟ . . ثم جلست تضع ساقا على ساق. . تلملم شعرها في غرور : " إنني عطشى , ألا يوجد عندكم عصير "؟ . . وجعلت تبحث بعينيها هنا وهناك ... حتى قالت فاطمة : محمد نائم .

ابتسمت منال وهي تحدق في فاطمة : إنني مندهشة كنت أظنه في هذه الساعة يشرب الشاي معكم . .

بدا العبوس على وجه فاطمة وهي تقدم كوب العصير لمنال . . لكن والدتها أبدت اهتماما بها وشرعت تحدثها عن " محمد " وأزمته في هذا اليوم . . . بينما أصغت لها " منال " مندهشة . . . ضرب خالتها كفا بأخرى . . . قائلة :" ليته يتزوج , أنا أظنه بحاجة إلى زوجة , الشاب

في مثل سنه يحتاج إلى امرأة تشاركه همومه ومشاكله . . . أنس سأفتح اليوم بتعجل عقد قرانكما " . . .

خجلت الفتاة فأطرقت برأسها وهي تبلع ريقها . . . وواصلت الخالة الحديث :

_ لا أظن أنه سيجد أفضل منك حسبا ونسبا وجمالا. . .

انطلقت أسارير الفتاة . . . وهي ترمق خالتها تبدي رضى واقتناعا :

_ " لا تتعجلي هذا الأمر يا خالة . . . دعيه للظروف . . "

صمتت الخالة هنيئة , ثم شرعت تربت على كتف الفتاة قائلة :

_ من المهم أن تعجلي أنت في التخرج .

وبسرعة أجابت : سأتخرج خلال الشهور القادمة إن شاء الله فالدراسة في المعهد تستغرق سنتين فقط .

قطع حديثهما صوت محمد وهو يستأذنهم في الدخول , وعندما اقترب دعته والدته للجلوس .

_ إني على موعد يا أمي لا بد أن أذهب الآن . . .

حدقت به وقالت :" إني لم أرتو من رؤياك يا ولدي . . اجلس بجانبي . . اشرب الشاي معي . . حدثني عن همومك, إني أكاد أنفجر يا محمد . . . "

تنهد :" سامحيني يا أمي ولكن لا بأس بفنجان من الشاي "

أبدت منال شيئا من الاضطراب . . . والحياء . . فهي تميل إليه ميلا قويا وتحاول من خلال بعض أساليبها لفت انتباهه , بيد أنه في واد آخر من الحياة . . . حاولت الأم أن تثير نوعا من الحديث بينهما . . بيد أنه لم يلتفت إلى الفتاة . . ففي ذهنه ما يشغله عن هذه الأشياء . .

وكالعادة . . تصاب منال بضيق لأنه تعمد أن يتجاهلها , فهو يعرف أنها فتاة لا تتميز بما يرضيه . . . ومن هنا يجدر به أن يوقظها من أحلامها . . وقف متنهدا :" الآن. . . أستودعكن . . . " وانصرف حيث لحقت به فاطمة قائلة :

_ " إذا تأخرت فاتصل بنا حتى لا تقلق أمي . . ."

وودعته :" في أمان الله " وانضمت إلى المرأتين . . أحست أن منال . . . حزينة . . . منكسرة . . . بينما خالتها تهدئ من روعها , قالت :

_ إنه ملتزم يا " منال" ويستأثم أن يبادلك الإحساس طالما ليس بينكما عقد شرعي . . .

انفرجت أساريرها وهي تقول " لفاطمة" : ما رأيك أن تصطحبيني إلى السوق ؟...

نظرت فاطمة إلى ساعتها قائلة :" الساعة الآن السادسة مساء , وأظن أن وقت الصلاة يحين بعد نصف ساعة , فليس هناك فسحة من الوقت للذهاب ".. .

تجيبها منال : أقيمي الصلاة بعد أن نعود . . . ليس هناك أي مشكلة . . .

تقول فاطمة مندهشة : وما ضرورة الذهاب إلى السوق ؟ بإمكانك التأجيل . .

تتذمر . . متمتة :" أنت هكذا دائما . . تحولين كل شيء إلى مشكلة ".

ابتسمت فاطمة :" أنا لم أرفض دعوتك يا عزيزتي . . ولكن طلبت التأجيل فقط ".

وتدخلت الأم : " اذهبي معها يا فاطمة . . . لا بد أنها تحتاج إلى شيء مهم . . . "

_ لا أستطيع يا أمي . . . ثم إنها زبونة دائمة في هذا السوق , إن لم تذهب اليوم فبإمكانها الذهاب غدا , ولا أعتقد أن هناك أدنى مقارنة بين الذهاب إلى السوق وإقامة الصلاة في مثل هذا الوقت . .

ووقفت منال متأففة , غاضبة :" أنت لا تحبينني يا فاطمة أنا أحس بهذا الإحساس . . . على العموم أنت حرة . . فلن أرغمك . . " وودعتهما منصرفة . . ولكن خالتها استوقفتها :

_ تريثي سآتي معك . . . أنا أريد شراء بعض القماش للخياطة . . . ولحقت بها . . . وهي ترمق ابنتها غاضبة . .

شرعت فاطمة تجمع أكواب الشاي وهي تحدث نفسها :" ليت هذه المسكينة تفهم أنها على خطأ . . فمحاولاتها في كسب ود " محمد " ستبوء بالفشل . . وأنا أريد إبعادها عن هذا الأمر . . حتى لا تصعق . . . إنها لا تعرف معنى الالتزام . . ولقد حاولت مرارا هدايتها إلى الصواب بيد أنها ترفض ساخرة . . . وكيف أستطيع تغييرها وعي تربت على الدلال . . . تحقق كل مشتهياتها ونزواتها . . . أنا واثقة أنها ذهبت إلى السوق لشراء ثوب يشبه ثوبا رأته مجددا

على صديقاتها . . . فدفعها هذا الهوس الأعمى إلى الاستخفاف بوقت الصلاة . . . آه . . . اللهم اهدها . . ."

اجتمع محمد بصديقه علي يحدثه في شأن سفره . . . وما عزم عليه . . . قال علي :

_ لقد اتصلت ببعض الأصدقاء في القاهرة . . . لأستفسر عن وضع المعيشة هناك ولأعرف كيف أتدبر أمور حياتي . . .

أطرق محمد يفكر ثم قال :

_ يعز عليّ فراقك يا علي . . .

تنهد صاحبه " هذه هي الحياة . . . لقاء وفراق . . "

قاطعه : لا تقل هذا يا صاحبي . . . سآتيك . . . وسأزورك . . . ولا بد أن تكتبي لي وأكتب لك حتى أطمئن عليك , ولا تنس أن تبعث لي بقصائدك . . . فإني أرتاح إلى سماع صوتك وأنت تنشد أشعارا رائعة عن الحياة والكون والإنسان ..."

ضحك علي :" إن وفقت إلى تأسيس مجلة مع بعض الأصدقاء هناك , فلا بد أن تسعفني أنت الآخر بمقالاتك". . .

ضحك محمد وهو يربت على كتف صاحبه . . بينما غرق علي في أفكاره . . . حتى قال له محمد : ما بك يا علي ؟ . .

تنفس الصعداء وهو يتحدث :" إني سأكون في غربة هناك و أحتاج إلى زوجة صالحة تساعدني وتقف إلى جانبي . . . فنصحني بعض الأصدقاء بضرورة الزواج حتى يستقيم أمري . . . وسفري سيكون هذا الشهر . . . لهذا أجد صعوبة في البحث عن فتاة , تقبل الزواج والسفر معي . . . بهذه السرعة . . . فقد خطبت والدتي فتاتين من عائلتنا ورفضتا هذا الشرط. . .

كان محمد يصغي إلى صاحبه و كأن على رأسه الطير . . . كان يفكر في معاناة صديقه , ولمعت فكرة في ذهنه فقال لعلي :" لا تقلق يا عزيزي فقد وجدت لك الزوجة الصالحة . . ."

حدق به فرحا :" ومن هي ..."

أجاب :" أختي فاطمة . . . إنها تصلح لك . . . فهي ملاذ كل همومي . . . وستعينك على مرارة الحياة . . ."

استبشر علي وقال وهو لا يستطيع السيطرة على هدوئه : فاطمة ؟ . . . فاطمة ؟ . . . حلم كل الصالحين من الرجال . . . " إنها أمنية يا عزيزي . . . ولكن الأمر يحتاج إلى موافقة منها ومن والدتك . . . وإن حدث هذا . . . فسأكون من الفائزين . . ."

وأكمل محمد الحديث :" سأحدثها هذه الليلة في الأمر وأنا واثق أنها ستقبل أنسانا مثلك . . . خصوصا أنها تقرأ قصائدك وتحترم آراءك وقيمك. . ."

طأطأ علي وجهه خجلا :" وهذا يسعدني كثيرا يا محمد . . ."

وكان محمد تواقا إلى استكمال فرحة صاحبه . .. إذا عاد إلى البيت مبكرا . . . يعد في ذاكرته صورة المواجهة مع أخته في هذا الأمر . . . وجد فاطمة جالسة وأمامها القرآن . . . حياها فابتسمت بعذوبة ووداعة بعد أن ردت تحية أخيها :

_ أراك عدت مبكرا يا محمد :

جلس إلى جانبها. . . فبادرته قائلة :

_ إن في رأسك لأمرا , ولا بد أن تفضي به إليّ , فأنا على استعداد كامل للإصغاء .

ابتسم في حرج وهو مازال صامتا . . . لكنه استحضر في ذهنه الكلمات ليستطرد. . .

_ ربما حدثتك يا فاطمة عن صديقي علي أيروق لك ذلك ؟. . .

وبلهفة واهتمام أجابت :

_ أجل . . . أجل . . . الشاعر علي . . .

ومضى في حديثه . .

_ إنه الآن في حاجة إلى زوجة . .. فقد عزم على السفر إلى القاهرة لمواصلة دراسته وقد اخترتك زوجة له . . . طبعا بعد أن توافقي عليه . . .

أطرقت فاطمة تفكر ثم ابتسمت :

_ إنه أمر مفاجىء يا عزيزي . . . لم أكن أحسب له حسابا .

استطرد :

_ إنني أريد رأيك في شخصه يا فاطمة . . . هل ترينه مناسبا لك ؟ . . أنت فتاة ناضجة فطنة . . .

أجابته : إنه شاب متميز يا محمد . . . هذا هو رأيي به . . . حتى لو لم تكن قد اخترته لي زوجا , وهذا القرار لا يحتاج إلى تفكير لأنني لست مترددة . . . ثم أنه إنسان واضح مستقيم وليس فيه أدني غموض يحتاج مني إلى الحذر والتأني . ..

ربت على كتفها مبتسما:

_ إذن هل أعتبرك موافقة ؟. . .

أومأت بالإيجاب . . . وهي تطأطيء برأسها إلى الأرض خجلا . . . ثم أردفت :

_ وأمي . . . لا أعتقد أنها ستوافق على ابتعادي عنها . . . فمن يرعاها ويعتني بصحتها . . . ومأكلها ومشربها . . .

أجاب على الفور : سأتكفل أنا بهذا . . . . سأتزوج . . . ستقوم زوجتي مقامك يا فاطمة . . . يجب أن نقنع والدتنا . . . فلنحاول ذلك . . . ولا بد أن يتم الزواج بسرعة فهو سيسافر عن قريب . . .

وعند اقتراب المساء . . . حيث اجتمعا بأمهما , تخيرا جوا هادئا . . . يمكنهما من كسب ودها , وقد آنس الأم أن ترى ولدها بجانبها على غير عادته . . . وأبدت له رغبتها في خطبة منال أبنة خالته :

_ إنها تحبك يا محمد . . . . هي لائقة بك فأذن لي بخطبتها . . .

تململ بعض الشيء وهو يحاول أن لا يثير غضبها , ويسعى لإبقائها هادئة :

_ الأمر بيد الله يا أمي . . . دعيني أفكر مع الأيام . . . لكن بالمناسبة أود أن أزف لك بشرى حلوة ستفرحين بها !. . .

انطلقت اساريرها وتساءلت :" وما هي يا عزيزي"؟ . . .

_ سيزورنا بعد يومين خاطب لفاطمة . . . .

حدقت الأم بفاطمة متأملة . . . فرحت . . . ثم تساءلت :

_ ومن هو ؟. .

_ صديقي علي . . إنه شاب صالح سيسعد فاطمة , ولكنه سيسافر فور عقد القران . . .

تهجمت قليلا لكنها سرعان ما عادت تسأل :

_ أتعني شهر العسل . . . .

ضحك محمد وهو يرمق فاطمة . . وقال وهو يقهقه :

_ بل شهور عسل يا أمي . . .

وعاودتها الدهشة ثانية :" وكيف ؟ وماذا تقصد , لقد أوقعت قلبي . . ."

أجاب سيكمل تعليمه في القاهرة . . . ثم سيعود بعد سنوات . . . وبإمكان فاطمة أن تزورك بين فترة وأخرى . . .

صمتت لتقول :" إنه مازال تلميذا في الجامعة فلم هذه العجلة ؟ فليتخرج أولا ثم يخطب فاطمة . . ."

_ إنه سيسافر , وفي غربته يحتاج إلى امرأة يسكن إليها , يا أمي لا نريد أن نخسر هذا الشاب . . . فهو أنسب زوج لفاطمة . . .

قاطعته الأم : ولكن ألا تعتقد أنني سأغدو في البيت وحيدة . . . إن فاطمة هي نجمتي الهادية وسط ظلام الحياة . . . وكبر سني . . . و. . .

وبشيء من اللين شرع يهمس في أذنها مازحا :

دعي فاطمة لزوجها وستأتيك من هي خير منها . . . .

تهلل وجهها فرحا . . . حقا يا محمد . . . إن عروسك جاهزة . . .

عاد إلى تذمره ثانية :

_ لا تقولي منال يا أمي . . . إنها فتاة لا تناسبني , سأبحث عن زوجة من نوع آخر . . .

غضبت وهي تتوعده :

_ إن لم توافق على الزواج من منال فلا يسعني إلا أن أرفض خاطب فاطمة بل أرفض حتى استقبالهم . . .

صمت دون أن ينبس ببنت شفه . . .

لكنها واصلت الحديث :

_ أنت تعرف أن منال ابنة أختي , وهي بمثابة ابنتي , ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نتخاصم أو نتجافى وأنت تعرف طباعي العصبية , التي تجعل من الصعب على أي إنسانة التكيف معي . . . ومنال هي خير من ألف فتاة غريبة . . . ويقينا ستعاملني معاملتها لوالدتها . . . فالخالة يا محمد هي أقرب مخلوق إلى الإنسان بعد أمه . . . فأرجوك يا ولدي أن لا تخيب أمنيتي هذه . . . أنا أمك . . .وهذه أمنيتي في الحياة . . . ثم إن حجتك مردودة . فمنال فتاة طيبة يمكنك أن تغيرها وفق ما تريد . . .إنها رهن إشارتك . . . بل هي ملك يديك يا عزيزي. . .

تنفس الصعداء وهو يرمق فاطمة يستحثها على الكلام. . . لتبادر قائلة :

_ ولكن يا أمي لا ينبغي أن تنظري إلى موضوع الزواج من وجهة نظرك الخاصة , فمحمد له رأيه وأفكاره وميوله . . . بل هو العنصر الأهم في هذه العلاقة , وأنا أقطع يقينا أنهما

سيفشلان في حياتهما . . . أنت تنظرين إلى منال من زاوية ضيقة وهي صلة الدم واللحم . . . أما هو فيراها من جانب أعمق . . .

قاطعتها غاضبة :

_ اصمتي . . فأنت التي تثيرين أخاك ضدها. . .

ضحك محمد وهو يقول :

_ يا أمي الأمر لا يحتمل كل هذه المناقشة ونحن نريد علاقات زوجية قائمة على القناعة والتفاهم . . . فمنال بحاجة إلى زوج يناسبها , ليسعدها , صدقيني يا أمي ! فأنا لا أقدر أن أحقق لها نوع الحياة التي تتمناها . . . أنا أفكر بها لا بنفسي . . . إنها تملك الجمال والثقافة والمال , وبإمكانها أن تحظى بمن هو خير مني . . .

صرخت بغيظ :

_ يا إلهي أنت تعرف إذن مزاياها هذه وتصر على رفضها , فماذا تبقى إذن . . . لترفضها . . . إنه أتعس يوم في حياتي أن أجدكما قد خسرتما بعضكما .. . إنه أمر يصعب علي احتماله . . . بل سأجن . . . إنني أتمناها عروسة لك . . . فحرام أن تضيع كل هذه المحاسن منك يا ولدي . . . ألست رجلا . . . تبحث عن أنثى جميلة . . . ومثقفة . . . بل إنها مضرب المثل في الجمال والأناقة وكل فنون الفتنة التي تتميز بها النساء . . . .

تأفف . . . لكنه حاول أن يتماسك :

_ إنها هيكل فارغ من المحتوى . . . بل هي لا تستطيع أن تفكر معي أو حتى أن تفهمني . . . إنها ستكون مجرد هامش في حياتي . . . ربما لو تزوجتها ستتحول إلى امرأة تقليدية تطهو

الطعام وتحمل وتلد . . . دون هدف . . . دون نقطة مفاهيم مشتركة تجمعنا معا. . . إن الزوجة التي أحلم بها تختلف عن منال كثيرا. . .

و أكملت فاطمة خيط الحديث :

دعي محمد يختار عروسه بنفسه يا أمي . . . ربما سيختار من هي أفضل منها بكثير من منال . . . إن إصرارك على منال إجحاف كبير بحقه . . .

قاطعتها الأم مغتاضة :

كفى . . . كفى هذا الهراء . . . ونهضت واقفة ووجهها متجهم . . . ثم لملمت أطراف ثيابها . . . وانصرفت :

_ أنا ذاهبة لأنام . . . و قل لصديقك أن لا يخطو ناحيتنا . . . مفهوم !!!

ساد الجو بعض من الهدوء . . . والصمت والتململ . . . حتى استطردت فاطمة :

_ وماذا ستفعل يا محمد .. .

تنهد . . . في حيرة :" لا أدري . . . لا أدري . . .".

ومضت فاطمة تقول :

_ إنها ترفض حتى المناقشة في هذا الموضوع . . . بل رفضت عليا أيضا . . .

تأفف متفجرا :

إنها مشكلة . . . أن تشاركني . . . فتاة مثل منال حياتي الفكرية والنفسية . . . إنها ستتعذب . . .

أجابته :

_ لا تغامر يا عزيزي . . . لا تخسر حياتك . . .

استطرد وهو يلتفت يمينا ويسارا .

_ الوقت يمضي بسرعة . . .يافاطمة من علي يحتم أن نتمه خلال هذا الأسبوع . . .نهض وهو يضرب كفا بأخرى :" سأفكر مليا هذه الليلة لنتخذ قرارا اخيرا " وودعا بعضهما لينصرف كل منهما إلى غرفة نومه . . .

آثرت فاطمة إتمام الثوب الذي كانت تخيطه . . . فتلك هي هوايتها المحببة . . . اختارت معهد الخياطة والتدبير المنزلي بعد أن أنهت الثانوية العامة . . . وهي تفخر أمام زميلاتها أنها لا تشتري الملابس من السوق بل كانت تمازحهن قائلة " إنها صناعة محلية ".

وكانت كلما أمسكت بأناملها الإبرة والخيط تذكرت منال وسخريتها . . . أنت فتاة رجعية . . . قديمة متأخرة . . . لكن فاطمة لا تحتد معها بل تتعامل وإياها بمنطق هادئ . . . حيث تجيبها ضاحكة : " دعي الأناقة لك يا مانيكان" . .

وبعد لحظات اتجهت نحو ماكينة الخياطة . . . لتخيط القماش , بيد أن صدرها يصطخب بأفكار كثيرة لا تستطيع لها دفعا . . . فهر تعلم حجم المشكلة إن تم زواج محمد من منال . . . إنها ستكون شركة فاشلة . . . واستعرضت في خيالها صورة حياتها مع علي كما تصورتها متسائلة : كيف ستكون حياتنا في القاهرة . .؟ ربما سيكون الحال صعبا . . . الغربة . . . الوحشة . . . وهل سأتمكن من إسعاد هذا الإنسان . . . إنها ستكون تجربة قاسية . . . لكن قساوتها عب من الشهد طالما كان شريك حياتي إنسانا عظيما أتفق معه في أفكاره وقيمه ومثله . . . إني أتمنى أن أسعده من أجل تحقيق مطامحه وأهدافه . . . " فعلي " شاعر مرهف . . . كطير طليق . . . يثير ألحانه ليوقظ النفوس النائمة . . . ليشفي الأرواح الهامدة . . . إن حياته وإن خلت من البهجة المادية إلا إنها غاية ما أتمناه . . .

كان محمد بدوره كثير القلق هذه الليلة . . . فبعد أن أنهى مذاكرته . . . أطرق يفكر . . . وبأنامله . . . يعبث بدفتر محاضراته . . . تنفس الصعداء .. . وهو يحدث نفسه :" لماذا أعتبر هذا الأمر مشكلة , ألا يمكنني فعلا تغير منال ؟. . . إنها ربما تكون سهلة التكيف . . . فلأمنح نفسي فرصة لعلي أنجح فيها . . . إنها أخيرا أمنية أمي . . . لقد شقيت كثيرا في تربيتي , أليس من الظلم والإجحاف أن أخيب أملها هذا . . . إن زواج فاطمة وسفرها سيكون أمرا صعبا في حد ذاته . . فكيف أنغصها برفض منال؟ . . . فلأتوكل على الله عز وجل . . . وأتخذ قراري . . . عندما تسافر فاطمة لا بد من بديل مكانها في البيت , وأمي لن تقبل فتاة سوى منال . . . "

أطبق الكتاب متنهدا . . . وبخطى ثقيلة توجه إلى الفراش . . . وشرع يطالع كتابا في الفلسفة حتى . . . استسلم للنوم . . .

----

(3)

زوجة علي

اليوم كان ثقيلا. . . أحس محمد برغبة كبيرة في الغياب عن المحاضرة. . فثمة أشياء تطرق باب ذهنه. . . ومشاغل جمة تصطخب في خاطره. . إنه لم يبلغ والدته بقراره الأخير في الزواج من منال. . ويبدو أنها ما زالت متضايقة منذ الأمس. . . شرع يتململ في جلسته ليسأله زميل له في الفصل:

ـ هل تشاركني في كتابة البحث؟

وبدهشة يسأل: إنني لم أعد اسم الموضوع بعد. .

أجابه على الفور: لا عليك. . . فأنا قد أعددت الموضوع ومصادر البحث, وأحتاج إليك لتقوم باستفتاء ميداني. . .

تنهد "محمد" وهو مطرق: وما هو عنوانه؟. .

قال: "هجرة العقول العربية إلى الغرب". .

ابتسم: رائع! وأظن أنني قد كتبت في هذا الموضوع كثيرا. . وأستطيع أن أساعدك. . .

تهلل وجه الشاب وهو يضيف: ولي قريب يعيش الآن في ألمانيا مع زوجته كان قد تخصص في "علم الذرة", وعندما يئس من تقديم أبحاثه هنا استقر به المقام في "برلين" وقد كتب إلي ضمن مراسلاته الكثيرة أن معظم العلماء هناك ذوو انتماءات مختلفة, معظمهم هاجروا بعد أن رفضهم واقع الحال في أوطانهم, وقد ذكر لذلك أسبابا كثيرة أستطيع الاستعانة بها في البحث. .

قطع حديثهما دخول الأستاذ الذي لا تفارق البسمة وجهه. . وبعد تأمل دقيق في وجوه الحاضرين. . . تحدث على الفور قائلا:

ـ "أنا أرفض نسخ المحاضرات. . . وأفضل لكم الاستماع جيدا مع تدوين بعض الملاحظات المهمة. . . أهم شيء عندي الإصغاء والمناقشة والتعقيب على كل نقطة. . . فموضوع التنمية الاقتصادية أمر حيوي من صميم حياتنا وواقعنا, ولا أجد من الضروري كتابة كل شيء, فالكتاب سيساعدكم في تحصيل المعلومات". ثم استطرد محددا نوع البحوث المطلوبة من الطلبة. . واستغرق وقتا طويلا في مناقشة أهداف هذه البحوث وأهميتها. .

* * *

- "كنت قد اتصلت بك أمس ولم أجدك". قال محسن لمحمد, وهما يتناولان الفطور في الكفتيريا.

ضحك محمد: "إنه أمس حافل بأمور كثيرة. ."

وشرع يحدثه عن نيته في الزواج قريبا ومشكلته في هذه الزيجة. . .

قاطعه محسن: لا أظنها مشكلة يا محمد فالفتاة التي لا تنسجم مع أفكارك تستطيع تكييفها كيفا تريد. . . ورجل مثلك يملك القدرة الكافية على ذلك. . .

شرد ببصره بعيدا وهو يتخيل تلك المحاولات. . . .

ومضى محسن في حديثه: ومتى يتم العرس إن شاء الله. . .

تنهد: "خلال أسبوعين. . . ولكني سأبحث عن وظيفة تدر علي راتبا مناسبا, وأفضلها في المساء. . . ريثما أتخرج. . .".

قال محسن بعد تفكير: ما رأيك في وظيفة كاتب؟. .

أجاب مندهشا: أين؟ . .

قال محسن: في جريدة "المساء" اليومية. .

صمت محمد هنيهة. . ثم قال: "لكنني لا أريد لقلمي أن يكون مادة للاسترزاق ذلك صعب علي جدا. . ثم من يضمن لي هذا العمل؟. "

أجابه محسن: "لا تكترث يا عزيزي فسأحدث والدي بالأمر, إنه الصديق الحميم لرئيس تحرير هذه الصحيفة, وكثيرا ما يطلب مني أن أكتب فيها بعض البحوث العلمية, لكني غير متمكن. . . وعندما يقرأ كتاباتك فسيوافق على تعيينك بسرعة, وسيصرف لك مكافأة شهرية".

صمت محمد دون أن ينبس ببنت شفه, وقال أخيرا وهو يتنفس الصعداء:

- لا بأس, دعنا نلتق رئيس التحرير هذا المساء. . .

وعندما هم محسن بالانصراف جعل يقول:

- لا تنس اليوم, موعدنا الليلة الساعة الثامنة مساء في بيتي, وأرجو أن تذكر الأصدقاء, وعلى فكرة اليوم سينشد لنا علي قصيدة رائعة. .

ضحك "محمد": لكنه لم يقرأها لي عندما التقيته. . .ربت محسن على كتف محمد مبتسما "ستكون مفاجأة". .

وما أن انصرف حتى انضم محمد إلى أصدقائه في حديقة الكلية. . . ففوجئ بمشاهدة كلامية كان قد بدأها "عادل" فهم مقبلون على الانتخابات, كان أحد أصدقائه يصرخ بحدة قائلا:

- إنك إنسان متطرف يا عادل فالأجدى أن تكون موضوعيا. .

ويجيبه "عادل": أنا أرفض المناقشة مع جماعة ليس لها انتماء وجذور. . . وتدخل محمد: ويحكم ما هذا؟!. . أنتم طلبة جامعة, وينبغي عليكم التروي في اختيار ألفاظكم. . . لكل منكم الحرية في التعبير عن آرائه ومعتقداته, ولا حاجة بكم لكل هذا الصخب والتشنج!!

قهقه عادل مع زملائه وهو يشير إلى محمد:

- أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم؟. . . أنسيت ما كتبته في العام الماضي يا "محمد"؟ أني أحتفظ بمقالاتك. . . وعلى استعداد لمحاسبتك. . . لقد أطلقت تسميات دونما أدلة وبراهين. .

ونظر "عادل" إلى ساعته وأردف: على العموم سآتيكم فور انتهائي من محاضرتي هذه. . .

أجابه محمد: "على الرحب والسعة. . . وسنكون في انتظارك". . .

تأفف أحد الحاضرين في ضجر: "الحمد لله. . . لقد فض الاشتباك". .

وقال آخر متبسما: "إنه يحاول خلق نقطة لصالحه ومنفذ لهجومه". .

تنفس محمد الصعداء وهو يقول: "إن هؤلاء جراثيم تنخر جسد الوطن, يخلقون الفرقة حتى بين صفوف الطلبة." ثم جعلوا يتحدثون عن الانتخابات. . . إذ دعاهم محمد إلى التروي في مثل هذه المواقف. . . لكن أحد الأصدقاء قاطعه:

- كيف تريدنا أن نصمت. . . إنه أمر يفوق الاحتمال أن يأتيني إنسان مثل عادل وشلته ويتهمني. . . ولا أستطيع دفع هذه التهمة إلا بمثلها. . .

قال محمد: إنها استفزاز وإثارة لا ينبغي أن تقابلها بالمثل. . . بل عليك بالتجاهل. قال مغتاظا: إنه ضعف وجبن. . .

قال محمد بإصرار: بل هي قوة. .

وتدخل ثالث متوعدا: إن لم يكف عن أساليبه الاستفزازية فسأعرف كيف أدق عنقه. .

وصرخ به "محمد" : يا أخي إننا نختلف عنهم في الأسلوب والهدف. . . فما بالك أصبحت واحدا منهم. . .

ويتمتم متضجرا: إننا سئمنا هذه المناقشة العقيمة, وما علينا سوى استخدام العضلات. . .

وقهقه شاب آخر: سنحطم سياراتهم. . . ونحرق يافطاتهم. . .

كاد "محمد" أن ينفجر غيظا: أهكذا تعلمكم القيم. . . إنني أجد أطفالا يتحدون بعضهم البعض. . . ولا نطلب إلا الحوار الفكري الهادئ ليس من اجل عادل وشرذمته بل من أجل عامة الطلبة ليتفهموا حقيقة وضعهم. . . وإن هناك اتجاهات خاطئة في ساحة الجامعة علينا أن ننبه إليها الغافلين والسذج. . . وإنها مسؤولية يا إخوتي. . . أرجوكم تريثوا. . . إننا أمام إخطبوط شرس, وعادل هو جزء صغير منه, إن القضية أعمق مما تتصورون. . . فهناك خلف الستار أصابع خفية تمزق وحدتنا. . . وتشتت شملنا. . . نحن لا نريد أن نتحدى "عادل" وزمرته. . . فهؤلاء مساكين. . هؤلاء لا يعرفون حقيقة الوضع. . . إنني أرثي لحالهم. . . علينا يا إخوتي أن نكسبهم إلينا. . نطويهم تحت جناحي محبتنا. .

ضحك أحدهم ساخرا: إنك تحلم. . . بل هذه مزاعم واهية. .

أجاب محمد بحنق: بل يمكنها أن تكون حقيقة. . . طالما أصبحت فكرة راسخة في رؤوسنا. .

ثم نهض "محمد" وهو يذكرهم بموعدهم الليلة. . .

ـ ألتقيكم الليلة الساعة الثامنة مساء في بيت محسن. . وأستأذنكم الآن فقد حان موعد محاضرتي. . .

وفي طريقه التقى محسنا. . الذي كان يمشي مسرعا غاضبا وفي يده ورقة

قال "محمد" في دهشة: ما بك. . . ما هذه الورقة. . .

وبصوت متهدج شرع يقول:

ـ إنني ذاهب لأشتكي هذا الأستاذ فقد رسبت في الامتحان. . . رغم أني أستحق النجاح. . .وحاولت مناقشته وحل الأسئلة معه لكنه تجاهلني. . .

أجابه "محمد": هدئ من روعك يا عزيزي. . . تريث واذهب ثانية إلى مكتب الأستاذ لعله يساعدك. . .

لكنه وبغضب صرخ يقول:

ـ إنه منذ بداية العام الدراسي وإلى الآن. . . يتحداني. . . لا أعرف ماذا يريد مني. . . وأنا أفوق الطلبة معرفة واطلاعا واستطعت أن أجيب على أسئلة الامتحان بجدارة. . لكنه فاجأني بهذه النتيجة. . . ولا بد من ذهابي إلى عميد الكلية لأشتكيه. .

استوقفه "محمد": لا يا محسن, لا تتحد الأستاذ. . . إنك ستخسره. . تريث يا أخي. . . تريث. . . الأمر لا يستحق كل هذا الغضب. . .

لكنه أفلت من بين يدي صاحبه وهرول مسرعا نحو مكتب العميد. .

* * *

كانت والدة "محمد" غاضبة. . . آثرت الجلوس في غرفتها. . . ولم تحدث فاطمة. . .

ـ ماذا نفعل لنرضيك يا أمي؟ . . . قالت فاطمة بلهجة استرضاء وتوسل.

وأشاحت الأم بوجهها عنها دون أن تجيب. . .

أردفت فاطمة قائلة:

ـ أنا من ناحيتي سأرفض "علي" إن كان هذا يرضيك, ولكن أرجوك أن لا تضغطي على محمد. . . دعيه وشأنه. .

صرخت الأم:

ـ إنه يحب "منال" لكنك أقنعته بالرفض لأنك تكرهينها. . أنا أعرف هذا! إن لديك الإمكانية الكافية لإقناعه بالزواج من "منال". . . أنا لا يهمني رفضك أو موافقتك على خطبة "علي". بل يهمني ولدي "محمد". أن يتزوج ابنة أختي لأنعم برؤية أولاده. .

وصمتت. . لتنصرف "فاطمة" حزينة. . .

وعندما عاد "محمد" جاء ناحية أمه . . . يقبل رأسها:

ـ سامحيني يا أمي إن أغضبتك. . .

صمتت دون أن تنبس ببنت شفه. .

وعاد يقبل رأسها ثانية:

ـ أنا وافقت على خطبة "منال". . .

وتهلل وجهها فرحا وهي تأخذ وجهه وتقبله:

ـ أحسنت يا ولدي صنعا. . . أحسنت صنعا. . .

وجعلت تزغرد. . . فرحة مستبشرة. . .

وعندما تناهى إلى مسامع فاطمة هذه الزغاريد. . . جاءت مسرعة تستطلع الأمر. . . لتستقبلها والدتها بالقول:

ـ باركي لأخيك يا فاطمة, فسيتزوج من "منال". . .

صعقت الفتاة وراحت في دهشة تتأمل أخاها:

ـ إني لا أصدق ما سمعت أذناي يا "محمد". . .

وقطبت الأم جبينها:

ـ ما بك تسمرت هكذا. . . أعدي لنا عصير البرتقال استبشارا بهذه المناسبة السعيدة. .

ونظرت إلى محمد:

ـ ومتى تريد أن أخطبه لك يا عزيزي. . . فلنتقدم اليوم. . . أخشى أن تغير رأيك. . . يا إلهي. . أكاد أن أبكي من الفرح.

قهقه "محمد": أنا لا أعرف سر "منال" وسر حبك لها. .

قاطعته: إنك ستحبه يا "محمد" إنها فتاة لطيفة غاية في الظرف والوداعة. . . سأحدث أختي في الهاتف. . . لأسعدها. .

واستوقفها "محمد":

ـ ولكن يا أمي. . . لم نتفق على موضوع "فاطمة" أنا أفضل أن يتم عقد قرانها بسرعة حتى تسافر مع "علي". .

أجابت الأم: فلتتزوجه. . . ولتسافر. . . ولكن دعني أخطب لك "منال". .

استطرد "محمد":

ـ يا أمي. . . لم هذه العجلة. . دعينا ننهي زواج أختي ثم نفكر في موضوعي. ثم إن منالا بنت خالتي. . وتستطيع خالتي تقدير الموقف. .

أطرقت الأم تفكر ثم أجابت:

ـ حسن. . . دع الشاب يتقدم. . . مساء الغد. . .

كانت فاطمة مطرقة. . . متضايقة. . . ضجرة. . . اقترب منها "محمد":

ـ ما بك يا فاطمة. . . أراك تغالبين دموعك. .

وطفرت من عينيها دمعتان. . . لتتنهد:

ـ أنا أخشى يا "محمد". . . أن تكون فعلت كل هذا من أجلي. . فوافقت على خطبة منال مرغما لتقبل والدتي بزواجي من "علي". . يا إلهي إنها أبشع مساومة. . .

تنفس الصعداء. . . لترتسم على محياه غمامة حزن:

ـ لا تقولي هذا يا عزيزتي. . إننا لا نستطيع تخمين الوضع مستقبلا. . وربما سينصلح حال منال عندما أتزوجها. . .

ومسحت طرفها قائلة:

ـ أشعر أن عروسك القادمة غير أمنية على حياتك. . سأقلق عليك يا "محمد". . . ليتني كنت معك. . .

وقطع حديثهما "الأم" تدعو "فاطمة" لتحضير الغداء.

* * *

في الساعة الثامنة مساء. . . ضم بيت محسن لفيفا من الأصدقاء إذ هم يلتقون في أيام متقطعة من الأسبوع يتناولون أخبار الجامعة ومشاكلهم وأهم الأحداث التي تطرأ في حياتهم العامة. . فبعد وجبة العشاء. . . يبدأ حديثهم وسمرهم. . .

وكان من ضمن الحاضرين الشاعر "علي" الذي استقبل بحفاوة بالغة. . وعندما رأى حرارة استقبالهم. . . جعل يقول وهو مطرق حزين:

ـ إنني سأفقد هذه الصحبة الرائعة يا إخواني.

وأجابه :محمد" على الفور:

ـ إن قلوبنا معك يا "علي" ليس اللقاء هو لقاء الحس بل لقاء الروح. . والنفس. .

وقهقه أحدهم: ما هذا؟ ما هذا؟ تمهلوا. . .نحن لا نريد لاجتماعاتنا هذا أن يتحول إلى مأتم. . . ويحك يا شاعر. . . لا تنشد لنا ملحمة "درامية" منذ الآن. . . كان أحد الأصدقاء يتصفح إحدى الجرائد اليومية وهو يقول:

ـ أقرأتم هذا الخبر؟. .

والتفتوا إليه في دهشة: ماذا؟!. . أي خبر؟. .

ـ اغتيال البروفيسور إسماعيل الفاروقي وزوجته الدكتورة لمياء في منزلهما في الولايات المتحدة. . .

ونكسوا رؤوسهم مطرقين في وجوم: أجل. . أجل. . . لقد كتبت الصحف هذا الخبر. أجاب أحدهم مؤكد أن من خطط لهذه العملية الشنعاء هم من اليهود المتعصبين. ومضى الشاب في القراءة: إن هذا الإنسان بذل مع زوجته الكثير من التضحيات في سبيل إنجاح الدعوة الإسلامية في أمريكا, فقد سخرا كل طاقاتهما الفكرية والمادية لخدمة الدعوة الإسلامية, ومساعدة المسلمين الأمريكان. . . ومن خلال رحلاتهما العديدة في أنحاء الولايات المتحدة وخارجها استطاعا تكوين شبكة من المؤمنين بالإسلام. . . ووجودهما كان وحده السبب في تحويل جامعة "تمبل" إلى مركز لتعليم الدراسات الإسلامية في أمريكا, وفي الوقت الذي اغتيل فيه البروفيسور إسماعيل الفاروقي كان يشرف على تثقيف ثلاثين باحثا من كافة أرجاء العالم الإسلامي. وأما بالنسبة للدكتورة لمياء الفاروقي زوجة الأستاذ إسماعيل والتي هي أيضا تتمتع بالوعي وبصفات مميزة, فإنها استطاعت أن تقدم خدمات جلى للفكر الإسلامي. .

جعل الحاضرون يتمتمون: "إنا لله وإنا إليه راجعون". .

قال "محمد": إن عصابات اليهود يشكلون نسبة كبيرة في أنحاء العالم, وهؤلاء يتربصون لكل المبدعين والمفكرين الذين يقفون ضد دعوتهم ومخططاتهم. . . وكلنا يعرف الشباب المسلم الذي كان يدرس في الولايات المتحدة في "علم الذرة". . . والذي برع إلى حد أذهل كبار العلماء هناك, فحاولوا أن يشتروه بثمن بخس وقدموا له شتى المغريات, وعندما رفض ذلك راغبا في العودة إلى وطنه "اغتالوه". .

تمتم أحدهم ساخرا: والفاعل مجهول.

صاح "محمد" بغيظ شديد: إنه معروف الاتجاه, والنزعة والهدف, ولكن ماذا تفعل أمام قوانين وضعية تبحث عن أدلة وبراهين مادية لتنزل العقاب بالفاعل. . . إنه أمر مؤلم فعلا. . إنهم وراء اغتيال كل مبدع ومفكر في عالمنا الإسلامي, وقد نجحوا في استمالة الكثير من العلماء العرب المسلمين سواء في مصر أو العراق أو لبنان. .

"تنهد" ثم صمت. . .

وساد جو من الهدوء. . . ليسأل محسن "عمار":

ما أخبار الترجمة معك؟.

قال: الآن معي كتاب يتناول أهم الفروقات بين الديانة المسيحية والإسلامية واليهودية. . أحاول ترجمته بدقة, لطباعة آلاف من النسخ حيث تعهدت إحدى دور النشر أن تقوم بطباعته مجانا, على أن يقوم أحد الأصدقاء بتوزيعه في إفريقيا. . . وأوروبا. . .

أجاب محسن: أعتقد أن هذا الكتاب يكلفك مبالغ طائلة.

قال: بالتأكيد.

ثم تدارسوا مشاكلهم الجامعية. . .مما أثار موضوع الانتخابات في الجامعة فبدأ "محمد" يتحدث عن أهداف قائمتهم. . . وأهم المشاكل التي ستعترض طريقهم ثم جعل يوزع المسؤوليات على الحاضرين. وبعد ذلك عرض "خليل" بعض اليافطات التي خطها وصممها. . .لهذه المناسبة. . . وما أن ختموا موضوعهم هذا توجهت عينا محسن ناحية "علي" وهو يبتسم قائلا: الآن نستمع إلى آخر قصائد "علي". . .

وشرع "علي" ينشد أبياته بهدوء بينما أصغى إليه الأصدقاء وكأن على رؤوسهم الطير. . .:

أيها الليل. . .

وقبل قرنين من الزمان. .

قرب أي واحة كنت تعيش. . .

وفي سماء أي حضارة كنت تضيء. . .

أي عاشقين كانا يحرسانك. .

أي قلبين كبيرين معك. . .

من. . ؟ كان في ظلام يعبدك. .

من. . ؟ كان في القبور ينعى مصرعك. .

من. . .؟ كان في الوجود ينكر أملك. .

أيها الليل. .

في أي تاريخ يموت الناس والقرصان. .

في أي عام يهدأون. .

وأي نشيد يعزفون. .

أيها الليل. .

من؟. . . يناجيك وحيدا. .

من. . ؟ يعانقك حبيبا. .

حين تسير تائها فوق الصخور. .

حين تعود ناقلا هم العصور. .

في أي حقل بائس تنوّر. .

يا أيها الليل الصديق. .

أين تقف تنتظر الرسول؟. .

فبعدك الحنين لن يطول. .

وصوتك الضعيف قد عفا. .

وعمرك العظيم انتهى. .

في أي عصر ستعود. .

وهتف به المستمعون: أجدت يا "علي". . . كانت قصيدة رائعة. . . فقد كان "علي" يتنهد بين سطور القصيدة وينتقل بين الكلمات بحزن وألم. . . وقبل أن يتفرق الجمع عائدين إلى منازلهم. . . قال "محمد" بوجه منطلق الأسارير:

- تهيأوا خلال هذين الأسبوعين لمناسبة سعيدة ستفرحون بها. . . وجعلوا بفضول شديد يسألون عن هذه المناسبة وبعد إلحاح وإصرار. . . أخبرهم "محمد" عن خطبته القريبة وزواج أخته من أخيهم "علي". . . فقدموا تبريكاتهم وتهانيهم بهذه المناسبة. . .

وتم خلال يومين عقد قران "فاطمة" و"علي". . . في احتفال عائلي بهيج ضم لفيفا من الأهل والأقرباء. . . ولم يبق أمام الزوجين سوى أسبوع واحد يستطيعان خلاله التسوق وتحضير لوازم السفر. . . لم تكن فرحة "فاطمة" بقادرة على إخفاء حزنها الكبير الذي يختلج في قلبها, فهي ستفارق بيتها الذي تربت فيه أعواما طويلة. . . ستفارق أمها وأخاها. .

اقترب منها. . . فإذا به يجد عينيها غارقين في الدموع. تأملها بوله شديد. . . وسألها بقلق:

ـ ما بك يا حبيبتي. . . ما هذه الدموع؟!

وأخرج من جيبه منديلا صغيرا وجعل يجفف دمعها. .

ـ أتراك متضايقة من السفر؟!. .

بدت ساهمة لا تتحرك. . .

تنهد قائلا: أجيبيني يا حبيبتي. . . أجيبي. . . أنا لا أحتمل أن أراك حزينة. .

تنفست الصعداء:

.. . ولو سافرت إلى أقاصي الدنيا وأطرافها فلن أفارقك. . . فرفقتك هي أحلى من كل طيبات هذه الدنيا. . .

تهلل وجهه بالبشرى. .

ـ إني أحمد الله كثيرا أن رزقني بزوجة صالحة. . . صابرة. . . إنه لمن أجزل النعم والعطايا يا محبوبتي الغالية. . . سوف لن أشعر بالوحدة والغربة طالما أنت معي. . .

وأخذ كفيها الصغيرتين بين كفيه يضغطهما هامسا. .

ـ أنت إنسانة مقدسة. . . عظيمة. . . أتمنى من الله عز وجل أن يرزقني منك بذرية صالحة. . . فعاهدني يا محبوبتي على الإخلاص والصبر على قسوة الحياة ومرارتها. . .

ابتسمت بوداعة: أعاهدك يا زوجي الحبيب. . .

دعتهما والدة "فاطمة". . . لتناول الغداء. . .

فخرجا وقد تبدد حزن "فاطمة". . . وعلت وجهها ابتسامة هادئة. . . وعندما حضر "محمد". . . جلسوا سوية حول .

ـ لا بد أن نذهب اليوم لنخطب "منال". . . يا محمد. . . فماذا تقول؟!!.

صمت هنيهة. . . لكن أمه قطعت صمته:

ـ ما بك يا "محمد". . . هل عدلت عن قرارك. . . فسأذهب اليوم مع فاطمة لنخطبها ويوم الخميس نقيم العرس. إن شاء الله. . . فأنا أفضل اختصار الوقت قبل أن تسافر فاطمة. . . لتساعدني في أمر زواجك. . .

قال متذمرا: لا أريد احتفالا "عالميا". . . أنا أفضل حفلة عائلية بسيطة يا أمي ووليمة متواضعة. . .

تنهدت الأم متضجرة: لك ما تريد. . . المهم أن تتزوجها. . . لأرتاح يا بني. . . فأنا قد أخبرت أم "منال" وقد استعدت لمراسيم الخطبة والزواج. . .

استطرد فاطمة:

ـ يجب أن تذهب يا "محمد" معنا لنتحدث إلى منال. . . لتكسر الحواجز بينكما. . . دعها تفهمك. .

أجاب على الفور: أجل. . . فقد خططت لهذا الأمر طويلا. . .

غمرت الفرحة قلب الأم وأردفت بشيء من السرور:

ـ المرأة إذا أحبت زوجها تفعل المستحيل لإرضائه. .

وأضاف "علي": ولكن يا خالة, هناك لقاء الهدف بين الزوجين. فالزوجة لا ينبغي أن تتغير إرضاء لزوجها. . . بل لقناعتها بهذا الأمر. . .

أومأت فاطمة بعينيها ليكف عن هذا الحديث الذي أثار حفيظة والدتها. .التي قالت:

ـ هذا كلام كتب وروايات يا ولدي. . . فالرجل لا تسعده إلا المرأة التي تحبه, حتى وإن كانت جاهلة لا تكتب ولا تقرأ.

وفي المساء. . .

تم اللقاء بحفاوة كبيرة. . حيث اجتمعت الخالات وبناتهن. . . لتتم الخطبة. . . وقد طلب "محمد" لقاء "منال" حيث جاءت إليه. . تمشي على استحياء. . . وقد التفت في خمار أخضر وجلست إلى جانبه مع شقيقته فاطمة. . .

صمت هنيهة وهو يحدق في سقف الغرفة يستجمع شيئا من شجاعته, بينما انشغلت فاطمة مع الفتاة في حديث آخر. . .

كيف يستطيع أن يحولها إلى امرأة ذات موقف في الحياة. . هل يمكن لهاتين العينين أن تستقرا في قاع من الأشواك والطين الأسود. . لا بأس أن تشاركه صامتة. . . وأن تصنع من الشخصية: شاب وسيم. . . خيلاء الرجولة في عينيه. . . وكبرياء المبدأ إشعاع يرتسم على محياه الصامت. . . كل شيء فيه يوحي بالجدية والنظام. . . إنه يختلف عن أشباه الرجال. . أولئك لا يحملون من الرجولة سوى تسميات باهتة تفتقد إلى المحتوى. . . أما هو فيختلف

كثيرا عنهم. . . في كل شيء في معاناته التي تربطه بكل بقعة تنتشر في هذا الكون الفسيح. . . إن الزوجة تعني له استراحة. . . يعود إليها المحارب من الميدان. . . ليمسح عن جبينه قطرات العرق. . . وليتزود من راحته الهانئة شيئا من الدعة والسكون. . .

قال. . . وهو يرمق فاطمة:

ـ أظن أن منالا تنوي التدريس بعد انتهائها من المعهد. . .

أجابت "منال" بصوت خفيض أقرب إلى الهمس:

ـ نعم سأدرس في رياض الأطفال. . .

حاول أن يتحاشى النظر إليها. . . فجمال العينين لا يعنيه. . . لون الوجه. . . حمرة الخدين. . . كل هذه المعاني تكاد تختفي من قاموسه الفريد. . .

ـ أنا أتمنى يا "منال" أن تفهميني. . . ولا أعتقد أن هذا اللقاء القصير قادر على تقريب مفاهيمنا, فالحياة الزوجية لها معالمها الخاصة وأسلوبها المباشر الذي يختلف عن التمويه. . .

برقت عيناها مندهشة:

ـ ماذا تقصد يا "محمد"؟.

ابتسم ابتسامته الضيقة التي ترتسم على فك عريض يعلو ذقنا تجعله يبدو في سن كبيرة. . .

ـ لا أحمل في رأسي أسئلة, حتى وإن كانت فهي لبست كما أريدها. . . لا أحب أن أجري لك اختبارا نظريا. . .

ضحكت فاطمة وهي تربت على كتفه:

ـ لا عليك يا محمد . . . المهم أنك. . . تسأل بعض ما تراه مناسبا الآن. . .

قاطعها على الفور وهو يخفي عينين هادئتين تبحثان بفضول عن حقيقة كل شيء:

ـ يجب أن تعرفي يا "منال" أن حياتي تختلف عن حياة الكثير من الرجال. . . تختلف عن حياة أخيك وأبيك. . . وكل ما ترينه أمامك. . . فأنا قد تزوجت قبلك. . .

تسمرت عينا الفتاتين. . . بشيء من الدهشة تتمتم منال:

لم أكن أعرف هذا. .

ضخك دون أن يرفع طرفه:

ـ أقصد. . . إني تزوجت "عملي" و"مسؤولياتي" وأجد حياتي الزوجية من الأمور الثانوية. . . أو الهموم الذاتية التي لا أعيرها أهمية كما أفعل بعملي. . .

ابتسمت منال وقالت بحياء حاولت أن تداريه:

ـ يبدو أنك زعيم كبير أو لعلك قائد مهم. . .

صمت "محمد" هنيهة. . . وتردد بعض الشيء. . . يستجمع أفكاره. . . ثم مضى في حديثه:

ـ لا أستطيع أن أحقق لك الرفاهية وبهجة الحياة الزوجية التي تتوقعينها يا منال. . . فكل شيء سيكون بسيطا, متواضعا, زهيدا. . . وأنت فتاة مترفة كما تعرفين. . .

قاطعته بحماس قائلة:

ـ أنا لا تهمني المادة يا محمد. . . فطالما أجد معي زوجا صادقا وخلصا فالحياة تهون أمامي.

وقالت "فاطمة" كأنها توقظ منال من أحلامها:

ـ حتى لو قادت الظروف إلى أن يعترض "محمد" لمضايقات وضغوط خارجية. . .

ابتلعت الفتاة ريقها وهي تجيب في حشرجات متقطعة:

ـ لا. . . أنا. . . لا يهمني. . . لا يهمني. . .

وابتسم "محمد" ابتسامة إشفاق. . . وهو يتذكر. . إن هذه الفتاة ستتعذب معه. . . إنه يعرف حياته. . . ويفهم طريقه بوضوح. . . فقد خطط له خطوة. . . بعد خطوة. . . وكل خطوة لها حسابها الخاص. . . فوجد أن منالا تتكلف الاستجابة إرضاء لعاطفتها. . . من أجل "محمد" لا من أجل مبدئه. . . لعل التجربة المريرة التي ستعيشها معه. . . تصنع منها نفسا أكثر قوة. . . وروحا أكثر صدقا. . . إنها الآن تسمع صوته. . يدوي في قلبها ليرتجف وتذعن بالاستجابة. . . لكنه يسمع من بعيد صوت السجون والمشانق. . . والآلام. . . والحرمان. . . ومستقبله. . . سوف لن يكون هادئا كما توحي عيناه دائما بالهدوء. . . إنه يخشى عليها من نفسه. . . يخشى عليها من عنف الأيام. . . فهو قد تحرر من الخوف. . . تحرر من المستقبل الذاتي. . . وهذا التحرر زوده بالقوة. . . وطاقة على العمل. . . إنه لا يفكر بحياة هادئة. . . ساذجة. . . طيبة. . . بيت متواضع وزوجة تحميه من برودة الشتاء وحرارة الصيف. . . وبراعم صغيرة تطوقه من كل ناحية. . همه أن ينزع الكوابيس من أحلام النائمين. . .

نهض محمد. . . وهو يستأذن في الخروج. . . ولكنه لم يختلج في كيانه سوى مرارة من الألم. . . فهو لا يفهم بقلبه كما تفهم منال. . . بل يفهم بعقله. . . وحاول أن يستجمع بسمات يتصنعها أمام الحاضرين. . . ويبدي لهم إحساسا بالسعادة.

اقتربت منه "فاطمة". .

وبشيء من الفضول. . . تشده من ذراعه. . . تقول:

ـ ها. . . ماذا ستفعل؟. .

أجاب على الفور: لا بأس. . .

وفي هذا اليوم. . . علت الزغاريد. . . في بيت الخالة. . . وعلت أسارير والدته فرحة أحست أنها فرحة انتصار لم يسبق لها أن حققت مثيلا له. . . وشرعت الخادمات يقدمن العصير وأطباق الحلوى للضيوف. . .

التزم محمد الصمت وسط هذا الضجيج المتلاطم. . . وخيل إليه أن "منال". . . تقف على قبره تلبس ثوب الحداد. . . شعرها أشعث تلطم وجهها. . . صارخة تندب حظها. . . شبابها. . . تنهد. . . وشهق شهقة كبيرة. . . وشعر أن هناك دموعا حبيسة تبحث عن متنفس لتنفجر. . . بيد أنه يقاومها. . . وأصبح يقاوم الثواني والدقائق. . . بات من الصعب .

اضطهاد هذه الدموع. . . فسلاح القهقهات المفتعلة ... يرغمها على الاستسلام ... لا فائدة ... نهض واقفا ... لتنشد عيون الحاضرين ناحيته كأنها تسأل : هل هو عازم على الذهاب ؟ لكنه قال بهدوء :

ـ سأعود بعد قليل ...

وذهب إلى الحمام ... ليفجر هذه الدموع ... إنه سيعتقل في سجن حياته فتاة ساذجة ..تحلم فقط ... ولا تستطيع أن تستيقظ من أحلامها ... زفر زفرة طويلة وهو يحدق في المرآة ... يتأمل ... شعيرات تناثرت على ذقنه وفوديه .. فبدا وكأنه في العقد الثالث من عمره .. ثم أطرق متنهدا :

ـ ليفعل الله سبحانه ما يشاء ...

حاول أن يسمح آثار الدموع .. حتى لا يثير ا لانتباه إليه ...فغسل وجهه بالماء والصابون ليخفي احمرار عينيه ...وخرج ... وابتسامة واثقة .. . ترتسم عل شفتيه. .

وانقضت هذه الليلة ببطء شديد. . . دقائق ثقيلة. . . وفي طريق العودة. . . كان يقود السيارة وهو شارد. . . لتسأله والدته مازحة:

ـ أرأيتها كيف كانت رائعة. . أظنك قد وثقت من كلامي الآن. . .

ابتسم وهو ما زال في شروده. . . لتكمل الوالدة حديثها:

ـ وسيتم يوم الخميس "كتب الكتاب". . كما اتفقنا. . . وعلينا الآن أن نشتري الشبكة وإعداد المهر. . .

كانت كلماتها كسهام حادة. . . تضرب في رأسه. . . تبعث في نفسه الآلام. . تأملته فاطمة بوله شديد. . . وعيناها كسيرتان. . . كأنها تخاف على أخيها. . من نفسه:

ـ ما بك يا "محمد" . . . أراك صامتا.

تنهد: ليس عندي ما أقوله. . . فوالدتي تجيب. . .

ابتسمت الوالدة. . . كأنها اعتبرت إجابته. . . شهادة إيجاب كبيرة. . تشهد على صواب رأيها. . وباعتزاز وفخر شرعت تتمتم: "ألف الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله محمد". . . وأوشكت أن تزغرد لكن محمدا قاطعها:

ـ "تمهلي يا أمي. . . نحن ما زلنا في الشارع". .

وبفرحة تغمر قلبها وتفيض أجابت: "لا أستطيع أن أمنع نفسي من هذه الفرحة يا ولدي". .

وعاد الألم إلى قلبه ثانية. . . فهو بدأ يشفق على والدته هذه المرة لماذا يرى الناس ظواهر الأمور لا بواطنها كأن الناس لعب من الخشب والصوف تصف إلى بعضها باسم الزواج. . . مسكينة هذه الأم. . الفرق بينها وبين "محمد" كبير. . . إنها تضطهد نفسها بفرحة موهومة. . . وهو. . . يضطهد نفسه باستجابته التي يأمل أن تنتهي إلى خير. . .

وصلت السيارة. . . لتقف قرب الباب. . . ترجلت منها السيدتان بينما بقي "محمد" في مقعده. . . وبدهشة تساءلت "فاطمة": ألا تدخل معنا البيت. . .

قال: أنا على موعد الآن. . . وأومأ يودعهما. . .

وقاد سيارته بسرعة. . . إلى ميدان بعيد جدا. حيث كان زميله "محسن" في انتظاره. . . وطافت سيارته شارعا واسعا. يضم دور النشر والصحافة. . . وهدأ من سرعته. . . ليقف عند مبنى كبير. . . تتصدره يافطة كبيرة. .. ظهرت عليها بالضوء الحمر "جريدة المساء". . . وكان يبحث عن سيارة "محسن" وسط موقف السيارات. . . فهو قد تأخر عن موعده نصف ساعة وليس من عادته أن يفعل. . .لعل صاحبه ضاق ذرعا من الانتظار. . . ولما وجدها. . . سيارة زرقاء. فارهة تحمل لوحة رقمها (856). . . أوقف سيارته بجانبها. . . ليهم مسرعا وبخطوات واثقة. . . سريعة. . إلى المبنى. . . واستوقفه مسؤول الاستعلامات. . . طالبا بطاقته. . . وبمجرد أن التقطها. سأل: "أستاذ محسن موجود؟". . . تنحى الرجل من مكانه. . . كأنه يكبر هذا الاسم: "نعم. . . إنه في انتظارك في الطابق الخامس. . . غرفة رئيس التحرير. ." وقبل أن ينصرف. . . دفع إليه الرجل بطاقة زرقاء كتب عليها باللون السود كلمة "زائر". . . وبابتسامة هادئة اعتاد عليها قال "ضعها على قميصك". . . ومضى وهو يبتسم: "إنه إجراء روتيني". . .

أمسك محمد البطاقة بيده. . . ثم دخل المصعد الكهربائي. . . يضغط على الزر الخامس وهو مطرق. . . نفاق. . . نفاق. . . أصبحت الأسماء والألقاب تقلب الكيان. . . إنه رجل أبله. . لم يعرني انتباهه وابتسامته إلا عندما عرف أني في طريقي إلى "أسياده". . . تأفف متفجرا. . لا يعرف ماذا يثير ضجره. . . كل شيء. . . خطبته. . . هذا الرجل. نفسه. . . إحساسه أنه يحيا في عالم يتعامل مع الإنسان كأنه حجر أصم. . . أف. . . أف. . . شرر ولهيب يتطايران من عينيه. لكنه هدأ. . . عندما لمح محسنا أمامه. وفور أن توقف المصعد وانفرجت بابه. . . شده من ذراعه وهو يحييه تحية المساء: "لقد أبلغني العامل عبر الهاتف أنك في الطريق إلي. . . "

تنهد "محمد" وهو يجيب: كدت أن أنفجر. . .

ضحك محسن: "لماذا؟". .

ـ هذا العامل يظن أنني جئت أشحذ منه. . . وعندما ذكرت أسمك انتصب أمامي كتمثال صموت. . .

ربت على كتفه: "لا عليك. . . هؤلاء مساكين". . . وأمسكه من يده يقوده إلى رئيس التحرير. . .

وطرق محسن الباب طرقا خفيفا. . . ثم دخل مع صاحبه. . إلى المكتب. . . ليقف أمامهما. . . رجل بدين. . . أصلع. . . يضع على عينيه نظارة سميكة. . . يعلو فمه شارب خفيف. . . مد يده لمحمد مصافحا. . . وهو يتمتم: أهلا وسهلا. . بينما محسن يشير إلى الرجلين. . .

ـ هذا أستاذ محمد الذي حدثتك عنه, طالب في العلوم السياسية في السنة الثانية. . .

وانتقل إلى الرجل الآخر يرمق محمدا قائلا. . . وهذا هو الأستاذ "عبد الله معروف" "رئيس التحرير". . .

وبهدوء أجاب "محمد" تشرفنا. ..

وأمر الأستاذ عبد الله لضيفه "بفنجان قهوة". . . ليدور حديثهم. . . حول الصحافة والإعلام. . . ومشاكل الكلية. . . والوعي. . . أشياء كثيرة وسط هذا العالم تستحق الاهتمام. .. ليتطرقوا إلى سياسة البلد. . . والإشاعات المنتشرة. . . عن حل مجلس الشعب. . . حيث يقول الأستاذ عبد الله بشيء من التحفظ:

ـ إن مسألة حل المجلس لها سلبياتها وإيجابياتها, فلا يمكننا أن نتطرف في هذه القضية. . .

استطرد محمد بعد تفكير طويل:

ـ ولكن هناك من بدأ يتضرر بسبب حل المجلس. . . فلماذا كان الخبراء الأمريكان يحرصون على ضرب بعض الكوادر الواعية في البرلمان. . . متهمين إياها بالإرهاب. . أليس لأنها تفضح سياستهم. . . وتنبه الشعب إلى حقوقه المهدورة. . . أتذكر مناقشة المجلس في الأيام الأخيرة وكانت تدور حول القواعد العسكرية الأمريكية. . . كان أعضاء البرلمان أغلبهم يرفضونها. . . إنها استعمار ولكن جاء بوجه أفعى. . . وقد بلغ من حدة النقاش أن أصدرت الجمعيات الطلابية أكثر من منشور يؤيد فيه أعضاء البرلمان. . .

قهقه الأستاذ عبد الله طويلا ثم نظر إلى "محمد" طويلا كأنه يستجمع خيوطا دقيقة من شخصيته. . .

ـ أنت بطل يا "محمد". . . بطل. . . أنت تذكرني بأيام شبابي. . . حينما كنا نسمع أخبار مصر وزعمائها. . . كأحمد عرابي. . . وسعد زغلول. . .

صمت محمد لم يثر فيه هذا الإطراء أي شيء. . . كأنه يعرف أن ما يقوله أمر عادي جدا, حتى أن لسان الطفل يلهج به دائما:

ـ إن أفراد الشعب يدركون أسباب حل المجلس. . .

وتنحنح محسن وهو يحاول أن يومئ لمحمد بالسكوت. . .

ـ المهم دعونا نتفاهم متى يستلم محمد وظيفته. . .

أجاب "الأستاذ عبد الله" وهو يرمق "محمدا" بإعجاب يشوبه حذر كبير: "لا أظن أن شابا حيويا متوقدا كمحمد يمكننا رفضه. . . إنني أتمنى لو أن كل العاملين في جريدتي. . . يحملون جزءا من حماسة محمد. . .

أحس محسن بزهو كبير, كأن الإطراء موجه إليه شخصيا. .

ثم مضى الأستاذ عبد الله يتحدث دون أن يتحول بناظريه عن محمد:

ـ ستستلم وظيفتك منذ الغد يا "محمد". . . محررا في الصفحة السياسية. . بمكافأة قدرها مائة دينار, وأنا أعدك منذ الآن إن أظهرت نشاطا كبيرا فأمامك فرص ترقية كثيرة. .

تنهد "محمد" قائلا:

ـ يمكنني أيضا تغطية الأحداث السياسية في البلد. . .

أجاب الأستاذ عبد الله بإعجاب كبير ولفافته في يده:

ـ بكل سرور. . . هذا أمر يدعو إلى الفخر. . . ويغادر محمد كرسيه. . . بهدوء بعد أن ساد جلستهم جو من الصمت. . ويقول:

ـ أرجو المعذرة. . اسمحوا لي بالانصراف. . . فأنا على موعد الساعة الحادية عشر مساء. .

ووقف الأستاذ عبد الله يتأمله:

ـ سنراك غدا إن شاء الله. . .

وما أن خرج "محمد" و"محسن" من المكتب. . . حتى رفع الأستاذ عبد الله سماعة الهاتف. . . وأدار القرص. . . ليتحدث بصوت تتراقص فيه نبرة الخبث ولذة النصر إلى شخص على الطرف الآخر. .

ـ لقد عثرنا على صيد ثمين. . .

ويقهقه. .. وهو ينفث دخان لفافته بهدوء:

ـ يمكننا كسب قلمه. . . فقد قرأت له مقالات سياسية كان قد كتبها في صحف الجامعة. . .

ويطفئ اللفافة في إناء القهوة. . . ولمعة ثاقبة تشرق من عينيه اللئيمتين. . .

ـ أستطيع الاعتماد عليه. .

وودع المتحدث. . . وضغط على زر بجانبه. . وهو يهز جسده الضخم في كرسيه الهزاز وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه. . . وفجأة يفتح الباب. . وإذا بفتاة شابة بعثرت شعرها الأسود الفاحم بجنون ورعونة. . . وكست وجهها بطبقات سميكة من "المكياج". . أظهرتها بجمال صارخ. . . وفستان ضيق عاري الكتفين. .. وبغنج. . جلست أمام الرجل. . . تضع ساقا على الأخرى. . .

- "أمرك!. . "

يتأملها بعينين شرهتين. .

- "اكتبي لنا عقد تعيين لكاتب جديد". .

قهقهت عاليا وهي تحاول إثارة الرجل واستمالته

قالت كأنها تعرف برنامج العمل الذي اعتادت عليه:

- رقم جديد!

ثم نفخت في الهواء. . . وهي تقهقه. . .

- . . . . و finish . .

وقهقه هو الآخر ليستطرد بخبث:

- السكرتيرة الشاطرة . . تعرف لزوم الشغل. . .

ثم جعلت تقترب منه . . . وتلتقط من علبته لفافة. . . وقبل أن تنصرف استوقفها وهو يمعن النظر في مفاتنها الرخيصة. . . وحدق في عينيها طويلا ثم قال يذكرها:

- لا تنسي الليلة. . . عندنا ضيوف من السفارة. . .

واندفعت خارجة وهي تقهقه:

- أوكي. . .

لم يكد محمد يصل إلى بيته حتى لمح عليا في طريقه. . .

- ها. . . ماذا فعلت في حفلة الخطوبة؟. .

وما أن اقترب منه حتى اندفعا معا إلى البيت. . . ليحدثه بطلاقة. . . وصديقه. . يصغي إليه. . .

كانت فاطمة تعد حقائب السفر. . . وأمها. . . تحوم في البيت. . . تحدث فيه بعض التغيرات لاستقبال العروس الجديدة. . فهذه الأحداث الجديدة تركت تأثيرها على بيتهم البسيط الذي لم يغيره الزمن منذ أن توفي الوالد. . . ملامحه. . ألوانه. . أثاثه القديم. . . لا أحد فيهم يشعر بالحاجة إلى ذلك التغيير. . . بل لم يفطن إليه أي منهم. . . لعل زهدهم في الحياة. . . انشغالهم بأشياء أخرى جعل لون الجدران. .. وهذا الديكور. . . وذلك السرير القديم. .. كل شيء يبقى على حاله. . حتى اقلب في هذه الليلة. . . حركة تبعث فيه الحياة "فاطمة" تغسل ثيابها. . . وثياب "علي" ثم تكويها. . . ثم تعود إلى المطبخ .. . تتطلع إلى "دولابه" لتأخذ ما تحتاجه في سفرها. . . من البهار والفلفل, حركة دؤوبة. .. تصعد. . . تنزل. . . كأنها فراشة تحوم حول الزهور. .. وعندما استقرت بقرب زوجها أخرج من جيبه تذاكر السفر ودفعها إليها. .

وسألته. . . في أي يوم؟. . .

أجاب : يوم الجمعة الساعة الثامنة مساء. .

احتضنت التذاكر يتهادى قلبها بين الفرحة والحزن. . . وجعلت تقلبها كأنها تقبل يدي زوجها. . . ثم شرعت تبحث عن جواز سفرها, وبطاقة هويتها, وكل الوثائق اللازمة هناك. . . وصمتت هنيهة. .. لتقفز ناحية المكتب وتخرج عقد زواجهما. . واستوثقت ثانية من الحقيبة وهي تتذكر ما إذا نسيت بعض اللوازم. . . وكانت تخرج بين لحظة وأخرى إلى صالة الاستقبال تقطع حديث الرجلين تسأل زوجها عما إذا ابتاع لها بعض الأغراض الإضافية, وتعود تذكره بالمناشف. . . بكتبه التي سيأخذها معه. . . فكانت عروسا سعيدة. . . فرحة. . . إنها مغتبطة بزوجها الذي كانت تتمناه قبلا. . . إن سعادتها تفيض. . . بل تخشى عليها أن تضيع بين الدقائق والثواني. . . وعندما انتهت من عملها الذي تكرره في كل ليلة. . . تذهب ناحية المطبخ تعد الشاي وبعضا من الشطائر. . . وتضعه أمام الرجلين. . . ثم تثب إلى الغرفة التي شغلت والدتها ساعات طويلة:

- هوني عليك يا أمي. قالت "فاطمة" وهي تزيح "الدولاب" الكبير الذي كان في مقدمة الغرفة. .

أجابت الأم لاهثة:

- سنضع هنا أثاث غرفة النوم, سأطلب في الغد خادمة أختي لتنظفها معي. . . وبعد أن أخرج منها هذا الأثاث القديم. .

قاطعتها "فاطمة" وهي تشدها من ذراعها:

ـ دعي هذا العمل الآن. . . وهيا لنشاركهما الجلسة. . فقد أعددت الشاي احتفالا بهذه الليلة. .

وبحنان طفولي جعلت تضم أمها إلى صدرها وهي تهمس:

ـ تعالي معي لتري تذاكر سفرنا إلى القاهرة. . .

صمتت الأم. . . لتدمع عيناها. . . وهي تشد ابنتها إليها:

ـ يعز علي فراقك يا حبيبتي. . . أراك فرحة. . . مستبشرة. . . أتمنى لك السعادة دوما. . سأفتقدك. . . هنا. . في هذه الدار. . في المطبخ. . . على السلالم. . وشرقت المرأتان في الدموع. . . لتقول فاطمة بعبارات يقطعها التأثر:

ـ لا تعذبيني يا أمي. . . دعيني أنسى أنه يوم فراق. . .

وتربت الأم على كتفها:

ـ انسي الماضي يا حبيبتي. . . وانظري إلى المستقبل. . . في هذه الدنيا. .

وانضمت السيدتان إلى الرجلين في الصالون. . . يتسامرون حتى ساعة متأخرة من الليل. . .

لم يكن صباح هذا اليوم يوحي بشيء من النشاط. . فمحمد. . . يترنح بين أفكاره التي ترفض أن تنتظم في مخيلته. . . إنه يسأم من كتبه. . . من محاضراته. . . لكن موسم الانتخابات كان يدفعه إلى الكلية بشغف كبير. . .فهو قد أعد برنامجهم. . . وكان كلما حاول التحدث إلى بعض الطلبة السلبيين. . يتحاشونه بعيدا. .. فها هو أحدهم. . . شاب نحيل. . . قصير. . . ضئيل الجسد. . . وضع على عينيه نظارة غطت النصف العلوي من وجهه. . . فيهزه بشدة. . .

ـ دعنا من السياسة يا صديقي. .. دعنا نذاكر دروسنا ونجح. . .

وعندما عم ليناقشه. . . تركه الشاب دونما اكتراث لحديثه. . . فوقف صامتا بغضب. . . لا يتحرك. . . حيث وجد هذا الشاب يقف إلى جانب زميلة له صاحبة البنطلون الأزرق يحدق بها ويصغي إليها بشوق كأنما يسترق السمع إلى صوت كروان يغرد في فجر عيد. . . وابتسامة عريضة تتراقص على شفتيه الرقيقتين. .. جعل "محمد" يثور. . كأنه الليث يزأر في الغابة. . . متبرما. . . يتمتم بعصبية: "يا لتفاهتم. . . يا لتفاهتم. . . أف. . .أف. . ." لكنه اقترب منه ثانية وعاد يقول:

"نريدك أن تتكرم. . . وتنتخب أعضاء جمعيتنا. . . ".

صرخ الشاب به ثانية: "قلت لك لسنا أنصار سياسة".. . وبرجاء قال "محمد" : "دعنا نتفاهم". .

قاطعه: "أرجوك. . . عندي امتحان. . . دعني أذاكر. ." وما أن ابتعد عنه "محمد" حتى عادت البسمة إلى شفتيه ثانية. . . وشغفه في سماع همس الفتاة التافه. .

وأخذ "محمد" يتمتم ساخرا: "ذاكر. . . ذاكر الامتحان جيدا. . . أنا أجزم أنك من أوائل الفاشلين في الدراسة". .

أطرق يفكر ساهما. . وغمامة من الضيق تختلج في صدره. . إنه يعاني من هؤلاء الشباب, البسطاء الذين تصل بهم الحماقة حدا يرفضون معه الدواء الذي به شفاؤهم! ما هذه الكتب التي نطويها تحت أيدينا. . إنها يمكن أن تتحول إلى برشامة بسيطة يدخل فيها الطالب الامتحان. .. ويخرج سالما معافى. .. هكذا تموت فورة الشباب في نفخة علم لا أجده سوى حثالة أو قمامة في سلة مهملات غريبة أو ربما شرقية. . ولم يثنه هذا الشاب عن محاولاته. . . فمضى مع ثلة الأصدقاء يحاول توعية الطلبة. . . وإقناعهم بانتخاب جمعيتهم الجديدة. . . فتفرق جمعهم. . . هنا وهناك شابات وشبابا. . . أسودا ولبوات. . .

وفي طرقه اعترضه أحد الأصدقاء:

ـ لماذا غبت عن المحاضرة يا "محمد"؟ . . .

وبسرعة أجاب وهو على وشك اللحاق بأحد الشباب. . .

ـ مشغول. . . مشغول. . . عن إذنك. . .

فاندهش الشاب وهو يحدث نفسه "إنه يضيع مستقبله بهذه التفاهات". . شاب فلسطيني يلبس سروال الجينز. . . وقميصا أزرق يلتصق على جسده بل يكاد يتمزق. . . وصدر تدلت فوقه قلادة ذهبية. . . مشية تائهة. .. فيها ضياع كأنها سراب يتلاشى بلا قرار. .

استوقفه "محمد". . . يدعوه إلى انتخاب جمعيتهم. .

ابتسم الشاب ابتسامه باردة ووضع كفيه حول خصره قائلا بتؤدة:

كلمات. . . منشورات. . . جمعيات. . . سئمنا الكلام. . سئمنا. . . سأنتخب دونما قناعة. . . لأنك تحتاج إلى صوتي. . .

تأمله "محمد". . . بحزن وهو يحدث نفسه: "بل فلسطين تحتاج إلى صوتك, وسلاحك وشبابك. . . ورجولتك. . . وكلماتك. . . "

قال الشاب الفلسطيني كأنه ينصح "محمد": "كنت فيما مضى عضوا في جمعية تحرير فلسطين, بقيت أعمل ثلاث سنوات. . . حتى سئمت. . فلا فائدة من كل هذا. . ."

قاطعه محمد بغيظ حاول أن يكتمه:

- بل هناك ألف فائدة. . . فعلينا أن نمارس الضغوط الإعلامية والعسكرية والسياسية. . . وأبسط عمل يمكن أن نتناوله الآن بجدية هو توعية الشعوب. . .

ضحك الشاب قائلا: إنك تريد أن تقومها ولا تقعدها. . .

وبدهشة يتساءل محمد: ماذا تعني؟. .

قال وهو في طريقه إلى الانصراف. . . اللبيب من الإشارة يفهم. . . عن إذنك الآن موعد محاضرتي. . .

وكان هذا السرب العظيم من الشباب والشابات يلتقي ثم يتفرق. . . حركة دؤوبة تذكرنا بسرب النحل حينما يقوم بمهامه ونشاطه داخل الخلية. . . في جد نظام. .

وغاب "محمد" فجأة. . . ليحمل له أحد الشباب بيانهم بمناسبة استشهاد أحد أبطال الإسلام وهو يقتل عشرة جنود إسرائيليين. . . وتتناقل الأيادي العاملة هذا البيان. . ويتم توزيعه. . في الكفيتريا في الصناديق المعلقة في ممرات الكلية. . . في صناديق الجمعيات. . .

كل شيء فيه يدعوك إلى الالتفات إليه. . الزعامة. .. التي لا يستطيع الهروب منها, زعامة. . ليس من النوع الذي يتوقد حبا لها. . . وإنما. . . ذكاؤه. . . حيويته. . . سرعة البديهة التي يتميز بها عن سواه. . . إنه يستطيع أن يستخدم كل حواسه في استثمار نشاطات مختلفة. . . يخيل إلى الناظر إليه. . . أنه الهدف الذي سيصوب الأعداء سهامهم إليه. . . إنه البطل الذي يحول من بطولته تاريخا لأجيال قادمة. . . فهو موضوع احترام أساتذته وزملائه. . . لأنه لا يتملق من أجل كسب ودهم ونيل علامات النجاح الزائفة. . . فهو لا يفعل ذلك. . . لأنه صاحب مبدأ. . . يرفض أن يسرق جهود غيره. . إنه يقبل الرسوب مقابل أعظم نجاح يغرس جذوره في تراب شعبه ليقطف ثماره في الغد. . .

في طريقه التقى أستاذ الاقتصاد .. . . بعد أن حياه. . .جعل الأستاذ يقول مشيرا إلى حزمة الأوراق في يد "محمد":

ـ أعطني ورقة من هذا البيان لأقرأه. . .

والتقط "محمد"واحدة وهو يقول مغتبطا:

ـ بكل سرور يا أستاذ. . .

ومضى. . يحدق في الورقة. . . . دون أن يلتفت إلى شيء. . .

تناهى إلى سمع "محمد". . . قهقهات بعض الطلبة. . . فقد كان عادل وشلته يقومون بمشهد تمثيلي . . . ساخر. . . ليشدوا الانتباه إليهم. . . وقد كان الهدف الذي يرمي إليه هو الطعن في مبدأ "محمد" فعندما اقترب منهم "محمد" حاول أن لا يثير الشغب بينهم وأوحى أنه منسجم مع أفكارهم. . . فهو مؤمن تماما أن عادلا مسكين. .. ولا بد من امتصاص رعونته. .. ليحولها إلى إيمان وحقيقة تخدم المضطهدين والمحرومين وتفضح الاستعمار. . . هل هذه هي الحرية. . . أن ينشطر الشباب في توجهات مختلفة هذا من حزب كارل ماركس. . . وذاك من حزب ريغن وآخر من حزب إسلامي. . . وذاك من حزب وطني. . . هذا شيوعي. . . وذاك رأسمالي. . . إنها تبعث على الضجر. . فهي معان يتخبط بها الشباب. . . إنهم لا يعرفون معنى الدين. . . الدين الحقيقة الثابتة. . . ثبات الكون والقوانين. . . الحقيقة التي لم تستطع كل قوى الحضارات أن تهزمها. . . فكم من دول ازدهرت وتألقت وعندما تنكرت للدين. . . انهارت وتساقطت كما تتساقط أوراق الخريف. . .الأندلس. . . سقطت. . . الدولة الأموية اندثرت. . . . الحضارة الرومانية.....

تبخرت مع رذاذ التاريخ. . . لماذا لا تتوحد هذه الجهود. . . في خدمة الدين في محور واحد. . . الله الخالق الواحد. . . الفرد. . . الصمد. . . لماذا تتبعثر جهودنا كما تتبعثر الرمال. . آه. .الرمال. . أو آه يا قلبي. . . مساكين. . . نحن مساكين. . سيلفظنا فم الحضارة المرتبكة. . . كما يلفظ الإنسان النواة. . .

تنهد بامتعاض. . لعل مبعثه "عادل" وهو يسخر أمامه دون أن ينتبه:

ـ ها. . . ما رأيك بالتمثيلية. . .

تنفس الصعداء:

ـ لا بأس طالما تهدف خدمة المبدأ. . . أطرق هنيهة. . . وهو يرمق "عادل" بحنان ويقول بإخلاص وصدق:

ـ أتمنى أن تثوب إلى رشدك يا عادل. . . أنت لا تحس بالأخطار كيف تحدق بنا من كل حدب وصوب. .

ونظر "محمد" إلى ساعته منصرفا:

ـ "عن إذنك, الآن موعد محاضرتي". .

وبقي عادل متسمرا في مكانه لا يبدي أي حراك. . . فهذه الزوبعة التي أثارها ردها "محمد" على أعقابها خاسئة مدحورة. . ولكنه ردها بلغة رجل حكيم لا لغة طفل أرعن يلعب بالنار ولا يدري ما عاقبة أمره. .

شعر عادل بغيظ كبير. . بألم. . يود لو يمزق صدره. .يود لو يضرب رأسه بالحائط. . . كل شيء فيه يريد أن ينفجر. . فقد كان لسان حال "محمد" يشير إليه متهما. . أنت تافه. . تافه. . ونحن الأبطال. . الزعماء. . . نحدث الناس على قدر عقولهم. . .

كان محمد يصغي إلى أستاذه يتحدث عن المشكلة الاقتصادية, وثمة مزاعم جعل المتحدث يرددها كثيرا, فما يقوله النظام الرأسمالي فكيه من تكرار هذه الاسطوانة؟" تذمر. . بيد أن الأستاذ لاحظ تذمره فسارع إلى سؤاله:

ـ بماذا تنصح يا محمد لنحل المشكلة الاقتصادية؟. .

أجاب وهو يكاد أن ينفجر تأثرا:

ـ "أن يعالج الإنسان ذاته التي تظلم وتنهب حقوق غيره, لا أعتقد أن الموارد قليلة كما زعم الرأسماليون, والثروة بيد الإقطاعيين أصحاب الأموال تترك طبقة واسعة من العمال بلا قوت أو ما يقيم الأود, الإنسان يا أستاذ. . ظلم الإنسان لنفسه, ولأخيه الإنسان, يدفعه إلى خلخلة التوازن الاقتصادي في العالم". .

قطب الأستاذ جبينه مشدوها:

ـ صحيح, ولكن من الناحية العلمية كيف نحل المشكلة, أو كيف حدثت لعل الذي قلته يساهم في حل المشكلة. . .

تململ وهو يرى نفسه محاصرا بعقلية جاهلة ترفض الإقرار بالواقع, وها هو طالب آخر:

ـ حل المشكلة يكون بإقناع الإنسان لنفسه أن لا يظلم ولا يسفك الدماء. .

قاطعه طالب:

ـ إذن نجعل من البشر ملائكة كما تقول.

أجابه:

ـ يحاول الإنسان الصلاح ولا أعتقد أن في ذلك أمرا عسيرا. . .

تدخل "محمد":

ـ المعالجة الجذرية هي من جانب الإنسان فهو صانع المشكلة بتصرفاته ومواقفه, وحينما يتجه إلى الصلاح في الفكر والإرادة فمعنى هذه أنه سيعرف حقوق الآخرين. . . وسيؤثرهم على نفسه فلا موجب لربا الأموال واكتناز الخيرات على حساب الآخرين. .

واستمر حديثهم ما بين مؤيد ومعارض حتى انتهى الدرس. . .

كان محسن ينتظر صاحبه "محمد" قرب قاعة المحاضرات وفور أن التقاه حياه ثم سأله:

ـ ما بك يا محمد أراك متجهما على غير عادتك؟.

قال بتذمر:

ـ أشياء كثيرة تدور في خلدي يا صديقي ولا أستطيع لها دفعا. .

صمت محسن ثم أردف:

ـ خطوبتك؟. .

أجاب: "هي ضمن ما أفكر به, ولا تنس أني خلال يومين سأتزوج. . ."

ضحك "محسن" وهو يربت على كتف صديقه: ألف مبروك. .

شرد محمد ببصره بعيدا ثم استطرد بعد تفكير:

ـ الفتاة جميلة, وناعمة تعيش برغد وتحلم بحب كبير. . وأنا لا أستطيع أن أمنحها ولو جزءا مما تريد. . . وحاولت أن أثنيها عن رأيها لكنها متشبثة بي. .

قال "محسن":

ـ إذن هي تحبك ولا تفكر إلا بالفوز بك. . . حاول أن تغيرها, تربيها. .

تنهد "محمد":

ـ وهذا ما أعقد عليه أملي وإن فشلت المحاولة فالله أعلم بما سيحدث لي. . .

حاول صديقه أن يبعث الاطمئنان في قلبه فقال له:

ـ "المهم أن تسكن إلى قلب دافئ يبثك الحب والسكون وهذا هو المراد فلا تيأس. . ." وأمسك بيده قائلا:

ـ دعنا نشارك الأصدقاء هذه المباراة. .

--

(4)

يوم الزفاف

اليوم موعد الرحيل عن الأهل والوطن والأحباب, فقد أعدت فاطمة حقائب سفرها كاملة. . . والمودعون يتوافدون على بيتها, بينما كان وقع الأمر ثقيلا على قلب أمها التي لا زالت تتشبث بصورتها الحانية, صعودها ونزولها على السلم. . . الضوضاء والضجيج الذي تحدثه عندما ترتب البيت. . كل شيء. . . لعلها أساءت لها في بعض المواقف لكن قلب "فاطمة" مفعم بالصفح والغفران. . والتحمت الأسرتان: أسرة "علي" وأسرة "فاطمة" يتجاذبون الحديث عن مستقبل العروسين. . وهاهو "محمد" يكثر من الوصايا لصاحبه ولأخته. . . الدقائق تمر سريعة. . القلب يخفق لأنه سيودع حبيبا وحبيبة. . تسأل الوالدة التي تخشى من سؤالها هذا:

- متى تقلع الطائرة؟. .

يجيبها "محمد" : "الثامنة مساء".

تبلع ريقها. . . قلبها ما زال يضطرب في صدرها. . . احمرت مدامعها. . لم تبق إلا دقائق وهذا الوجه الناعم المتلألئ بالنور سيفارقها. . . رباه سأمزق نفسي. . . ونهض "محمد" و"علي" ليضعا الحقائب في السيارة. . . وإذا بالجالسين فارقوا أماكنهم. . . متجهين ناحية الباب. . . اقتربت الأم من "فاطمة" باكية: "بنيتي. . اتصلي بي.

يعز علي فراقك" وانفجرت فاطمة تجهش بالبكاء. . .

صاح "محمد":

- هيا اركبا. . . لا وقت عندنا. .

وما هي إلا لحظات خاطفة. . . تتحدى إحساس أم تبحث عن احتواء الابنة في اللحظة الأخيرة.

.

ليلة شتوية, ممطرة, باردة. . . رائحة التراب "الموحشة" تحمل في معانيها إحساس بالاغتراب. .

* * *

توقفت السيارة قرب الباب الرئيسي في المطار الدولي. . . وكان في الاستقبال نخبة من الأصدقاء جاؤوا لتوديع شاعرهم العزيز. .

الكلمات أصبحت عاجزة عن التعبير. . هذه تحدق في ولدها الذي عاش في صدرها أمنية صغيرة حتى كبرت مع الأحلام. . الآن أصبح رجلا يشق طريقه في الحياة, وتلك لا زالت تتأمل "فاطمة" الطفلة الهادئة تلعب مع العرائس ولها ضفيرتان جميلتان تباهي بها قريباتها. . . أتراها الآن أصبحت امرأة ناضجة وبلغت مبلغ النساء. . .

وتناهى إلى مسامعهما صوت "علي" و"فاطمة" وقد أنهيا إجراءات المطار. .

ـ سنغادر الآن. .

وتسمرت العيون. . . ترفض الائتلاف مع هذا الموقف. . . ليتم الوداع وسط خفقان أفئدة حانية كسيرة, وقبلات ذائبة مع دموع الفراق. . .

ويومئ العروسان من بعيد وهما في طابور المغادرين. . . حتى اختفيا عن الأنظار والأهل جميعهم أجهشوا بالبكاء. . . ومسح محمد طرفه وهو يدعو لهما بالحفظ والتوفيق. . . انتبه إلى وجه منال تتأمله بوله شديد. . .ابتسم وهو شارد اللب ثم غض طرفه عنها. . جذب أمه الباكية:

ـ هيا تعالي. . هذه سنة الحياة. .

ابتلعت ريقها. . كأنها اقتنعت:

ـ "أجل هذه سنة الحياة. . يكبر الأبناء ليبدءوا نفس الطريق الذي بدأناه. . " مسحت طرفها وهي تهمس في أذنيه: "خطيبتك هناك, اذهب إليها"

تقدم ناحيتها. . . وحياها بوجه باسم. .

ـ "كيف حالك يا "منال"؟"

ارتجفت وكادت أن تذوب لوقع كلماته: "أنا بخير. . . بخير. . . المهم أنت كيف حالك"؟.

أحس بسكون لهذه اللهفة: "أنا بخير يا عزيزتي طالما أنت كذلك"

وقادها نحو السيارة. .

وبينما هي في طريقها إلى السيارة تأمل وجهها مشدوها

ـ "ما هذه الأصباغ التي تضعينها على وجهك. . لا أريدك بعد اليوم إلا منالا حقيقية غير مصطنعة. . . أحب أن تكون زينتك لي وليس للآخرين. . . "

رنت بوجهها إلى الأرض في خجل وهي تهمس: "أمرك يا عزيزي". .

وانطلقت السيارة بعيدا عنه. . وتسمر في مكانه وهو يحدق في الأرض يتخيل وجه صاحبه "علي" يودعه حزينا. . . التفت إلى أمه تناديه: "هيا يا محمد فلنعد إلى البيت". . فانطلق إلى سيارته وجلست أمه إلى جانبه. . أدار مقود السيارة ناحية الشارع الرئيسي المؤدي إلى الخط السريع. . . كانا كلاهما صامتين, هادئين. . لا يسمع لهما صوت سوى تنهدات أمه. . وأنفاسها التي تتردد مع هتاف ابنتها "فاطمة" لكنه أدار الحديث إلى ناحية تحبها:

ـ هل أعددت لوازم حفلة زواجنا؟ . .

ابتسمت وهي لا تكاد تصدق: أجل يا عزيزي وكل شيء على ما يرام "فمنال" قد أعدت ثوب الزفاف واشترت حاجاتها وكل مطالبها,ولا أظن أن هناك ما ينقصنا, وما بقي عليك سوى إعداد الوليمة ليوم الزفاف. . . وقد دعوت الأقارب والأصدقاء لهذه المناسبة. . .

ضحك وهو يستطرد:

ـ "إنك قد فعلت كل هذا؟ ولوحدك. . . إنك أم عظيمة حقا".

أردفت قائلة:

ـ خالتك قد ساعدتني وأنت تعرف يا ولدي أن هذه الأشياء من اختصاص النساء. .

انعطفت السيارة ناحية البيت لتثب خارجة من السيارة وتستدعيه:

ـ "ألا تنزل معي"؟. .

أجاب: لا . . عندي موعد مع أحد الأصدقاء سأعود بعد ساعتين فلا تقلقي. . .

البيت كان موحشا. ليس كعادته. . . الآن أصبح الليل هادئا خاليا من الضوضاء المحببة التي تثيرها "فاطمة" . . . دخلت الأم إلى المطبخ, كانت الأطباق مرتبة, لا شيء يدعوها إلى القيان بأي جهد, حتى خزانة المطبخ بدت نظيفة. تنهدت وعيناها نديتان بالدموع: "يا حبيبتي يا فاطمة" لقد رتبت المنزل قبل رحيلها بساعات حتى لا تتعبني. . "رفعت كفيها إلى السماء داعية: "إلهي وفقها في حياتها وسدد طريقها باليمن والبركة". . خرجت بعد أن وضعت إبريق الشاي على النار ثم اتجهت ناحية الغرفة التي أعدتها لزواج "محمد" وهي تتفقد البيت جزءا بعد آخر. فإن هناك أملا جديدا سيدخل الدار ويحدث فيها السعادة. . . وانتقلت بأحلامها إلى أحفادها يملئون عليها البيت بالمرح والفرح. . استقر بها المقام أمام التلفزيون أدارت المفتاح. . كان موعد نشرة الأخبار وثمة أشياء تثيرها: "حالة الطقس" "موعد الصلاة" أشياء كثيرة تهمها كسيدة كبيرة. . . بينما اشتط بها خيالها إلى حفلة زواج "محمد" وراحت ترسم في مخيلتها خطة الزواج وتنظيم الحفلة. . هذه الأحلام التي تراقصت في مخيلتها جعلتها تنسى حزنها لفراق فاطمة فهناك تغيرات كثيرة ستحدث. . لا يهم طالما "فاطمة" سعيدة. .

وقفت سيارة محمد أمام مبنى جريدة "المساء" ليثب مسرعا صوب الباب الرئيسي. . . وعندما رآه المسؤول في العلاقات العامة رحب به على غير عادته فجعل يقول في سره: "منافق". . .

استقل المصعد الكهربائي حتى استقر به عند مكتب المدير. . . فاستوقفته السكرتيرة التي تعرف تماما مهمتها التي أعدها الأستاذ "عبد الله" وبغنج تهمس: "انتظر يا. . .

وبحزم أجاب: "محمد". .

استدعته للجلوس: "اجلس الأستاذ عبد الله عنده اجتماع الآن". .

جلس متذمرا يطأطئ رأسه إلى الأرض ففي رأسه آلاف القضايا وهي غير النساء ومتاع الدنيا وملاذ الرجال. .

اقتربت منه حتى كادت أن تلتصق به, لكنه انتفض واقفا وهم ليخرج. . . فاستوقفته: "ما بك؟ لقد جئت لأعرض عليك قصة قصيرة كتبتها أرجوك أن تقرأها لأن الأستاذ عبد الله لا يقيمني جيدا. . . إنه يعاملني كدمية. . وأنا أتمنى أن يفهم ما أفكر به وما أريده. .".

سخر منها ضاحكا: "أظنك نسيت هيئتك الرخيصة التي. . ."

قاطعته وهي تفتعل الغضب: "بحق الله لا تنخدع بمظهري هذا فإن في أعماقي كنزا دفينا. . عناصر كلها خير وصلاح. . . ". .

وتمادى في قهقهاته الساخرة: "حسن, أحفظي لحمك في خزانة الثياب لأستطيع الحديث معك. . ."

كادت أن تنفجر لكنها تمالكت: "إنك لا تعرف الفقر الذي يقود الإنسان إلى طريق الخطيئة". .

أجابها بهدوء: "ولكنني أفهم أن التعفف يقود إلى الفضيلة". . .

افتعلت الحزن وتظاهرت بالبكاء لكنه نهض من مكانه وهو يحدق في ساعته: "حسن سآتي في وقت آخر. ."

أشارت له:

- لا, تفضل, سينفض اجتماعه بعد ربع ساعة, اجلس. .

دفعت إليه حزمة أوراق قائلة: "هيا اقرأ ما كتبت". .

أدار وجهه ناحيتها متهكما: "لست ناقدا لأقيمك وأعتقد أن المحرر الأدبي هو خير من يعنيك على ذلك. .

تطاير الشرر من عينيها وهي تحدث نفسها: "إنه كالحجر الأصم. . . لكني سأعرف كيف أحطمه. . . "

افتعلت الابتسام: "أرجوك أستاذ "محمد" أن تفهمني جيدا ولا تأخذك الظنون إلى مآخذ أخرى. ."

صمت هنيهة ثم استطرد: "أعرف أن من واجبك خدمة الجريدة فقط وليس ملاحقة الرجال". .

قطبت جبينها: "يبدو أنك تتطاول علي". .

وبحدة وغضب أجاب: "احترمي نفسك". .

تمالكت نفسها بصعوبة. . .

وبعد دقائق قليلة خرج من مكتب الأستاذ عبد الله رجل دميم الوجه. . قصير القامة. . على وجهه نظارة سميكة, أشقر الشعر وجهه أبيض مشرب بحمرة. .

عندئذ نظرت إليه السكرتيرة وهي تشير له بالدخول. . . وهم ليدخل وإذا به يجد الأستاذ "عبد الله" قد وقف مادا يده مصافحا وعلامات السرور الخبيثة مرتسمة على وجهه. .

ـ تفضل أيها الكاتب العظيم. . .

جلس "محمد" وهو يدفع إلى الرجل مقاله الأخير ويقول. .

ـ هذا المقال هو تحليل سياسي لحرب المخيمات في جنوب لبنان.

ـ قهقه دون مبرر: "عظيم. . . عظيم دعه لي لأقرأه حتى أنشره غدا"

ثم استطرد. .

ـ "قد أعددت لك مكتبا كبيرا مجاورا لمكتب سكرتير التحرير. . . وتستطيع استخدامه متى شئت". . .

أجاب "محمد": "لا يهم وجود المكتب فلي مشاغلي الكثيرة يا أستاذ ولا الالتصاق بحدود المكتب". .

برقت عينا الرجل وهو يحاول معرفة خبايا هذا الشاب المكافح: "يبدو أن هناك صحفا أخرى تستمليك إليها". .

وبحذاقة قال: "لا, وإنما ظروف دراستي وزواجي القريب, وبالمناسبة أنا أدعوك لحفلة زواجي بعد غد".

قهقه مرة أخرى: "ألف مبروك. . . ألف مبروك. . . ومن هذه السعيدة الحظ؟". .

تنهد مجيبا: "ابنة خالتي". .

لم يمكث "محمد" طويلا في لقائه, وحرصا على استغلال وقته. . . وقف ليودع رئيس التحرير, لكنه استوقفه: "لماذا وقفت ما زال الوقت مبكرا". .

أجاب:

- إنني متعب اليوم وأحتاج إلى النوم مبكرا. .

خرج بخطواته الواثقة. . . الحازمة. . . وفي طريقه إلى الباب. . حاولت السكرتيرة استمالته بحديث لكنه تجاهلها وانصرف خارجا دون أن يعيرها أدنى التفاتة.

* * *

كانت تبريكات الأصدقاء في الكلية تحف بمحمد من كل ناحية. . ذاك يهتف: "ألف مبروك" وهذا يهنئ: "مبروك يا عريس". . . لأول مرة يرقص قلبه ويغرد خافقيه إحساس غريب. . . حتى أن أستاذه في مادة السياسة الدولية. شرع يربت على كتفه بعد انتهاء المحاضرة مازحا: "هل ستدخل السجن المؤبد منذ الآن؟" وضحك محمد وهو يبادله المفاكهة:

- "هو شر لا بد منه". . .

كان "محسن" يلاطفه وهو يشده من ذراعه: "هيا بنا لنحلق لك ذقنك. . . ونجمل هندامك. . . و. . "

ويرد عليه "محمد" ضاحكا:

- "إن هندامي جميل دائما ولا يحتاج إلى تنسيق" . .

واجتمع الأصدقاء في الكفيتريا. . .يتحدثون عن نتائج الانتخابات الأخيرة. . قال أحدهم: "إن الكثرة العددية هي الغالبة في الانتخابات" . .

ليقاطعه آخر وهو يتمزق غيظا: "إنهم على خطأ, فالمبدأ كله يتعلق بالإعلام والدعاية المكثفة قبل الانتخابات, ونحن إذ خسرنا هذه المرة فلا بد أن نعترف بقصورنا".

وأكمل طرف الحديث شاب متحمس: "الطلاب ينقصهم الوعي وحتما إن ما نجنيه الآن من خسارة مرده عدم استيعابهم لمبادئنا". .

عندئذ تحدث "محمد" بنبرة توحي أنه زعيم لا تخذله الأزمات مهما كانت:

ـ ما تفسيركم للربح والخسارة. . . إن الأهداف السامية لا يمكن أن نصل إليها بهذه السرعة فهي تحتاج إلى فترة طويلة لتتكامل حتى تصل إلى الربح النهائي, وهذا الربح هو تطبيق المبدأ الذي نؤمن به. . ونحتاج هنا إلى ثلاثة شروط. سأل سائل في فضول ودهشة: "ما هي؟". .

أجاب "محمد": "أن تكون القاعدة الطلابية واعية متفهمة لحقيقة المبادئ المثالية من الأخرى الهدامة, ثانيا: أن نكون نحن على درجة عالية من الإخلاص والإيمان, ثالثا: أن تكون النخبة المرشحة للقيادة على مستوى رفيع من القوة والفكر والتفاني, وهذه العناصر لا تتكامل إلا بالتجربة الزمنية الطويلة. . .

هدأ الجميع وكأن على رؤوسهم الطير. . . وأنشدت أنظارهم إلى عادل يتبختر بزهو وخيلاء. . . بعد فوزه الساحق في الانتخابات, وهو يرمق "محمدا" وأصدقاءه بسخرية واستعلاء. . . ثم يستقبل تبريكات المهنئين بالفوز. . . جعل الأصدقاء يتهامسون: "انظروا إلى تفاهته". . .

ويسخر آخر: "إنه حرر فلسطين أليس كذلك" وضحكوا في صمت. . . لكنهم تسمروا في مكانهم عندما سحب محمد كرسيه واقفا ليتجه ناحية عادل يصافحه مهنئا: "ألف مبروك إن شاء الله الفوز في كل عام". . . وبفتور أجابه عادل:

ـ شكرا لك. . .

وبينما يحاول عادل الانصراف استوقفه "محمد". . .

ـ أدعوك إلى حفلة زواجي غدا يا "عادل" ويسعدني حضورك مع الأصدقاء.

افتعل الابتسامة وكأنه في مأزق بين تناقض البغض الذي يكنه "لمحمد" والفرح الظاهر حتى قال وهو يبلع ريقه:

ـ مبروك. .

انسحب سريعا. . "فعادل" لا يعرف كيف يواجه هذا الجيل الذي لا يهتز ولا يرتبك. . . وخابت آماله بسرعة. . . وعادت أحلامه خاسئة مدحورة, فهو يعلم في قرارة نفسه أن "محمدا" منتصر عليه دائما في الأعماق, في قدرته على السيطرة والتأثير. . . وكاد أن ينفجر غيظا. . . إذ أنه يشعلها حربا وتحديا ضد شخص لا ضد مبدئه. . . وهذا هو صراع الضعاف في إثبات ذاتهم الخائرة. أمام أبطال يقاتلون بصمت ويحاربون بهدوء دونما أن يثيروا الصيحات في كل ناحية. .

عاد "محمد" إلى مكانه وهو يحاول تذكيرهم بعناصر النجاح في الانتخابات. . . لكنهم مشدوهون لتصرفه, هل هو ضعف أم سخرية؟. . . فقال أحدهم:

ـ أنا لا أجد تفسيرا لتصرفك. . .

ابتسم: "إنما الذي فعلته كان يجب أن تفعلوه جميعكم. . .".

قال شاب في غيظ: "نصافح يدا قذرة". . .

أجاب "محمد": "تمهل يا عزيزي لا تفقد صوابك. . . إنك تمتص نقمة الغريم وتثبت شعارا من شعاراتك التي لا بد أن تتحول إلى واقع لا مجرد كلمات جوفاء". . .

صمتوا كعادتهم. .

قال "محسن": ليت الشاعر "علي" معنا إذن لأنشدنا أبياتا بهذه المناسبة: قال "محمد" على الفور: "أي مناسبة؟!. زواجي أم الانتخابات". . . ضحكوا. . . حتى قال "محسن": "يبدو أنك متحمس لهذا الزواج ولا يشغلك شاغل غيره". . .

وفي دهشة يتساءل "محمد": "ما الذي تقصده يا محسن؟". .

أجاب مازحا: "الانتخابات يا عزيزي. . . هل اختلط عليك الأمر؟!. . "

وقهقهوا حتى غرقوا في الضحك. .

تفرقوا عند موعد محاضراتهم وقبل أن ينصرفوا جميعا قال "محسن":

"اليوم عندنا مباراة الساعة الثالثة بعد الظهر لا تنسوا لقاءنا في النادي". .

وكان لقاء خاص بين "محسن" و"محمد". . .

قال "محمد": "سأعتذر عن هذه المحاضرة, أريد الحديث معك. . . " أجاب محسن وكأنه يدرك ما في نفس صاحبه: "عن أي شيء". .

استطرد "محمد" بعد تفكير: أشياء كثيرة يا صاحبي. . .

صمت ثم أومأ إلى "محسن": فلنتمش في حديقة الكلية ما رأيك. . .

قال صاحبه: "لا بأس". . .

وشرع يحدثه عن الجريدة: شكوكه التي يتوجس منها خيفة, ثم أحابيل السكرتيرة. . . حتى قال "محسن":

ـ السكرتيرة سوزان؟ أظنها تبحث عن زوج تستقر معه, ولكنها تفشل في اختيار الأسلوب, تعتقد أن كل رجل سينقاد إلى محاسنها ويشقى في هواها حتى يطلب يدها. . .

صمت "محمد" وهو لا يكاد يقنع بأفكار صاحبه, فاستطرد بعد تفكير: "لا يا محسن إن الذي أفكر فيه أعمق من هذه الحدود". . .

اندهش "محسن": كيف؟. .

أجاب على الفور: "دعني أتأكد لأبوح لك بما أفكر به". .

وبإلحاح أصر "محسن": "بل أفصح الآن حتى أخبر والدي". . .

عندئذ طرد "محمد" الهواجس عن فكر "محسن" موحيا له أنه مجرد وهم: "لا شيء لا تفزع يا عزيزي إنه وهم من أوهام القصص البوليسية التي كنا نقرأها أيام طفولتنا". . .

ضحك "محسن": أخالك متأثرا بها. . أتتذكر كيف كنا نخطط كما لو كنا مخبري بوليس. . . عندما عثرنا يوما على بقع دماء في الشارع. . . وقفونا أثرها كأننا نبحث عن قاتل حتى تبين أنه جرح في قدم جارنا.؟". .

ضحكا. ليواصل محمد الحديث: "ومع ذلك بقينا نبحث عن سبب الجرح. . .".

أردف محسن: "عفريت القصص البوليسية".

طفق "محمد" يستجمع ما تبقى في ذهنه من أفكار:

ـ "ما زلت قلقا من هذه الزيجة يا محسن". .

قال صاحبه: "لا معنى لقلقك. . ألا تحبها؟". .

بقي ساكتا لا يبدي أي إجابة. . .

ومضى يحدثه: "عالمك الذي تحياه شيء والمرأة في حياتك شيء آخر. . الفتاة تحبك كثيرا وستخلق لك أسباب السعادة. . . لا بد أن تفكر عندما تعود إلى بيتك وتجد بين يديك أنثى يتدفق في روحها الحب والحنان والجمال, تشيع في بيتك البهجة والسرور, تأخذ من بسمتها الدافئة زادا تتقوى به على مواجهة الحياة. . ."

كاد "محمد" أن يقتنع, لكنه أصر على موقفه:

ـ أنا معك فكل ما قلته هو صواب ولكن حتما ستشعر هذه المرأة بالضيق والضجر من حياتي". .

تنهد "محسن": "يا عزيزي وتحب ضيقك وضجرك". .

صمت دون أن ينبس ببنت شفة, فعاد محسن يواصل حديثه.

ـ "أتدري ما ينقصك يا محمد"؟. .

التفت إليه في دهشة: "ماذا؟".

قال: "من التعامل مع المرأة. . . العاطفة, المشاعر. . عليك أن تبادلها الشعور. . . إنها ليست قضية عملية. . . هي نصفك الآخر الذي سيلطف لك قسوة العيش. . . المرأة لكي تسلم زمام أمرها لك. . اغمرها بالحب والحنان. . . وما أظنك شحيحا يا عزيزي. .".

بدأ الحزن والقلق ينكشف عن قلب "محمد". . .فابتسم وهو يكاد أن يرقص فرحا:

ـ "أتمنى ذلك يا محسن. . . إن ما أخشاه هو أن تهجرني زوجتي عندما تسأم الحياة معي. . . فلست شحيح العاطفة كما تظن, أنك لا تعرفني جيدا. ."

تبسم صاحبه وهو يربت على كتفه:

ـ "بل أعرفك حق المعرفة. . . شمس دافئة تملأ النفوس بالحب الصادق. . ."

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة. .

قال "محمد": "سأذهب إلى محاضرتي لأقدم بحثي مع طالب عن هجرة العقول العربية إلى الغرب". .

أجابه "محسن" مازحا: "لا تختلط عليك الأمور. . ."

انصرف "محمد" وهو يردف: "بل أصبحت خليطا من شتى الأمور". . .

* * *

كانت أم "محمد" مشغولة في إعداد الزينة مع شقيقاتها, والخادمات, والعمال, وفي وسط الضجيج رن جرس الهاتف. انتفضت أم "محمد" فهي تترقب هاتفا من ابنتها وصدقت ظنونها. . . وإذا بها تنهال على الهاتف بعبارات الاشتياق تتناغم مع دموع الفرح:

ـ كيف حالك يا ابنتي هل أنت مرتاحة. . . سعيدة. . .

ـ تجيبها فاطمة: "الحمد لله يا أمي أنا بخير. . . كيف حالكم أنتم؟". . .

وتوصيها: "لا تقاطعيني يا ابنتي بحق الله. . لقد قلقت عليك يا حبيبتي. . ."

تتنهد "فاطمة": "لم أتصل بك إلا عندما استقر بنا الحال في خال الخليلي في القاهرة, حيث استأجرنا هناك شقة بسيطة, وسأشرح لك في رسالتي القادمة أحوالنا وظروف عيشنا. . فاطمئني يا أمي. .". .

وودعتها بعد أن بلغت سلامها وتبريكاتها لزواج "محمد". . .

وكان هذا الاطمئنان يكسبها فيضا من الطاقة لأن تنشط في إنجاز مهمات حفل الزفاف.

و "محمد" قد رافقه الأصدقاء لإتمام زينته وهندامه, كذلك فعلت النساء والصديقات في مرافقة منال لإلى صالون التجميل لإكمال زينتها. . .

رن جرس الباب, وإذا بالمدعوين يتوافدون على البيت زرافات, زرافات. . . ويتم توزيعهم إلى الأماكن المخصصة للرجال وللنساء. .

وقامت القريبات بإعداد وليمة العشاء مع الطاهيات والخدمات. . . وتعلو الزغاريد في أنحاء البيت. . .والتهليلات. . . وباقات الزهور المنسقة تملأ أرجاء الدار. . وتقوم الخادمات بتوزيع شراب الورد الأحمر على المهنئين والمدعوين. .

الأعناق تشرئب متطلعة إلى العروس القادمة التي ستتربع على عرش الزواج المقدس. . .
وبعد لحظات قصار. تقدمت نسوة وهن يرددن: "ألف الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله محمد". . .وبخطوات هادئة توحي بالحياء. . . والخجل. . . تتقدم الصفوف "العروس" الفاتنة وقد أضاء وجهها كأنه البدر في وسط الغيوم تضع على رأسها طرحة الزفاف يعلوها إكليل الورد الأبيض الساحر. . . وتلبس ثوبا أبيض لصيقا يبرز تناسق جسدها. . والفتيات الشابات والصغيرات يحطن بها. . .تمشي الهوينا حتى استقر بها المقام عند الكرسي المخصص لها في البهو الكبير الذي أعد للحفلة. . . وقد ساعدتها على الجلوس شقيقاتها وصديقاتها. . .
وتصاعد همس المدعوين: "يا لها من عروس فاتنة". . . وتعلو الزغاريد في أرجاء المنزل ثانية. . .ويصفق النساء وهن يرددن التراتيل والأناشيد في وصف جمالها وحسنها. . . كانت "منال" خجلة. .كلما طأطأت رأسها إلى الأرض, تهمس شقيقاتها الكبرى في أذنها: "ارفعي رأسك وابتسمي للحضور". . .تتنهد. . .والاضطراب يصطخب في كيانها. . . وحمرة الخجل قد اختلطت مع حمرة المساحيق. . .

إنها لا تميز أحدا. . . تفكر فقط في همس الناس حولها. . تحدق بهم مذعورة. . . خائفة. . . فتلك صديقاتها "سلوى" التي كانت تمازحها وتفكهها كل يوم, مالها الآن تشيح بوجهها عنها وتتجاهلها. . . إنها لم تقصد ذلك وإنما هي الحيرة والاضطراب وتأثيرهما. . .

ولعل "محمدا" لم يأخذ نصيبه الوافد من هذا الاضطراب الذي تحسه عروسه. . إذ كان هادئا. . . يفكر في مستقبله بشرود. . . كان يحاول مداراة قلقه بالضحك وإثارة الدعابة مع الأصدقاء, لكن الحقيقة بارزة على ملامحه الصارمة وعلى وجهه. . . كان يجالسه محسن, ويضفي على قلبه شيئا من الهدوء والسكينة. . . يستقبل المهنئين والمدعوين بابتسامة فاترة. . . لا يعرف سرها ومغزاها, وإنما هو أمر روتيني يفعله كل الشباب في هذه المناسبة. . .

ثم جاء "الشيخ" ليعقد قرانهما فهدأت الأصوات. . . وصمت الحضور وكأن على رؤوسهم الطير. . . فهو الآن يردد المراسيم الخاصة بعقد القران. . حتى عندما انتهى. . . تعالت زغاريد النساء, وجئن يقبلن العروس التي زوجت نفسها وقلبها وروحها وجسدها لهذا الرجل, ووهبت كل ما تملك له. .

تحول عجيب في إحساسها الآن. . . تنهدت فرحة. . . مستبشرة. . . لكنها ما زالت مضطربة. وفي غمرة الضجيج هذا سمع النساء أصوات الرجال: "ألف الصلاة والسلام عليك يا رسول الله محمد", وتناهى إلى مسامعهن صوت طفلة تقول: "لقد أتوا بالعريس". . .وإذا بهن كأنهن يتشحن بالسواد. . . ويهدأن, وفضولهن يدفعهن لمراقبة العريس الشاب. . . ويزيد ذلك الفضول كلما اقترب الصوت. . . وما أن يدخل العريس يحيطه نخبة من الأصدقاء والأقارب حتى تعلو الزغاريد ثانية, والهمس والعيون والرقاب تتساءل. . ويقترب الشاب من عروسه. . . يقبلها على جبينها ثم يجلس بجانبها. . . ويسمع الهمس المتصاعد "لائقان لبعضهما". . . إنه يبدو أكبر من سنه. . . وكل امرأة تحدث التي تجلس إلى جانبها. . . وتتم دعوة النساء إلى المائدة المخصصة لهن, والرجال يدعون إلى المائدة المخصصة لهم أيضا. . بينما يقدم للعروسين كوبان من العصير ويغرقان في حديثهما الخاص. . . وكأنه لأول مرة يراها عن كثب. . . يتطلع إلى عينيها بهدوء. وصمت. . . شعر بقلبه يخفق, ويهمس: "ما كنت أتوقع أنك بهذا الجمال". . .

وتبتسم في خجل دون أن تنبس بحرف. . .

كانت العيون تحدق بهما. . . والتبريكات تنهال عليهما. . . وقبلات المهنئين من الأقارب والقريبات. . .

ثم جاءت والدة "محمد ونثرت الزهور الملونة عليهما وهي تزغرد فرحة, تقبل ولدها بعمق وحب, فإن أمنية عمرها قد تحققت: "ألف مبروك يا ولدي إن شاء الله أرى أولادك". . . وتقبل العروسة في وجنتيها وجبينها قائلة: "ألف مبروك يا عروسة ولدي الحبيب. . . إن شاء الله قدمك فيه الخير والسعد على بيتنا". . .

واستمر الحفل البهيج حتى ساعات الليل المتأخرة. . . ليتفرق الجمع والحضور عائدين إلى منازلهم. . .

وجعل البعض يهتف: "العروسان قد تعبا. . . فليأخذا قسطا من الراحة". .

انفض الجمع لتبدأ الخالات والخادمات بترتيب المنزل الذي امتلأ أكواما من البقايا, فثمة زهور قد اقتطفها البعض وسقطت هنا وهناك أكواب من العصير الفارغة. . . صحون الطعام المتكدسة فوق بعضها البعض. . الوسائد المقلوبة. . . السجاد الملطخ ببقع العصير والحلوى. . .

انتقل العروسان إلى غرفتهما المخصصة لهما. . . ليأخذا حقهما في الراحة والاسترخاء بينما انشغلت الأخريات بتنظيف المنزل. . .

* * *

أطل الفجر السعيد على العروسين, وقد أنهكهما السهر الطويل. . وعند صياح الديك, استيقظت "منال" تثاءبت ثم تمطت في فراشها. كان محمد غارقا في نومه. . فنهضت إلى المرآة لتستوثق من جمالها فبدت رائعة الحسن, وصففت شعرها, المتهدل على كتفيها. . . ابتسمت لمرآتها وفي تؤودة اقتربت من زوجها. . .

ـ "محمد" استيقظ يا عزيزي. . .

وجعلت تلح عليه. . . حتى استيقظ. . . وهو في شبه إغفاءة:

ـ ماذا تريدين دعيني أنام؟. .

وفي دلال تهمس:

ـ لا أستطيع النوم الآن. . . دعنا نتحدث قليلا. . .

وانتبه إليها ثم قال في حنان:

ـ كيف حالك يا عزيزتي. . .

وتردف في استحياء مصطنع. . .

ـ إنني في شوق كبير إليك. . . أتمنى أن لا أبدد لحظة من حياتي بعيدة عنك. . .

ابتسم وهو يتأمل وجهها الوضاء:

ـ تبدين بدون المساحيق أجمل. .

ضحكت وهي تتمطى:

ـ إذن فلا مساحيق بعد اليوم. .

انتبها إلى صياح الديك ثانية. . . قال الرجل وهو يثب من فراشه:

ـ حان موعد صلاة الصبح. . .

لكنها سحبته من ذراعه. .

ـ "ما زال الوقت مبكرا يا عزيزي. . دعنا نتحدث فأمامك متسع من الوقت. .". .

لكنه دفعها بلطف:

ـ "فلنصل أولا ثم نتحدث كيفما نشاء. . . هيا يا حبيبتي. . .لا تتماهلي. ." وفي استجابة بطيئة نهضت وهي تحدث نفسها: "أعود ثانية لأزيل آثار المساحيق وأعيد تصفيف شعري. . . يا إلهي إنني عروسة لماذا لا ترفع عنا هذا التكليف الآن؟. .". .

ويناديها محمد: "أعطيني المنشفة وأعدي سجادة الصلاة". .

تتمتم في ضجر: "أين أجد السجادة؟".

وتحدق في خزانة الثياب. . . تجد أمامها منشفة بيضاء وسجادة الصلاة. . .

فتسرع إليه. .

ـ "تفضل يا عزيزي". . .

فيأخذ المنشفة. . . ويندفع إلى صلاته في استغراق عميق. . . بينما كانت "منال" قد انتهت من صلاتها تجلس عند حافة الفراش تنتظره في تململ. . . تقول في سرها: "لماذا يطيل في صلاته؟" وتحدق في تأمل. . . تتنهد. . ."إنه يقرأ القرآن". . . وعندما سئمت الانتظار رقدت في فراشها. . تتقلب. . تصطخب في مخيلتها أفكار شتى. . ."لماذا لا أعرض عليه السفر إلى إحدى الدول الأوربية؟ وهناك نأخذ قسطا وافرا من السعادة. . . من حقي أن أقضي شهر العسل في أي مكان تشتهيه نفسي. . . ثم أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى وهي تستنكر خطتها هذه "لا. . . إن راتبه بسيط لا يستطيع أن يحقق ما أصبو إليه. . . فطالما أحببته لا بد أن أرضى بقليل العيش معه. . . وعادت تحدث نفسها "أسبوع" واحد يكفيني. . . انتبهت إلى صوت زوجها:

ـ " ما بال حلوتي تفكر". .

ابتسمت في رضى وهي تسكن إلى قلبه هامسة: "اشتقت إليك كأنك غبت عني بعيدا".

وسرعان ما أفضت إلى نفسها: "كيف أزعج هذا القلب الرحيم بمطالب لا قيمة لها؟" واستقرت عند هذه الفكرة. .

----

(5)

هواجس في العقل

كانت امتحانات آخر العام على الأبواب. . . والشباب منهمكون في المذاكرة. . . وكان على "محمد" أن يبذل جهدا مضاعفا في كتابة المقالات للجريدة, والمذاكرة. . بينما تقضي زوجته وقتها في إدارة المنزل وحياكة الثياب وبينما زوجته تنتظره في شوق جارف, جاء إليها وهو يقول:

- لا تنتظريني الليلة على العشاء.

وفي حزن بالغ جعلت تتذمر: "كل يوم يا "محمد" تقول ذلك". . . .

واقترب منها يقبلها في رفق: "يا حبيبتي أنا هذه الأيام مشغول بقضايا شتى أرجو المعذرة. . ".

تتنهد في صمت. . ألم تتعب يا عزيزي. . ارحم نفسك. . . .

ويقبلها ثانية: "ارحمي نفسك أنت ولا تقلقي".

وينتبه إليها تقول مشيرة إلى المنضدة: "هذه رسالة لك استلمتها صباح اليوم أعتقد أنها من "فاطمة" و "علي". . . .

ويسرع إلى المنضدة يلتقط الرسالة. . يقرأ العنوان في فرح بالغ:

- أجل إنها من "علي". . يقول فيها:

الاثنين 7 يناير عام 1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز "محمد"

تحية طيبة. . وسلام من الله أبعثه لكم. . وبعد.

إن سألتم عنا فنحن بخير ولا ينقصنا سوى قربكم منا. ونعتذر على هذا التأخير نظرا لعدم استقرارنا في أول الأيام, إذ استأجرنا شقة متواضعة في خان الخليلي في العاصمة "القاهرة" وبقيت فترة طويلة أعد أوراق الانتساب إلى جامعة القاهرة, حيث أنهيت كل شيء, والتحقت بكلية الحقوق. لكن المنطقة هناك لم تكن صالحة للسكن فوجدنا من الأفضل البحث عن سكن آخر حتى استقر بنا المقام في إحدى العمارات الجديدة في حي العباسية وهناك التقينا أسرا كنت أعرفهم سابقا, نتبادل الزيارات معهم. . وسعدت "فاطمة" بعد أن كانت تشعر بضيق كبير في الأيام الأولى, لأنني كنت أتركها وحيدة في البيت لفترة طويلة ولا أعود إلا في المساء, لأني مضطر إلى العمل والدراسة في آن واحد, ولعلي وجدت وظيفة مناسبة تساعدني على تدبير عيشتي حيث أقوم بكتابة القصائد الشعرية لإحدى المجلات الأدبية مقابل مبلغ زهيد. هذا وأود أن أخبركم بحدث سعيد حيث تبين أن "فاطمة" حامل في الشهر الثاني. . ولا تقلقوا عليها فقد أصبحت لها عينا ساهرة أرعى صحتها تماما, وقد تجاوزت الفترة الحرجة والحمد لله. وهي بخير وتبلغ سلامها وتحياتها لكم.

أخي "محمد"

إخوتنا في"مصر" مبعث للإعجاب والفخر, فهم أكثر وعيا وعمقا مما نتصور, وقد أصبح لي إخوة من مختلف الكليات, فأعرف صديقا اسمه "فتحي عبد الرحيم" وهو طالب طب في السنة النهائية يقدم أبحاثا عميقة في الطب الإسلامي بحيث أذهل الأساتذة الغربيين, وشاب من كلية الهندسة اسمه "عبد الوهاب شاهين" العلم الشهير في الوعي السياسي, وهو السبب الأول في إثارة حركة الانتخابات في جامعة القاهرة. وقد لقيت في رفقتهم نفسي وهدفي. إنني أجدك في عيونهم وخطواتهم يا أخي. . . وكان الأخوة هنا يعتمدون علي في كتابة نصوص القوائم المرشحة للانتخابات.

أما عن قصائدي فلقد اتسمت هذه الأيام بشيء من الوحدة والحزن والاغتراب, وفيها بعض من الذاتية, ولعلي ألقى في قلب "فاطمة" إحساسا عميقا بالنقد والتقييم, فهي التي تقيم قصائدي, وتعطيني التصريح الأخير بالنشر. لا تتصور قدر سعادتي معها, لقد أنستني كل همومي, وساعدتني في هذا الانعطاف الجديد في حياتي. . . وكل يوم أدعو لك بالتوفيق لأنك خير من اخترت لي زوجة.

أخي العزيز, وأخيرا وليس آخرا. . . تقبل أشواقنا وتحياتنا ودعواتنا بالتوفيق و لك مني أحدث قصيدة كتبتها في القاهرة:

وعندما يمتلئ القلب الحزين ألما. .

يتفجر ينبوع الإيمان. .

ونفحات الصلاة الإلهية.

ويظل يراقب نجمات الليل الفضية

وهو يقبل وجه القمر النائي. .

ويصرخ. . . . .

رباه. . . رحماك

في محراب إيماني

وعندما. . . يفوح القلب إيمانا

كأزهار الياسمين

في حبة البلوط. . .

في ربوات السماء

كأزهار الصباح. .

التي تتفتح حبا. .

التي تفرش. . . أجنحتها.

لتستقبل حبات الندى الباردة

وهي تقبل وجه الشمس. .

وتنادي: لا تتركي جسمي المنهوك

فإن سياط الساعة. . لا ترحم.

فتبكي الأشجار. . .

وتنفض ورقها. . .

وتبكي السماء دما. .

وتجف مياه الجداول

ويرجع الهزار إلى عشه

مهدول الجناحين

وترسل الشمس خيوطها

ثانية. . .

لتحول منها حلية. .

كي يلبسها فارس الأرض الجميل.

عزيزي أرجو أن تعجبك هذه الأبيات. . وفي الختام دعواتنا لكم جميعا بالخير والتوفيق.

أخوك: "علي عبد الغفور"

أطبق "محمد" الخطاب متنهدا وفي وجهه علامات الغبطه والسرور:

ـ "الحمد لله". . .

التفتت إليه زوجته: "ماذا في الخطاب؟" أطرق يفكر ثم أجاب: كل شيء على ما يرام.

ثم انطلق إلى أمه يزف لها الأخبار السارة. . وإذا بها تطرب وتسأل: ألم يكتب لك رقم هاتفهم هناك؟

أومأ بالسلب, وأعاد الخطاب إلى مكانه ثم لبس ثيابه لينصرف وإذا بزوجته تقول بخجل:

ـ لقد مضى على زواجنا شهران ولم نخرج معا.

صمت دون أن يلتفت إليها. . وجعل يبحث بين الأدراج عن شيء ما.

سألته بفضول:

ـ "عم تبحث؟"

قال وهو ما زال يفتش بين الأوراق: "الملف الأحمر الذي أضع فيه مقالاتي". . .

نهضت من مكانها متأففة: "الضرة التي تسلبك مني كل ليلة"

وتقترب ناحية الخزانة القريبة من الفراش, تفتحها ثم تلتقط الملف, تدفعه إليه:

ـ "هاك زوجتك الثانية". . .

يضحك وهو يربت كتفها "شكرا لك. . ." ويطبع على جبينها قبلة سريعة ويمضي خارجا وهو يردف: "لا تنتظري سأتأخر هذه الليلة". . .

تسمرت في مكانها. . ضجرة. . . سعيدة. . كل شيء أحس به الآن. . . هذا الرجل غريب الأطوار, تارة يسلبني كل إحساس بالسعادة, وتارة أخرى يدفعها كلها إلى قلبي دفعا. . . وضعت الصوف الذي كان بيدها ثم مضت إلى خالتها. . . تلحظ عليها خالتها شرودا غريبا وبفضول تسأل:

ـ أراك متضايقة يا "منال"؟.

وتنتفض بضيق: "لا شيء إنني متعبة فقط".

وتبتسم خالتها, وكأنها فهمت شيئا: "لعلك حامل!"

تتنهد الفتاة: "لا أعتقد, ليس ثمة ما يدعو إلى ذلك".

تقطب الخالة جبينها: "هل هناك خلاف بينكما؟"

تدمع عينا الفتاة: "بالعكس نحن متفقان في كل شيء ونحب بعضنا حبا عميقا ولكن. . ."

تصمت, لكن الخالة تواصل:

ـ أظن أنه تشاجر معك. . .

تومئ الفتاة سلبا: "لا. لا. ليس كذلك "محمد" عطوف ورحيم ولكنني لفرط حبي له أريده بجانبي دائما, إنه لا يراني إلا في فترات الغذاء, وفي موعد العشاء هو خارج البيت, إنني لم أشبع منه تماما. . "

ضحكت الخالة: "معك حق. . ولكن احتمليه فهو الآن مشغول بامتحاناته كما تعرفين, وسؤول عن أسرة. . حاولي الصبر معه. . . فهو يحبك. ."

تواصل منال حديثها: "وأنا أحبه بل وأقدس حبه, أريده بجانبي أحضنه, أحدثه. . أشعر باحتوائه لي. . إنني أحس بفراغ عريض عندما يخرج من البيت ويقضي الساعات الطويلة في

أعماله. . ولا أعرف ماذا أفعل, بل حتى لو عرفت فلا أستطيع ملء هذا الفراغ الذي يتركه في بعده عني. . . إني أحبه حبا مفرطا لا يكاد يفتر أو يخبو أو ينطفئ. . "

تقاطعها خالتها: "لعلك عندما تحملين وتلدين ستنشغلين في تربية الأولاد. . الآن لأنك ما زلت عروسا تحتاجينه إلى جانبك, وأعتقد أن محمدا يفكر في عمله كمتعة تفوق متعة المكوث في البيت مع الزوجة".

وترتسم علامات الضيق على وجه "منال".

وتمضي الخالة قائلة: "اعذريني فهذا هو الواقع يا ابنتي, أنا أمه وأعرفه أكثر من أي شخص آخر. . لقد كنت أبكي شوقا إليه وهو يغيب الساعات عني. . . لا أعرف متى يخرج, ومتى يعود. . . وكانت فاطمة تعرف كيف تخفف عني وطأة الألم هذه. . . حتى اعتدت عليه. . . فهو شاب طموح لا أدري ماذا يفعل أو إلام يهدف, ولكن كل الذي أعرفه أنه مشغول دائما, وأنصحك أن لا تتناولي حبوب منع الحمل. . . فالأفضل أن تحملي لعله سيلتصق بالبيت عندما يصبح أبا".

أطرقت "منال" تفكر, وكأن هذه الفكرة راقت لها ثم قالت:

- أنا لم أتناول أيا من هذه الموانع يا خالة, فهو يريدني أن أحمل. . لعل الطفل سيجذبه إلى البيت أكثر. . . ويشعره بمسؤولية أكبر ناحيتنا. .

تؤكد الخالة كلام منال: "بالطبع فهذا هو الحل".

التقى "محمد" الأستاذ عبد الله, فطفق الأستاذ يحدثه عن رغبته في إعداده لمهمة. . . قال "محمد" بفضول:

- وما هي هذه المهمة؟

أجاب وهو ينفث دخان سيجارته: "أريدك أن تكون ممثل جريدتنا في المؤتمر الصحفي الذي سيعتقد في روسيا أوائل الشهر القادم".

صمت "محمد" لعله يسترجع جدول أعماله ويدرس في مخيلته ظروفه, لكن الأستاذ "عبد الله" قطع تفكيره:

ـ لا خيار لك في الرفض يا "محمد" أظنك أفضل المحررين في الجريدة, وقد أعددت لك تذكرة السفر, والمبالغ التي تحتاجها, وتم تجهيز كل ما تحتاجه, وستكون السكرتيرة "سوزان" في رفقتك .

قال بذهول: ولماذا؟ ما حاجتي بها؟

ضحك الأستاذ عبد الله في خبث وهو يواصل حديثه بدغدغة مشاعره:

ـ ما بك؟ هذه فرصة يتمناها كل المحررين. . ويغمز بعينه:

"اغتنمها أيها البطل".

ينتفض "محمد": عفوا. . لست مؤهلا لهذه المهمة. . . فليتكفل غيري بهذا الأمر. . .

وبغضب مفتعل يقول الأستاذ عبد الله: "محمد". . . هذا أمر ولا بد أن تنفذه.

ويجيبه في غيظ: أنفذه دون حاجتي إلى سوزان هذه. .

يواصل الأستاذ عبد الله: "سوزان" سكرتيرة ترافق كل المبعوثين إلى مهمات صحفية وستؤدي واجبها كسكرتيرة. . .

أجاب في تململ: يا أستاذ "عبد الله" أنا على استعداد لأن يرافقني أي شخص إلا هذه. . .
ويقول الأستاذ بفضول مفتعل يتعمد تطمينه: "هل حدث شيء بينكما. . . قل لي لأعاقبها. . فهي ستلتزم بحدود العمل, وإن قامت بأي تصرف مشين فسأقيلها من الوظيفة. . ."

أحس "محمد" أنه في دوامة لا يستطيع الإفلات منها. . . أطرق يفكر قليلا ثم قال وهو يتململ:

ـ حسن دعني أفكر في هذا الموضوع وأرتب أعمالي لعل الوقت غير مناسب.

لكن الأستاذ دفع إليه تذكرة السفر وهو يقول:

ـ لا مجال للتراجع والتردد. .

عندئذ ضغط الجرس لتندفع من الباب السكرتيرة "سوزان" وهي مطرقة بوجه بائس حزين يفتعل الأحاسيس الكاذبة. . . وفي حزم تدربت عليه جيدا تقول:

ـ "أفندم"

قال بلهجة غاضبة حازمة: "سترافقين الأستاذ محمدا إلى مؤتمر روسيا".

وتبدي إعراضا مفتعلا: آسفة يا أستاذ. . ظروفي لا تسمح لي.

ويأمرها صارخا: "أنت هنا في شغل, وهذا أمر لا بد أن يطاع. . ستسافرين معه وإلا اضطررت إلى فصلك."

وتصمت. . ترسم علائم الضيق الوهمية ثم تخرج غاضيه. . .

يضحك "محمد" ساخرا: إذن فلنبحث عن غيرها طالما هي رفضت.

يهم "محمد" بالانصراف,وهو مازال مستاء من هذه الرحلة التي لا يعرف مغزاها, لكنه حتما عندما تستقر أحاسيسه سوف يدرك كل شيء, خرج وهو لا يلتفت إلى السكرتيرة كعادته, وفي هذا تعبير عن رفض وجودها وحقيقتها, وما أن غاب حتى انطلقت السكرتيرة إلى الأستاذ "عبد الله" ضاحكة تشاركه قهقهاته, ثم يضربان كفيهما ببعضها وهو يقول بلؤم وأوداجه منتفخة في جثته الضخمة

-" شاطرة ياعفريتة".

وتمازحه في دلال "أنا تلميذتك يا أستاذ".

وفي خبث يتطاير مع شرر عينيها تتمتم: "الآن أعرف كيف أوقعك في الشباك يا ملتزم! وتقهقه عاليا, ثم تشعل لفافتين ويغرقان في عالمهما الماجن في تخطيط المؤتمرات الدنيئة لهؤلاء الكادحين.

عاد " محمد" وفي ذاكرته تصطخب الأفكار. . . ماذا يفعل؟! ولماذا وقع عليه الخيار؟!!! استقبل زوجته بوجه متجهم أضناه التفكير طوال الطريق. . . كانت جالسة في أبهى زينة. . . تنتظر ابتسامته ترقص على شفتيه مع نعمات الإطراء. . لكنه بدا ساهما يفكر. . اقتربت منه حتى أحاطته بذراعيها.

-مابك يا "محمد".

حاول الإفلات منا. . . لكنها تمسكت به. . .

جلس حزينا. . . يضرب أخماسا بأسداس. . . لكنها لم تتمالك أعصابها صاحت في غيظ:

-مابك ألا تسمعني؟!

كاد أن يخرج , ولكنه ضغط على أعصابه. . . همهم

-"اتركيني لوحدي".

رمت بجسدها على الفراش. . . باكية:"إنك حتى ترفض مشاركتي أفكارك". . .

خفق قلبه في صدره. . ماذنب هذه المسكينة أعذبها بعذابي. . . حاول أن يبدي نوعا من الاهتمام بها. . نهض من مكانه فخطا خطوات هادئة حتى جلس إلى جانبها وأمسك كفها بحنان يلثمها في دعة وسكون:

"اغفري لي يا حبيبتي. . . لم أقصد الإساءة إليك. . . لا أحب أن أثقل عليك بما يكدر صفوك"

ابتلعت ريقها ثم همست:

-ساعدني لأفهمك يا محمد. . . أشعر أنك بحر عميق من الأفكار. . . غامض. . . حالك. . . كيف أستطيع أن أسبر أغوارك. . . لماذا تعتبرني تافهة . . . سطحية لا أستطيع أن أتكيف مع شخصيتك وظروفك؟".

تنهدت وواصلت البكاء. . .

اقترب منها . . ليمسح بأنامله خديها. . ويجفف دمعها. . . وهو يهتف باسمها:

-"منال! منال! منال عزيزتي".

رفعت رأسها معاتبة, وهي ما زالت تذرف دمعها:

-دعني أكون معك وحدة متكاملة يا زوجي الحبيب. . أريد أن أفهم هذه الحقيقة التي تسري في دمك.

فجعل يهدئ من روعها حتى دمعت عيناه وامتزجت دموعهما وراح يهمس:

ستفهمين. . . ستفهمين. . . ستفهمين مع الأيام.

*** * ***

التقى "محمد" صاحبه الذي شاركه البحث حول هجرة العقول العربية إلى الغرب وقدم له بعضا من التحقيقات الصحفية التي تفيده في هذا الشأن . . . فقال الشاب في تحفظ:

-الأمر لا يستدعي كل هذا, فالأستاذ لا يهتم ببحثنا اهتماما كافيا.

قاطعه "محمد": لكنه أمر يهمك لتفهمه وتقتنع به. .

أجابه : ولكن الأستاذ قد أعلن النتائج مسبقا

تركه "محمد" ثم مضى إلى حال سبيله. . . ودخل المكتبة التي يجتمع فيها الطلاب للمذاكرة. . .

استجمع ذهنه ليركز في سطور الكتاب بيد أن شبح الأستاذ عبد الله والسكرتيرة يلاحقه. . . فلم تبق منه, إلا عينان معلقتان على صفحة الكتاب أما عقله فقد غاب في واد آخر. . .

"كيف أستطيع أن أفلت من هذه المهمة؟!! ولكنه ربما يقيلني من الوظيفة. . . هذه المرأة اللعوب تحاول استمالتي بكل وسائلها وأحابيلها التي أحتقرها. . . ماذا تريد مني. . . إنهم يلعبون بالنار".

انتفض وهو يطرد عن رأسه هذه الأفكار, وتراءت له صورة "منال" ليلة أمس. باكية تذرف دمع الحرمان منه. .

تنهد وهو ما زال على هذا الحال, فجعل ينقر بسبابته على الكتاب, فتناهى إلى مسامعه صوت شاب يقول: "لا نريد إزعاجا رجاء دعنا نذاكر". . .

فهتف وهو يرفع يديه عن الكتاب: "آسف جدا".

وعاد ثانية إلى القراءة. ولعله استطاع أن يفلت من ضغوط الأفكار المتضاربة في ذهنه, وجعل يضع الخطوط العريضة لأفكار الكتاب على هامش الصفحات. . . وما أن رفع رأسه حتى لقي محسنا أمامه يقول "أرأيت نتيجة امتحان التنمية الاقتصادية"؟ ودون أن يبدي "محمد" أي انفعال سأل: "ما هي؟"!

أجاب صاحبه والفرحة تتراقص على شفتيه: "أنت أحرزت الامتياز وأنا جيد".

قال وهو ما زال على هيئته: "الحمد لله" ثم شده صاحبه من ذراعه قائلا:

-الأصدقاء يحضرون المباراة في فناء الكلية دعنا نشاركهم.

أعرض عنه :

- لا. دعني أذاكر فلي مشاغلي الكثيرة.

ومضى يلح عليه: "ساعة فقط لا أكثر فكلنا نذاكر مثلك".

أطبق الكتاب متنهدا: "أمرك سيدي".

وخرجا مسرعين إلى الفناء, وفي طريقهما جعلا يتحدثان عن شتى القضايا والأفكار, حتى توقف "محمد" عند موضوع المؤتمر: أنا لا أستطيع مرافقة السكرتيرة هذه, فيجيبه "محسن" مازحا.

- إنها شريكة كل صحافي في مهماته فلا تكترث يا عزيزي.

قاطعه "محمد" بعنف: "ماذا يعني أنها شريكة كل صحافي ما هذه الفوضى يا أخي.؟".

ومضى صاحبه: إنك دائما متخوف وحذر إلى حد المبالغة يا عزيزي, لا أظن أن لمخاوفك هذه معنى. . . بالأمس كنت تبتئس من هذه الزيجة وها أنت استطعت أن تجتاز المحنة وكل شيء غدا طبيعيا. . . فلماذا لا تجازف. . .

صمت وهو يحدق في صاحبه طويلا. . ثم أردف: "إن تصرفاتك هذه تخيفني."
يقهقه "محسن": وكيف؟
يستطرد: "تورطني في سطحيتك".
ويواصل محسن قهقهاته: "لأنني مغامر".
يربت على كتفه: "بل قل إنه طيش ونزق شباب".
انضما إلى مجموعة الأصدقاء لمشاركتهم المباراة.

* * *

رن جرس الهاتف
رفعت "منال" السماعة: "ألو. ."
لا أحد يجيب وعادت تردد ثانية: "ألو. . ألو. ."تذمرت:"اللعنة".
تنادي خالتها: "من المتكلم" . . . وبتأفف: "أناس عابثون. . "
وأعادت السماعة إلى مكانها.

ليرن الجرس ثانية, وتعيد الكرة فلا أحد يجيب. . . تصرخ:" ما هذا التصرف ؟!. .
تهتف خالتها بغضب: "ارفعي السماعة"
تجيبها: لعل "محمدا" يتصل. .
تعود إلى المطبخ لتواصل مهمتها وإذا بجرس الهاتف يرن من جديد. .

وبعنف تصرخ: " نعم. . . " فإذا بالمتحدث صوت امرأة شابة تهمس في تبذل: "دعيني أتحدث إلى "محمد". . .

كادت أن تصعق: "ومن أنت بحق الله"

تجيب المرأة: "صاحبته في الكلية"

تعنفها: "محمد لا يعرف المبتذلات أمثالك"

ثم تضع السماعة وهي تلهث في غيظ شديد . . ووجهها. . . تعلوه حمرة قانية: "إذن هذا هو سبب انشغاله عني. "

وتضرب كفا بأخرى.

صدرها يكاد أن يتمزق لفرط الغيظ. . . وعندما رأتها خالتها على هذا الحال اندهشت: "مابك يا منال" وتصرخ غاضبة وهي تسرع إلى غرفة نومها: خائن! خائن. . . وتصفق الباب بكل قوة. . . تنهض الخالة وهي ما زالت في حالة ذهول: "ما بك أفزعتني. . . هل حدث مكروه "لمحمد"؟." تصرخ بغيظ وهي تضرب الوسادة بعنف: "ولدك خائن, خائن. . . يعرف امرأة غيري. . .لا أستطيع أن أعيش معه بعد اليوم."

تقترب منها خالتها تعانقها: "لا . . .لا تظلميه. . . لعلها فتاة عابثة."

وتفلت من ذراعيها, تبحث عن حقيبتها وتضع ثيابها, تمسكها الخالة من كتفها:

- لا تتهوري يا ابنتي. . . دعينا نتحقق من الأمر, وفي ثورة حادة تجيب:

- عرفت الآن سبب سهره الطويل خارج البيت. . . لقد احتملته بما فيه الكفاية. . . سأعود إلى بيت أبي. . . وتسحبها خالتها وهي تمسح دموعها:

- "محمد" لا يعرف غيرك, صدقيني يا"منال" . . . ثم ترمي "منال" جسدها على الفراش باكية. .

يطرق الباب فتسرع الأم لتفتحه وإذا بالقادم "محمد". . . سمع إجهاشه "منال" وفي فزع يسأل: ما بها؟

وتعدو أمه خلفه: "لقد حدث إشكال بسيط". . .

يدنو منها والحيرة تتملكه: ماذا حدث يا "منال"؟ تحدثه الوالدة عن المكالمة. . . يصعق لفرط الدهشة.

تخرج الأم من الغرفة وتصفق الباب خلفها.

فيختلي بزوجته المنفعلة:

- لا تفقدي صوابك يا منال, لست أنا من هؤلاء الرجال الذين يفعلون هذه الأفاعيل.

وتصرخ ثانية وهي تضرب بكفيها على حافة الفراش: "كذاب. . .كذاب. . . كذاب. . . " ويضمها بحنان:

- ما الذي يدعوني إلى الكذب؟

تعنفه: "ومن هذه المرأة التي اتصلت وتزعم أنها صاحبتك. . ."

ويمسح دموعها بأنامله: "لعلها أفعى تريد أن تبث سمومها في عشنا السعيد". . وتصرخ: ولماذا أنت؟

وبهدوء يجيب: "لو لم أكن أنا لكان غيري, ومن يدري؟ لعلها تفعل معنا كما تفعل مع آلاف الأسر. . ."

ويصب لها قدحا من الماء ثم يسقيها وهو يطبع على جبينها قبلة هادئة:

"لا يفقدنك الشيطان صوابك يا حبيبتي, ففي رأسي من القضايا ما تجعلني في غنى عن هذه التفاهات. . . لا بد أن تثقي بحبي, وصدقي, وإخلاصي. . . ما كذبت عليك يوما, وما افتعلت عواطفي نحوك. . . "

تتنهد صامتة. . .وإذا بشعاع من الرضى يلمع في عينيها البراقتين, تطرق برأسها إلى الأرض. .

تهمس في وجل: "سامحني على أية حال"

يشدها من ذراعها يستدعيها: "هيا أعدي لنا الغداء"

وتثب خارجة بعد أن هدأت ثورتها. . . بينما يخيم السكون الحزين على قلبه. . لا بد أنها هذه الشريرة التي تلاحقني ولا تدري أنها كالتراب تحت أقدامي. . . غرق في التفكير: "هذه بداية لسلسلة طويلة من الشكوك والأوهام زرعتها يد آثمة في قلب زوجتي. . . فهي إن هدأت اليوم

ربما. . . تمزق رباطنا شر تمزيق. . . ماذا أفعل؟. كيف أستطيع أن أردها على أعقابها خاسئة مدحورة".

تناهى إلى سمعه صوتها الناعم: "محمد. . . هيا لنتناول الغداء". . .

الأمر يحتاج إلى رباطة جأش. . . وفي ذهن غائب لبس بيجامته. . . ثم حاول أن يفتعل ابتسامة عريضة توهم زوجته أنه لا يبالي بما حدث.

* * *

وعند المساء التقى السكرتيرة "سوزان"- وقال لها دون أن يبدي أي انفعال:

- "ألاعيبك ذهبت أدراج الرياح".

وبامتعاض قالت:

- ماذا؟ إنك تستفزني يا رجل.

ضحك ساخرا: "ابحثي لك عن صيد مناسب".

وقفت غاضبة وبفزع: "اخرج من هنا وإلا اضطررت. . . "

قاطعها: "أحذرك, إن كررت المحاولة فستندمين على ما تفعلين".

ثم مضى ناحية مكتبة دون أن يلتقي الأستاذ "عبد الله". .

بعد أن كتب مقاله السياسي, هم ليكتب خطابا لصديقه "علي" يبثه فيه همومه وآلامه, ثم جعل يفكر في موضوع الرحلة. . أطرق هنيهة. . يتنفس الصعداء. . يضع رأسه بين كفيه: "عندما أرفض هذه الرحلة سوف أقال من منصبي, ولا أعرف أين أذهب, فكل الصحف تنهج ذات النهج. . "

"ينبغي أن أقع في هذا الأمر المحير, فلماذا الهروب من واقع يلاحقنا ويحصي علينا أنفاسنا. . . لماذا أفعل كل هذا؟ أنا أعرف أن في أعماقي هاجسا كبيرا بأنني قادر على مغالبة الموقف. . .فلأخطط لهذه المهمة وأسعى دون أن أترك أثرا أو ثغرة تدلهم على نقاط ضعفي. . " اهتدى أخيرا إلى هذا المخرج بعد هذا الذوي

العميق في رأسه. . . نظر إلى ساعة يده كانت تشير إلى العشرة والنصف: "يا إلهي قد تأخرت. . ."

لم يكن يفهم لم كل هذا الهدوء المخيم هنا. . ترك مكتبه ليولي خارجا. . . وكانت أمامه "سوزان" يتأفف: "أهذه أنت ثانية". .. تشيح بوجهها عنه, وتمضغ اللبان في غنج: "ليتك تفهم أني لا أريد لك إلا الخير". وبينما يحاول الخروج تشده من ذراعه هامسة: "محمد. . . أنا أحبك. . . اسمعني جيدا".

يحاول الإفلات منها لكنها ما زالت متشبثة بثيابه: "أرجوك حاول أن تسمعني". . . أفلت منها وهو يمسك عروة الباب ليخرج. .

يصرخ: "الباب مقفول!!." يلتفت يمينا ويسارا, يصرخ ينادي لا أحد يسمعه. . . لكن بواب العمارة يسمع الصوت, فيطرق الباب من الخارج:

- "من هنا؟ من هنا؟. . . . "

تتلعثم السكرتيرة لتخرج المفتاح من درج المكتب. . .تبلع ريقها. . . تستوثق من هندامها. . . ثم تفتح الباب وهي تقول في ارتباك. . . "المفتاح كان ضائعا. . ."

بيد أن "محمدا" يولي هاربا في غضب عنيف دونما حتى أن يلتفت إليها. . .

نظر البواب إلى المرأة: "ما الذي حدث؟"!

أطرقت تفكر. . فراق لها أن تبكي: "لقد حاول الاعتداء علي. . كان يخطط لذلك عندما خلا المكان من الموظفين"

فنظر البواب إليها بإزراء: "لا أظن أن "محمد" يفعل ذلك"

صرخت غاضبة: "ويحك هل أنا أكذب"

يستطرد بيقين: "محمد" رجل طيب أعتقد أنك مخطئة. . .

خرج وتركها منتفخة الأوداج تصرخ في غيظ: "ويحك أيها الخادم الأبله سأنتقم منك. . . "

كان اليوم عسيرا على قلب "محمد" فقد عاد وهو يتذكر أن عليه الحذر من إثارة خلاف مع زوجته. . .كانت نائمة. . . الهدوء يخيم على أنحاء الدار. . . إنها فرصة لأذاكر لامتحاني الأخير غدا. .

وتحت ضوء خافت وفي سكينة حاول أن لا يثير ما يوقظ زوجته.

تنهد. . . مساومة رخيصة تعرض أمامي. . . لكني سأعرف كيف أنتصر, وأحطم هذه الأغلال التي تطوق بها حول عنقي. . .

يضغط على القلم بغيظ ودون أن يعي ينكسر القلم بين أصابعه. . . يرمق الصفحات بامتعاض. . .انتبهت منال إلى ذلك الضوء الخافت, فاستيقظت وهي تتثاءب: "متى أتيت؟. ."

نظر إليها في حنان بالغ: "قبل نصف ساعة" وتواصل: "لقد انتظرتك على العشاء ولما تأخرت أحسست بدوار في رأسي فغفوت

صمت. . . وهو يتذكر المقلب الذي صادفه اليوم. . . أزاحت عنها الغطاء ثم اقتربت منه تطوقه: "ألا تسألني عن سبب الدوار؟ ودون أن يعير لسؤالها أهمية يومئ "لا"

تهمس وفي عينيها شبه إغفاءة: "إنني حامل". . .

انتبه إلى هذه المفاجأة: "لا أصدق"

تضغط على كتفه: "وفي الشهر الأول, كنت قد أعددتها مفاجأة لك. . " فتهلل وجهه بالفرح وكأن الضيق الذي استحوذ على قلبه قد انكشف. . أطبق الكتاب وهو يحدق بوجهها طويلا: "أراك شاحبة الوجه. . " وفي صوت وسنان تتمتم: "بل أحس بغثيان وتعب شديد. ." نهض من مكانه وهو يسحبها من ذراعها: "تعالي إذن لترتاحي, لا تجهدي نفسك يا حبيبتي. . " تهمس وما زالت هالة النعاس تسبح على وجهها: "لقد سئمت النوم دعني أتحدث معك, وأظن من حقي الآن الدلال" يبتسم ابتسامة ذابلة: "أنت مدللة دائما يا منال ولا أحتاج أن تذكريني. . ".

----

(6)

مؤتمر في موسكو

بعد يومين. . سافر محمد.

كان في مقعده في الطائرة يتطلع من النافذة إلى الغيوم المتدافعة, والطائرة تمرق فوقها مروق السهم , وقد تراكمت كتلا كأنها قمم الجبال وقد غطتها الثلوج الكثيفة . تساءل :

كيف وصلت الطائرة إلى هذا الارتفاع ؟! إنها تطير فوق السحاب على ارتفاع عشرة آلاف قدم !! يا لها من ذروة سامقة بلغها الإنسان .. بل يا للقدرة البالغة التي علمت الإنسان ما لم يعلم !

ذكره مشهد السحب بالغيوم التي بدأت تعكر صفاء حياته في البيت تذكر ليلة السفر العاصفة بينه وبين منال ، وكيف أصرت على مرافقته في سفره دون أن تتفهم أنه في رحلة عمل . مسكينة منال .. لقد رضخت أخيرا ، ولو على مضض , بعد أن حذرها من خطورة السفر على حياة الجنين .لا بأس ..سيحاول بعد عودته إزالة هذه السحب من حياتهما .

أما في البيت .. فكانت منال تجلس إلى خالتها تشربان الشاي , وقد سرحت كل منهما مع أفكارها .

لم تمض عليهما في جلستهما لحظات حتى سمعتا طرقات على الباب , اندفعت الأم لتفتح الباب وإذا بساعي البريد يدفع إليها خطابا .. تهلل وجه الأم : لمن هذا الخطاب يا منال .تطلع إليه :

- إنه من فاطمة, وبفرحة تتهادى على وجهها "هيا اقرئي لي الخطاب. . . بسرعة" وتشرع منال في قراءته

10 مارس 1985

بسم الله الرحمن الرحيم

أمي الحبيبة. .

سلام من العلي القدير أزفه لك مع خالص تحياتي وأشواقي. . . أما بعد. . .سؤالي الأول عن صحتك وأحوالك فأنني أفكر دائما بك. . . قلقة عليك أتمنى أن تكوني بخير. .

وأما عن أخباري فإني في أحسن حال وأهدأ بال لا ينقصني سوى دعواتك لي يا أمي الحنونة.

صحتي على خير ما يرام, لكني فيما مضى – وكنت في الشهور الأولى من حملي – تعتريني أحيانا كثيرة حالات من الغثيان والصداع, وقد عرضت حالتي على الطبيب وتمت رعايتي بأحسن رعاية. والحمد لله أحس بسعادة بالغة مع زوجي "علي" فهو جنون علي رحيم عطوف, أشعر معه بالارتياح الكامل. . . وهذه الأيام تدعونا بعض العائلات الصديقة وندعوهم أحيانا على العشاء. . . وفي فترات العطل الأسبوعية نذهب إلى القناطر الخيرية, فهي حدائق رائعة الجمال وسأبعث لك صورنا الفوتوغرافية التي التقطناها هناك.

وكيف حال أخي "محمد" وزوجته "منال" تمنياتي لهما بالخير دائما. .

أمي العزيزة. . .

بلغي سلامي إلى خالاتي جميعا. . . ودمت لي.

ابنتك : فاطمة

أطبقت الخطاب ثم دفعته إلى خالتها التي رفعت كفيها داعية: "الله يحفظك يا ابنتي" ثم دعت "منال" إلى كتابة الجواب. واتخذتا مجلسا في أحد الأركان لكتابة الرسالة. وأثناء ذلك رن جرس الهاتف, فهرعت إليه "منال" وقالت بصوت متعب: "ألو. . . . ألو. . " فيجيبها صوت امرأة: "زوجك قد سافر مع صاحبته إلى موسكو وقد خدعك. . " وقبل أن تكمل هذه المرأة حديثها رمت "منال" السماعة بعصبية وهي تصرخ: اللعنة. . . اللعنة. . .

انتبهت الخالة: "ماذا حدث؟"

رمت بجسدها على الأريكة وقلبها يخفق صعودا. . . وهبوطا, وتمضي الخالة في تساؤلها: مابك؟!

تجيب في غيظ مكتوم: "هذه المرأة اتصلت ثانية, وتقول إن "محمدا" قد سافر مع صاحبته" بدت الخالة كأنها ساهمة تفكر ثم قالت:

- لعل هؤلاء أعداء يريدون هدم حياته. . . لا أعرف ماذا يفعل خارج المنزل وبمن يتصل؟؟!!

صمتت منال طويلا ثم قالت: "الحياة متعبة مع ولدك يا خالة". . .

طأطأت الخالة رأسها إلى الأرض في حزن بالغ وهي لا تدري ما تقول. .

وضعت منال القلم جانبا: "أنا متعبة الآن يا خالة ولا أستطيع إكمال الرسالة".

اندفعت إلى غرفة نومها باكية. . . ثم أحكمت إغلاق الباب بالمفتاح. . .

وجعلت الخالة تطرق الباب طرقات قوية وهي تنادي: "منال"! "منال"! دعيني أتحدث إليك, لكنها بقيت غارقة في البكاء تفكر" ماذا أفعل, هل أتركه وأذهب إلى بيت أمي. . . لماذا يخدعني. . . ثم يمتص نقمتي بالكلام المعسول. . . هل هذا الأمر حقيقة أم هو شرك ينصبه أحد لنا. . . لعله كذلك فلماذا أظلمه, ولكن سفره المفاجئ ورفضه مرافقتي. . أليس لأنه في رفقة صاحبته. . . يا إلهي أكاد أنفجر. . . كيف يفعل ذلك وهو إنسان ملتزم لديه من المشاغل الكثيرة ما يغنيه عن تلك التفاهات؟!. ."

لا. . . الرجال كلهم من صنف واحد. . . مخادعون مراوغون. . . أنا لا أعرف ماذا يفعل خارج البيت. . . إنه أوحى لي بأن هناك مؤتمرا صحافيا يجمع كل الصحافيين فلماذا لا أتصل بالجريدة وأستوثق من الأمر. . لكن لماذا يصاحب امرأة غيري. . . ما الذي ينقصني. . . ما الذي يفقده في ليبحث عنه عند أخرى. . . انتفضت وهي تقف أمام المرآة تتأمل جمالها "أريد أن أبحث عن عيب واحد في وجهي أو في جسدي وهل صاحبته أجمل مني" جلست وهي تشعر بدوار كبير" لعله يجدني جاهلة. . . سطحية. . . لا أفهم فكره فيتخذ صاحبة تشاطره أفكاره" وبغضب جعلت تضرب بطنها "أريد أن أقتل هذا الجنين" وتضرب وهي لاهثة باكية "لا أريده. . . لا أريده" حتى سقطت خائرة القوى تتنهد" أتمنى أن أراها لأمزقها. . " هدأت ثورتها قليلا

ثم نهضت لتعد حقيبتها وتملأها بالملابس, أوصالها ترتجف لفرط الغيظ. . . عندئذ خرجت مسرعة تتصل بوالدتها: "أمي أنا متعبة تعالي إلي". .

غضبت خالتها: اصبري يا "منال" حتى يعود زوجك ونفهم الموقف لم هذا التسرع؟ وتعنفها فتجيب خالتها: عندما يصلح نفسه فسأفكر في العودة إليه.

وتجيبها الخالة: ولم هذه الثورة؟ الأمر لا يستحق كل هذا. تضرب بقبضة كفها على المائدة: بدأت أكرهه . . .أكرهه. . إنه خائن. . الآن فهمت ما وراء كلماته المعسولة. . .

تهدأ الخالة قليلا تحاول أن تكظم غيظها: " ستصبحين غدا أما لولده. . . ولا بد أن تتحملي أخطاءه"

وهنا تنتفض "منال" وتسمر عينيها بخالتها قائلة بحدة: "إذن تعترفين الآن بأنه خطاء". تتنفس الخالة الصعداء: "إن كان الأمر هكذا فهو خطأ".

تذهب "منال" إلى غرفة نومها وتسحب حقيبتها إلى الخارج. . . تصرخ الخالة: "يا ابنتي حكمي عقلك . . . حكمي عقلك" ودون أن تستجيب تقول: لقد طفح الكيل,. . . تستدرجها الخالة بشيء من العاطفة: "امكثي معي, أين تريدين الذهاب فأنا مريضة أحتاج إلى رعايتك يا ابنتي. . . ابقي هنا من أجلي. . "

تلهث "منال" وقلبها يضطرب في صدرها :"اطلبي لك خادمة فقد سئمت كل شيء في هذا البيت."

وتمضي خالتها قائلة: "أنت تحبين محمدا ولا بد أن تصبري على حلو الحياة ومرها"

وبعنف تصرخ: "كنت أحبه. . . الآن قلبه شغل بحب امرأة بديلة فهنيئا له بها". شعرت خالتها بضيق في نفسها ولما حاولت النهوض سقطت على الأرض فتصرخ "منال" خالة! خالة! . تشدها من ذراعها وتجلسها على الأريكة. . . ثم تسقيها كوبا من الماء. . . فاستردت أنفاسها.

ساد البيت جو من الهدوء. . . حتى طرق الباب. . . فإذا بالقادم "أم منال" تحضنها تلثمها "ما بك يا ابنتي". . . وتدهش لحالة أختها؟! ما بك يا أم "محمد" تتنهد أم "محمد" بصعوبة بالغة "حدث سوء تفاهم بسيط. . ."

وتبدأ منال في سرد الحدث, فلم تلق استجابة من أمها إذ أجابتها بفتور: "لعلها فتاة من فتيات الجامعة المستهترات. .. وتربت على كتفها "لا كاذبة. . فالمرأة العالقة تحافظ على بيتها وسمعة زوجها يا حبيبتي. . ."محمد" رجل رزين فوق مستوى الشبهات. . . فمن العقل والمنطق أن تفكري بتصرف هذه الفتاة التي حدثتك في الهاتف, ماذا تهدف؟!! هل هي تعرفك؟! تحبك؟. . . إن موقفها يستهدف إثارة الشكوك والوساوس في قلبك حتى يحدث بينكما الانفصال. . . لتنصب شركا لزوجك. . . كوني عاقلة. . . لا تتركي لها فرصة الانقضاض على عشك الهانئ لتدمره".

تهدأ "منال" وقد شعرت خالتها بارتياح كبير, كأن أختها تعبير عما يجيش في صدرها. . . ومضت أم "منال": "هيا يا ابنتي اتركي الحقيبة واخلعي ثيابك واستعيذي بالله من الشيطان الرجيم. . . وعندما يتصل بك فلا تذكريه بهذا الموقف"

تقترب "منال" من خالتها تقبلها: أنا آسفة يا خالة. . . ثم تعيد حقيبتها. . . وعندما دخلت غرفتها. . . مضت تفكر في حديث أمها. . . ولكن بقي خيط رفيع يتموج بالشكوك في مخيلتها. . .الموقف لا ينطلق من فراغ. . فوراء هذا الأمر سر. . وأظنه امرأة. . . نعم امرأة. . . وعادت تنفض عنها هذه الفكرة ثانية وتوهم نفسها بأنه هاجس شيطاني. . . تنهدت, ولكن الحياة معه صعبة. . . إن أعصابي تحترق كلما سمعت رنين الهاتف. . . أخذت ترتب الملابس في خزانة الثياب ووقعت يدها على مبلغ قيمته مائة دينار, ضمت هذا المبلغ إلى صدرها فرحة: سأشتري لي ثيابا, فقد مضى علي زمن طويل لم أشتر لي شيئا. . اليوم أذهب مع خالتي إلى السوق.

----

(7)

المرأة الأفعى

بعد ساعات طويلة من الطيران وصلت الطائرة إلى مطار موسكو. . . كان الطقس باردا والثلوج تتساقط على سطوح المنازل. . . ارتدى "محمد" معطفه. . تنهد وهو يتنسم الهواء البارد. . وينفخ في كفيه ليحصل على مزيد من الدفء. . .

السكرتيرة كانت بجانبه هادئة. . صامتة. . تحدق به طويلا. . لعلها الآن توحي له أنها ما عادت تكترث به, أو ربما برودة الطقس ضغطت عواطفها الثائرة وصخبها المحموم داخل معطف الفراء. . . وقبعة الفراء. . . كان لا يبالي بها أو لعله يتجاهل وجودها كعادته. . . فانتهى من إجراءات المطار. . ليوقف "تاكسي" أجرة واقتربت منه صامتة. . جلس إلى جانب السائق وهي في المقعد الخلفي. . .

كان السائق يتحدث إليهما على اعتبار أنهما زوجان ويلتفت يمينا ويسارا. . بيد أن "محمد" بقي ساهما. . . لا يصغي إلى محدثه رغم هزات بالرأس توحي أنه منتبه إليه. . . بينما شردت سوزان ببصرها عبر النافذة تتأمل الشوارع البيضاء, والأشجار التي لبست كساء أبيض من الثلج, وعندما تناهى إلى سمعها صوت السائق مشيرا إليها "وزوجتك هذه" تسمرت عيناها وجعلت تفكر "زوجته؟!. . زوجته؟!. . هل خطر على بالي يوما أن أكون زوجة لأحد. . زوجة "محمد" مثلا" اعتصرت هذه الكلمة فؤادها. . أطرقت في حزن: "هذه المفاتن وذلك الجمال الصارخ لم يشفعا لي. . " تنهدت وهي تطرد شبح هذه الكلمة. . . توقفت السيارة عند فندق العاصمة الرئيسي وفي صمت يوحي بأنهما شخصان متخاصمان. . . قدم "محمد" جوازي سفرهما وبطاقتيهما إلى مسؤول الفندق. . ليقدم لكل منهما مفتاح غرفته الخاصة به "رقم غرفتك أيها السيد 56 , وأنت يا مدام 57 ".

ويقوم الخادم بحمل حقائبهما ـ عبر المصعد الكهربائي, وهناك تستقبلهما غرفتان مرتبتان هادئتان. . . مجهزتان بأفضل الأجهزة. . فيندفع "محمد" وهو يأخذ مفتاح غرفته إلى الداخل دون أن ينظر إليها. . . ويصفق الباب وراءه. . . اغتاظت: "اللعين يتجاهلني وكأني غير موجودة".

وبغضب تسرع إلى غرفتها متضايقة. . . متوترة الأعصاب. . . وبعد لحظات قصار تتصل به, يرفع السماعة.

- "ألو. . . " وبغضب تقول: "حتى لو كان رفيقك في الرحلة كلبا لالتفت إليه" ودون أن يجيب يضع السماعة مكانها.

ثم يرفعها ثانية ليطلب نداء هاتفيا لزوجته. . . ثم تعيد سوزان الكرة وبغيظ كاد أن يصيبها بالجنون تقول: "من أدنى أصول الذوق أن تسمعني أيها الملتزم". .

وبهدوء: ". . . رجاء لا تشغلي الهاتف لأني سأتحدث إلى زوجتي بعد قليل"

يضع السماعة ثانية. . ثارت ثائرتها: "إني مع رجل كالحجر الأصم ستنتابني نوبة هستيريا".

رن الهاتف ليتحدث "محمد" إلى زوجته.

- ألو. .

وبلهجة فاترة تجيبه "منال": "الحمد لله على سلامتك يا محمد"

- كيف حالك يا حبيبتي.

- بخير لا تقلق. . قالتها بلهجة توحي بالضيق

انتابته الشكوك وهواجس فطلب أمه: "دعيني أتحدث إلى أمي".

وتهتف أمه في شوق بالغ: "كيف حالك يا ولدي؟"

- بخير والحمد لله, أمي ما بال منال حزينة.؟

تحدق الأم بمنال مؤنبة:

- لاشيء. . . إنه حزن الفراق ودلع النساء على الأزواج. . . لا تقلق يا بني فهي على خير ما يرام.

ويودعهما.

شرع يرفع الستائر ثم يفتح النوافذ ووقف في الشرفة المطلة على الغابات الكثيفة التي تختفي وراءها الجبال . . . استنشق الهواء. . . وأغمض عينيه طويلا. . . وعندما سمع وقع أقدام. . . انتبه إليها وقد وقفت في الشرفة المحاذية له. . . وبافتعال: "آه الطقس بارد سأعود إلى غرفتي". .

ويندفع إلى الداخل وهو يحكم إغلاق النوافذ. ثم يضع كرسيا هزازا أمام النافذة الواسعة ليتمتع بما أبدع الخالق من الصنائع. . . لم تتمالك أعصابها بكت: "إنها أول قضية أخسرها في حياتي لكن لا بد لي أن أؤدبه حتى يعرف من أنا".

لأول مرة يحس بالأمان بعيدا عن ضوضاء المدينة. . . وصخب العواصم. . الدفء ينتقل إلى أوصاله فيشعر بالحنين إلى زوجته. . الليلة الوحيدة التي يغيب فيها قلبي عن الألم ويسري إلى صدري ارتياح عميق. . .آه, لكن لا أعرف ما سيحدث غدا, فقد أصبح كل شيء يفاجئني, تنهد وهو يغمض عينيه: "ينبغي الآن أن أعد المذكرة التي سأقدمها صباح غد. . ولكني مرهق أحتاج قسطا من الراحة" سمع طرقات خفيفة على الباب, نهض ليفتح الباب, تندفع "سوزان" إلى الداخل وهي تتنهد:

"إني متعبة يا محمد أكاد أن أموت لفرط التعب, أرجوك اطلب لي الطبيب". . ثم جلست على الأريكة تتأوه:

- "هذا الصداع لكم هو مؤلم"

تأفف وهو يمسك مقبض الباب:

- "تفضلي. . اخرجي من هنا"

وبغنج تتلوى وتتأوه:

-"محمد. . . محمد. . . لا تقس علي"

ومضى يعنفها:

- "هيا . . اخرجي".

أجهشت بالبكاء لفرط فشلها:

- "هل أخطأت عندما أحببتك؟"

تنفس الصعداء:

- "إن قلبك الملوث لا يعرف معنى الحب".

وتمضي وهي تتمتم:

- "أنت الرجل الوحيد الذي أحببته. . صدقني. . حاول أن تساعدني".

تمتم متبرما:

- "وماذا أستطيع أن أفعل لك؟"

انتبهت. . كأنها حققت مرادها:

- "نخرج معا. . نتحدث معا. . نأكل معا. . نفعل كل ما يحلو لنا".

ضحك ساخرا ملء فمه:

- "أظنك أخطأت العنوان".

تصرخ بثورة:

- "ومن تظن نفسك. . أليس لك قلب ومشاعر؟"

يقهقه:

- "إني رجل يحترم نفسه"

تصمت وهي تحاول استجماع ما في ذهنها من أفكار, لكنه قطع صمتها مشيرا إلى الباب:

- "هيا اخرجي فإني مشغول جدا"

تخرج غاضبة.

يعود أدراجه ضجرا. . فقد عكرت صفو مزاجه ثانية, يتمتم في حيرة شديدة: "لا وقت عندي للراحة طالما هذه الأفعى تطاردني. . "تناول كتابا بين كفيه وارتمى ثانية على الكرسي بعد أن فتح النافذة. . يتأمل سطور الكتاب وهو في شبه إغفاءة, ويقترب بخياله نحو الضباب الذي يحجب الرؤية عن هذه الجبال الساحرة. . إنه نغم ساحر يتردد بين خافقيه وقلبه ينبض مع كل قطرة. . تقطر في هذه اللحظات الدافئة التي تمتزج بإحساسه ودمه. . . عاودته الذكريات البعيدة عندما كان صغيرا فقد مات والده بمرض خبيث داهمه في مطلع شبابه, الآن يرى كل

شيء واضحا أمامه. . سيارة الإسعاف التي حملت والده إلى المستشفى فور أن سقط صريع المرض, أمه تثب مفزوعة تلطم وجهها والمطر والطين يقطران من أذيال عباءتها. . ساهمة. . تلتفت يمينا ويسارا هاتفة بوجوم وحيرة: "عبد الله. . عبد الله" ثم خرجت وراءها فاطمة مذعورة تشدها من العباءة: "ماما. . ماما"

كان الليل قاسيا وحبات المطر تهطل كأن السماء تذرف دمعا هادئا لا يعرف أنه ينتزع من بين الحنايا قلبا فارق الحياة منذ دقائق. . المستشفى لا يستطيع أن يبعث الحياة ثانية, تسقط فاطمة على الأرض تصرخ. . والدم يسيل من ساقها فاشتد ألمها وصراخها. . كنت في السنة الرابعة من عمري. . أشدها من ذراعها فتمضي صارخة بعنف, صائحة بيأس: "ماما. . . . بابا" حينئذ استلمت معها للبكاء. ثيابنا مبللة. . أقدامنا عارية. . والمطر الحزين يذرف. . قطرة. . قطرة. . يوقع نغما حزينا. وتتركنا أمنا إلى حيث المقبرة الأخيرة. . بقينا ساعات طويلة تحت المطر أضم فاطمة وتضمني, شعرنا بالبرد الشديد. . فالبيت كان أمامنا ولكن لم نكن نعرف لماذا بقينا تحت المطر نحضن بعضنا بخوف وهلع. . ننتظر عودة أمنا وأبينا. . الساعة كانت تشير إلى العاشرة مساء حين عادت أمي وقد هدها الحزن والبكاء. . تسمرت عيوننا نتساءل: "أين أبي, لماذا لم يعد معك؟"

تحاول أن تتمالك:

"لقد أبقيته في المستشفى فهو مريض" ولم أكن أعرف أنه قد رحل مع رذاذ المطر إلى عالم لا عودة منه. . وكل يوم يبحث فينا هذا الهاجس المخيف عن أبينا. . . حتى عرفنا أن كل شيء قد انتهى. .

مسح طرفه وهو يتنهد. أطبق الكتاب, ما زالت عيناه نديتين بالدموع. . يحدق نحو البعيد, ويشرد ببصره إلى هناك. . إلى عالم السماء الذي يستقبل في كل لحظة أرواح الأتقياء النازحة إليه من بين ملايين القبور. أحس بقشعريرة في بدنه: "هذه الرحمة الإلهية انتشلت أبي من مرضه الأليم. ." تنفس من أعماقه وهو يتأمل وجه السماء المتفجرة بالدموع: "ما أشقانا من بشر نبحث عن أنفسنا في دهاليز المدينة, وأمامنا العالم الفسيح الذي يحتضن همومنا وآلامنا. . هناك من يسمع الصرخات تختنق في الصدور المتمزقة. . ليس غير الله, ويد الرحمة طريقنا إلى النور الحياة الأصيل" نهض ليتوضأ ثم بدأ يرتل القرآن "والعصر إن الإنسان لفي خسر" دمعت عيناه ثانية: "لم يبق في هذه الدنيا سوى حطامها الزائل.فأحبابنا قد رحلوا. . . لم يبق من دنياهم سوى بضاعة رخيصة. . نخسرها عندما يصمت هذا النبض في الصدر."

صباح اليوم التالي تم انعقاد المؤتمر بانضمام حشد كبير من الصحافيين في العالم حيث تناولوا بتقاريرهم شتى القضايا العالمية: كالقضية الأفغانية, والفلسطينية, ثم الحرب العراقية الإيرانية. وكان لكل منهم وجهته الخاصة في التحليل والاتجاه, وكان محمد من بين المتحدثين, إذ قدم مذكرة خاصة حول توقعاته لمستقبل هذه الحرب, وفند المزاعم العالمية التي تستهدف إبقاءها مشتعلة للحفاظ على مصالحها في تلك المناطق, وطرحت تساؤلات حول هذه القضية, وأثيرت زوابع وسط ضجيج من الدهشة فقد قدم الوثائق الرسمية مع الكثير من الأدلة التي تثبت طروحاته وتقربها إلى أذهانهم, وختم مطالعته بقوله:

"لكي نزرع السلام في المنطقة لا بد أن ترفع القوى العالمية أيديها عن هذه المناطق وتسحب قواها المستترة بألف قناع".

وكان المؤتمر مناسبة للقاء مع أنمط بشرية لها من المعتقدات والأفكار ما يغذي نهمه في المعرفة, الاطلاع, إذ التقى عمدة قرية إسلامية تقع شمال موسكو الذي تحدث إليه عن حياة المسلمين الروس ومعاناتهم الكبيرة إزاء الضغوط التي تمارس عليهم. ثم أعرب عن حاجته إلى المزيد من الثقافة الإسلامية التي يتعذر عليه الوصول إليها بسبب الضغوط السياسية التي تواجه المسلمين هناك, فالحكومة رفضت منحهم إجازة لإنشاء المطابع لتزويد المسلمين بالكتب الإسلامية, وطلب منه أن يقوم بإرسال ما يستطيع إرساله من الكتب الإسلامية حينما يعود وطنه.

بعد هذه المحادثات انتقل الحشد الكبير إلى قاعة الفندق لتناول وجبة الغداء. كانت "سوزان" تبحث عن فرصة للقاء محمد في وسط هذا الزحام والضجيج فعندما جلس إلى المائدة. جلست إلى جانبه ووضعت ذراعها على كتفه ضاحكة. انتفض غاضبا حين خطف بصره ضوء" الفلاش", فأشارت سوزان قائلة:

- "انظر كاميرا"

فقطب جبينه: "لماذا تلاحقيني بهذه الصورة".

ضحكت: "نحن في روسيا يا عزيزي والأمر هنا عادي جدا".

عنفها: "لكنه عندي أمر شاذ".

تواصل ضحكها "لأنك جاف ومعقد".

ضوضاء الحاضرين تحدث دويا على المائدة. . وارتفعت أصوات الملاعق والأطباق وقهقهات عالية يتخللها روائح الطعام.

انتبه محمد إلى صاحبه الذي كان يحدثه بعربية فصحى تخالطها لكنة روسية:

ـ نحاول ترميم هذه القرية, لكن الفقر المادي الذي يحاصرنا يمنعنا من تحقيق هذه الأمنيات.

يجيبه محمد باهتمام:

ـ ولكن يستطيع الأهالي التبرع ولمدة سنة كل فرد حسب طاقته حتى يتوفر مبلغ بسيط يستطيعون معه إنجاز هذه الترميمات.

يقول محدثه:

ـ لقد فعلنا في العام السابق عندما بنينا مسجدا في القرية, ولكن أنت تعرف, كم يشكو هؤلاء الناس من الفقر المدقع ولا سبيل إلى تحميلهم فوق طاقتهم.

كان صوت الموسيقى يبعث في نفسه إحساسا بالضيق فلم يلبث أن خرج فور أن انتهى من الطعام, فرافقه عمدة القرية وهو يسأله:

ـ "ما رأيك أن ترافقني إلى القرية لترى الحياة هناك؟"

كانت فكرة رائعة أجاب محمد: "بكل سرور"

شدته سوزان من ذراعه: "دعني أذهب معك"

وبأدب جم أجاب محمد:

ـ لا بأس لكن أرجو عدم مضايقتي.

تأبطت ذراعه ضاحكة, وبينما هو يحاول الإفلات منها تشير إلى الأمام:

ـ "انظر يا محمد كاميرا".

غضب وكاد أن ينفجر, ماذا يفعل, فهو في حيرة. . قال لها:

ـ أرجوك اذهبي إلى الفندق فأنت تزاحميني.

لم تكترث لقوله. ثم أجابت بإصرار:

ـ ولكنه أمر صادر من الإرادة العليا ولا يستطيع مخالفته.

صرخ حانقا:

ـ تبا لك من امرأة.

أقلهما عمدة القرية في سيارته الصغيرة إلى قريته, واجتازوا عشرات الكيلومترات في شارع طويل تحيط به الأشجار الكثيفة من الجانبين, كان الطقس صحوا, فقد بزغت الشمس في كبد السماء بعد غياب, وها هي تلقي أشعتها على الأغصان المتلألئة بالندى. . . حيث ذابت حبات الثلج وسالت على الأغصان الناعمة الفارغة. . خلع محمد معطفه وهو يتمتم:

ـ "الطبيعة رائعة الجمال في بلدكم".

ابتسم الرجل بأدب:

ـ "إنها طريقنا ودليلنا إلى توحيد الله عز وجل".

ثم نظر الرجل إلى سوزان:

ـ هل أنت مسلمة يا سيدتي؟

ابتلعت ريقها بحرج بالغ:

ـ أجل. . أجل مسلمة من فلسطين.

اندهش:

ـ نحن نعتقد أن المسلمات في العالم الإسلامي يرتدين الحجاب, لكن يبدو أنها ظاهرة ليست عامة.

أطرقت بحرج:

ـ "المهم الاعتقاد في القلب".

هز الرجل رأسه فلم يبد أدنى اقتناع بقولها. . ثم تأملها باستنكار. . وهو يحدث نفسه: "من هؤلاء؟ لماذا تظهر فتنتها رخيصة, وتنثر شعرها برعونة بالغة؟ لماذا كل ذلك ولمن تفعل؟"

ثم حدق بمحمد طويلا, يستحثه على الكلام, فقال محمد:

ـ إن المسلمات هناك أمرهن مدهش يا أخي. . ففي الوقت الذي بدأت المرأة في الغرب تحتشم وتتعفف, راحت المسلمة تتبرج.

ضحك الرجل, ثم رمق سوزان بسخرية وهو يردف في ثقة بالغة:

- "نساء قريتنا يلتزمن بالحجاب في فخر وزهو, حتى أنهن قد تعرضن إلى تهديدات أوشكت بعضها أن تطال أعراضهن فلم يخلعن الحجاب بل تمسكن به أكثر, وكأن هذا الأمر سبيلهن إلى عالم الخلود الدائم".

بدأت علامات الضيق والتبرم ترتسم على محياها. . إذ أنها حاولت أن تتجاهل حديثهما, لطن أذنيها أبتا إلا الإصغاء, انعطفت السيارة ناحية منطقة جبلية, وفي دقائق قليلة استقبلهم عالم يختلف عن العاصمة, فالنساء يلبسن الخمر السميكة السوداء, وأجسادهن تختفي تحت جلابيب سميكة من الفراء, وقفازات سميكة من الفراء أيضا, وفي هذا الضباب الكثيف تلمع عيونهن الزرقاء البراقة, وخدودهن الحمراء. . في ابتسامة ترحب بالقادمين, يلتف حول السيارة الصغيرة مجموعة كبيرة من الصغار, يشرع بعضهم في قطف الزهور لتقديمها إلى الضيفين, فتدعوهما زوجة العمدة, وهي امرأة في العقد الرابع من عمرها. . تبدو أصغر من سنها بكثير. . . رقيقة, هادئة المحيا. . . علامات الوقار بادية في إشارات يديها الرزينة. . . وفي منطقها المهذب. . تدعوهما إلى بيتها الصغير الذي تحيط به حديقة امتلأت بورد الياسمين وأشجار الكرز, ثم يجلسان هناك تتحدث إليهما بالعربية, عندما يقوم زوجها بمهمة التعارف التقليدية, تحدثهما عن تقاليدهم. . . عاداتهم. . همومهم. . مشاكلهم, تحضر لهما الشاي وفطائر التفاح, ثم طبقا من الكرز. . تبدو سوزان في غاية الحرج. . جعلت تسحب ثوبها بشدة. . تحدث نفسها: " آه لو كان ثوبي طويلا بعض الشيء"

انتبهت إليها المرأة:

- يبدو أن السيدة تشعر بالبرد!

بتلعثم قالت: "أجل. . أجل"

قدمت لها معطف من الفراء, قالت سوزان بخجل:

- إن أذني تؤلماني أحتاج إلى قبعة إذا أمكن.

وتدفع إليها السيدة قبعة من الفراء. . أحست باطمئنان, كان محمد فهم أحاسيسها المتبلدة. وعندما انصرفت السيدة لطارئ قال:

- الطقس معتدل ولطيف ولا أظنك تشعرين بالبرد بل بالخجل, أنت أمام نساء محتشمات في لباسهن. أليس كذلك؟

في غضب صاحت:

ـ ويحك. . يا لك من رجل مراوغ, إن كلماتك كالسهم يطعن بي.

صمتا عندما جاءت السيدة تدعوهما إلى إقامة الصلاة في مسجد القرية وتقدم لهما سجادتين من صنع يديها.

ـ "تستطيعان الصلاة عليهما".

وفي امتنان قال محمد:

ـ "شكرا لك يا سيدتي"

بينما انتفضت "سوزان" مذعورة:

ـ "أنا. . . أنا. . لا أصلي. . لا أصلي"

اعتقدت السيدة أن سوزان متعبة لظرف صحي, بيد أنها لا تعرف أن في دينها حقيقة ربانية اسمها الصلاة. . .ربتت على كتفها قائلة في حنان:

ـ لا عليك يا ابنتي, سأذهب لأقيم الصلاة وأعود لك, تستطيعين التجول في أنحاء القرية.

تنادي السيدة ابنتها:

ـ نادية. . نادية.

تدخل إلى صالة الاستقبال فتاة يافعة. . ساحرة العينين تتهادى ضفيرتاها الذهبيتان على كتفيها. . كأنها قمر في ليلة عيد. . تسمرت سوزان في مكانها إعجابا وهمست في سرها: "يا إلهي. . ما أجملها من فتاة".

وفي تؤدة وهدوء تهمس الفتاة بالروسية: "نعم يا أمي"

تضحك السيدة مشيرة إلى ابنتها:

ـ "ابنتي نادية في العشرين من عمرها, قد حفظت القرآن, وهي الآن تعلم فتيات القرية تفسير سورة الفاتحة"

تتضاءل سوزان أمام هذه الأنثى الساحرة التي اجتمعت فيها كثير من الخصال, تقترب منها الفتاة. . . فيزداد جمالها. . حتى وقفت أمام سوزان مباشرة تحييها إنها تبدو أجمل من سوزان

بكثير رغم أنها لم تجهد نفسها في وضع المساحيق على وجهها. . إذ بدت نضرة, فاتنة, رشيقة, تتحدث العربية بفصاحة رائعة. . تستأذن سوزان:

- سأرتدي خماري وأعود لك في الحال.

وبعد لحظات قصار تعود إليها وقد تحولت إلى قطعة سوداء إلا من وجهها الناصع البياض الذي اختفى في الخمار الأسود كما يختفي البدر وسط الغيوم.

وفي أدب ولباقة تدعوها:

- "هيا يا سيدتي".

تخرجان معا, الفتاة الروسية تتحدث عن الهجوم الذي تعرضت له القرية في العام السابق وتشير بيديها إلى الآثار, وفي حزن واهتمام تختم عباراتها " الله ينتقم من الظالمين".

بينما سوزان تحس في ذاتها إحساسا عميقا بالألم لفرط حقارتها أمام تلك الغيداء الطاهرة "ما أوهنني من امرأة أقترب من العقد الثالث ولا أعرف هدفا ومعنى لحياتي. . هل أظن نفسي فاتنة ما أن تقع عينا الرجل علي حتى يذوب إعجابا؟ أفرط في وضع المساحيق على هذا الوجه الذي عشقه الرجال, حتى سئموا منه. تبلع ريقها وهي ترمق الفتاة بيأس وأسى: "يا إلهي إنها رائعة الجمال حتى وهي تلتف في ذلك الخمار. . لست أدري هل تعرف أنها جميلة, أم أنها كالشمس تجهل أنها تحرق كل هذه الطاقة. . يا لوجنتيها المتوردتين, وشفتيها المكتنزتين القرمزيتين, وعينيها الوسنتين, وأنفها الأذلف, وقامتها الفارعة. . . " تنهدت وهي ما زالت تتأمل الفتاة: "منطقها الرائع, إيماءاتها الرشيقة, لباقتها تتناغم مع صوتها الناعم كأنه همس طفلة"

تتنفس الصعداء: "آه. . أن محمد سيعجب بها, بل سيهيم بها"

ارتسمت علامات الدهشة على وجه نادية: "سيدتي أراك متعبة"

تجيب سوزان وهي تضع كفها على جبينها:

- نعم أشعر بدوار في رأسي فالأفضل أن نعود إلى البيت. تصمت نادية قليلا ثم تقول: "كما يحلو لك, كنت أتمنى أن تشاركينا درس اليوم".

تزداد سوزان ضيقا: "لا. . . لا أستطيع" تعود هاربة إلى مكانها, تندهش نادية "لعلي أسأت التصرف" ثم تمضي إلى درسها غير مبالية بما حدث, بينما تعدو سوزان هاربة وتفتعل التأوهات:

ـ "محمد. . . محمد. . أنا متعبة فلنعد إلى الفندق"

يقول محمد في تململ:

ـ "إن كنت لا تحتملين البقاء فلماذا أتيت معي؟"

تنفجر باكية:

ـ "أنا متعبة, أرجوك دعنا نعد."

يستأذن محمد بالرحيل, ويركبان سيارة العمدة ليعيدهما إلى الفندق العاصمة, مضت تتأوه في ألم, إذ يطاردها شبح نادية, تبتلع ريقها وهي تكاد أن تلفظ روحها من فمها, تحدث نفسها على مهل: "لا بد أن أهرب من هذا الواقع بأي طريقة", يشعر محمد بالأسى ولأول مرة يلتفت إليها باهتمام:

ـ "ما بك يا سوزان إن أمرك يدعو إلى الغرابة؟"

تبكي في حشرجة:

ـ "أشعر بالضيق يا محمد"

وبدهشة يتساءل:

ـ "ولماذا؟ ما الذي حدث؟"

وفي ثورة وصراخ:

ـ " لا أعرف. . لا أعرف, وأرجوك لا تسألني ثانية"

يصمت وهو يتنهد, ثم يواصل حديثه مع العمدة, وهما يخططان معا مشاريع القرية التي اقترحها سوية, فجعل العمدة يقول:

ـ "وأما مدرسة الأطفال فستشرف عليها ابنتي نادية, أظنها تستطيع ذلك"

تتسمر عينا سوزان عندما سمعت اسم غريمتها: " لا أريد محمد أن يراها, لا أريده, لا أريده"

ومضى العمدة:

- "نادية درست اللغة العربية عند أحد علماء الدين الأفغان ثم حفظت القرآن ودرست تفسيره" يضحك العمدة بإعجاب وهو يواصل حديثه:

- "إنها لفرط انشغالها بالعلم والدين نسيت الزواج والرجال, رغم أن ابن عمها يخطب ودها كثيرا, وهو يدرس الطب في جامعة موسكو".

يصغي محمد بإعجاب شديد ثم يسأل:

- كم عمرها؟

يبتسم العمدة قائلا:

- "إنها صغيرة. . قبل شهر تقريبا دخلت عامها العشرين".

وفي اهتمام مشوب بالفضول يسأل محمد:

- "لم أرها هناك"

يقهقه العمدة بتفاخر شديد:

- "إنها تحتجب عن الغرباء"

يقول محمد بإعجاب كبير:

- "هنيئا لك بها"

بدت سوزان تترقب ردود فعل محمد, وعلامات الإعجاب ترتسم على محياه, تشعر بالضيق والألم, فهي تريد انتزاع مثل هذه التعابير من وجهه ففشلت وخابت كل محاولاتها في جذب انتباهه, بيد أن هذه الفتاة مجهولة, لم تكن سوى فكرة في رأسه استحوذت على قلبه, وأظنه لو رآها لسلبت لبه.

توقفت السيارة أمام فندق العاصمة, وقبل أن ينصرفا شرع العمدة يقول:

- "سآتيك غدا"

غابت السيارة عن ناظريهما, سألته سوزان تبحث عما في خباياه:

- هل ستذهب إلى القرية ثانية؟

وبحزم يجيب:

- ولوحدي.

تبرق عيناها بوميض الدهشة. لعلة سيذهب ليراها. . تلك التي أسرته بشخصيتها. تتنفس الصعداء وتقول بحزن : "كيفما تشاء"

تندفع إلى الداخل على غير عادتها, فكل خططها قد غدت سرابا, لم تعد قادرة على استجماع قواها الذهنية. . غدت مشتتة . . مضطربة, حائرة. . وما أن انفردت بنفسها حتى رمت بثقلها على الفراش باكية:

- "أنا فاشلة. . فاشلة"

تضرب بكفها على الوسادة صارخة "لقد سحقني تحت أقدامه"

بينما دخل محمد وهو يلمس تقلباتها الغريبة "إنها امرأة غريبة الأطوار" عكف على إعداد مذكرة جديدة لتقديمها صباح الغد, ثم أطرق يفكر في عمدة القرية. . أدخل يده إلى جيبه وعثر على قصاصة ورق صغيرة "الحمد لله لم أنس عنوانه"

رن هاتفه, رفع السماعة "آلو. . آلو"

بصوت محموم يشوبه الألم واليأس تقول سوزان:

- أريد أن ألقاك على ضفاف النهر.

بهدوء يشويه حذر:

- مابك يا سوزان؟ أراك على غير عادتك.

تلح في طلبها: "دعنا نلتق الآن فأفضي لك بآلامي أرجوك"

بدا ساهما يفكر: "حسن سأنزل حالا"

هدأت ثورتها, جن جنونها فرحا. . "آه. . الآن أستطيع أن أفعل كل شيء".

لبست ثوبا طويلا ثم صففت شعرها. . وقفت أمام المرآة. تضع قليلا من المساحيق: "هكذا أبدو أجمل" وبعد أن استوثقت من فتنتها اندفعت خارجة تحاول أن تظهر علامات القلق على وجهها, كان يتصرف وكأنه في مهمة رسمية. أومأ مشيرا إلى الأريكة التي نصبت في صالون الفندق العام, انتفضت بشدة "هنا؟ . . . أمام الناس؟"

بثقة يجيب: "ذاك أفضل"

تصرخ غاضبة: "بالنسبة لك أفضل أما بالنسبة لي فإنه غير مناسب لأتحدث عن خبايا نفسي."

يستطرد في تبرم: "خبايا نفسك لا تعنيني بشيء."

كادت أن تشتاط غيظا لكنها تمالكت:

- أرجوك. . لا تذلني. . ماذا أفعل لك لتخشاني. . أنا امرأة ضعيفة, متعبة, أنهكتني مصاعب الحياة. . أحتاج قلبا رؤوفا يحنو علي لا تسئ الظن بي" شرد ببصره بعيدا وهو يسترجع مواقفها, لعله لم يطمئن لها, قال بفضول:

- "إذن فلنذهب إلى حيث تشائين"

وبخطوات حذرة, متمردة. . تخشى المجهول يصلان معا إلى ضفة النهر. . تقف إلى جانبه, ثم تسترجع ذكريات من نسج خيالها وتبكي في حشرجة:

- "أنا يتيمة الأبوين, استغلني الأستاذ عبد الله دون أن أعرف أن في هذا هلاكي أدخلني معهد السكرتارية واشترى لي بيتا, لهذا أصبحت ذراعه اليمنى في كل شيء ثم أخذت تذرف الدموع وتقترب منه أكثر هامسة:

- إنني أحتاج إليك يا محمد, أنت الرجل الوحيد الذي اهتم بأعماقي لا بجسدي.

صمت ولم ينبس ببنت شفة, حاول أن يبتعد عنها:

- أرجوك. . تستطيعين أن تتحدثي بصورة عادية. . فكلي آذان صاغية لك.

وفي التماس وتوسل قالت:

- محمد لماذا لا تبادلني الشعور والإحساس.

فهم أنه شرك من نوع آخر تنسجه حوله. . فتوقف ليقول بحزم:

- المشاعر نور يتدفق في قلب مخلص طاهر, لا تنسجم إلا مع قلب يفهم معناها ونبلها يا سوزان, أعتقد أنك تجيدين تمثيل الحب والكراهية والدموع والفرح. . فقلبي يحدثني بأنك حرباء تتلون كل ساعة بلون. . لا تعرفين سوى ذاتك المريضة التي أنهكتها أمراض المدينة الصاخبة. . كيف أستطيع أن أغفر لك مجونك ورقصك وسهرك ولياليك الصاخبة؟!

قاطعته باكية:

- "أرجوك أن تغفر لي, أعدك أنني سأتخلص من كل هذا التاريخ"

قال بلهجة صادقة لا تردد فيها:

- "أرجوك أنت أن تتركيني وشأني, فأنا رجل عندما أفكر في امرأة, أعرف أنها من طينة تختلف عن طينتك. .أنت دمية بلهاء. . فاقدة العقل والإرادة لا يمكنك حتى أن تحفظي كرامتك من الدنس والخطايا".

تبلع ريقها في حنق لكنها تقول:

- "أتوسل إليك بحق كل من تحبه أن تغفر لي. . لا أريد منك سوى الحب. . الحب فقط".

وبكبرياء واعتزاز ينصرف عنها:

- لا وقت عندي للحب وللنساء.

تركع على ركبتيها باكية. . تحمل قبضة من الرمال صارخة:

- "سأحطمك. . سأحطمك سأدمرك".

عاد إلى غرفته وفي صدره ضيق كبير. . وقف في الشرفة, يأخذ جرعة كبيرة من الهواء فوقعت عيناه عليها قادمة إلى الفندق مسرعة تجر وراءها أذيال الخيبة والخسران.

صفقت الباب وراءها بجنون. . تريد أن تمزق ثيابها. . تود الانقضاض عليه لتقتله: "هذا الحجر الأصم الذي فقد الإحساس".

وبثورة لا هوادة فيها جعلت تلتفت يمينا ويسارا, الاضطراب والحيرة يشتعلان في صدرها, تكاد تختنق, ثم نهضت من مكانها تحاول استمالته مرة أخرى, فسرعان ما تظاهرت بالحزن ورسمت على وجهها علاماته الكاذبة وهي تهتف:

- "محمد. . محمد" ما أن اقتربت منه حتى أشاح بوجهه عنها:

- هذا اللحم الرخيص حري أن تعرضيه في سوق النخاسين للبيع والشراء.

دخل إلى غرفته وهو يحكم إغلاق النوافذ:

- "يا لها من امرأة مريضة, فاقدة للعقل والصواب".

صرخت بشدة:

- "أيها الأحمق. . أيها الأحمق".

لم يبال بها. . دخلت ثائرة. . قلبها يلهث لفرط الغيظ, واسترسلت في دموعها كأنها أم ثكلى فقدت وليدها, آلامها اجترارا. . . دموع الفشل, دموع الوهن, إنها أشبه بالطين الذي يلتصق

بأقدامه ولا يحس به, تعرض عليه نفسها سلعة رخيصة مقابل ثمن باهظ, تساومه على مبادئه. . . تعتقد أنها تستطيع صيد كل فريسة. . . وتنقض عليها حتى تحقق مآرب أسيادها فلسان حاله كان يهتف بها دائما: "أبدا لا أنثني" انتابتها الشكوك والوساوس لعله لا يحس بجمالي. . . وثبي ناحية المرآة. . تتأمل وجهها المنهوك الذي لم ترحمه سياط الزمان. . . بدا شاحبا ذابلا عندما أزالت المساحيق تلمست البثور الحمراء. . . وتجاعيد خفيفة حول العين قد أخفتها بطبقة صارخة من المكياج: " لعلي فقدت تأثيري على الرجال" وطافت في مخيلتها صورة نادية. . . رونقها الساطع. . حسنها الباهر. . انتكست في حزن:

- إن في وجهها نورا ساطعا أشبه بنور الملائكة.

أطلقت من فؤادها المطعون زفرة حارة:

- سيقول عني عبد الله: فاشلة. . . فاشلة!!. . سيهددني بعملية أخرى تفوقني جمالا. . أعصابي تكاد تتحطم. . . أدارت زر المذياع. . . أحتاج إلى الموسيقى لتهدأ أعصابي. . . رمت بثقلها على الكرسي الهزاز. . . تصغي إلى الموسيقى. . . وفي روحها يتصارع القلق والحزن. . . . والخيبة. . . أصبحت كالبركان الذي تثور في أعماقه الحمم ويكاد أن يتفجر, بينما استكان محمد إلى القرآن الكريم يرتل الآيات بحزن كبير. . يتنهد عندما يقول رب العالمين: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله. . " يتأمل جراح نفسه التي تؤلمه عندما يهتف به هاجس امرأة يدعوه إلى الحب, إلى الخطيئة. رن الهاتف, رفع السماعة.

- آلو, آلو.

يتحدث إلى زوجته التي طلبها قبل ساعة:

- في شوق تصرخ: تعال بسرعة يا محمد فقد سئمت بعدك متى تعود؟

- بعد أسبوع إن شاء الله كيف حالك أنت؟

- بخير والحمد لله.

- ووالدتي؟

- بخير, فهي نائمة الآن. . هل تود أن أوقظها لك؟

- لا . . . بلغيها سلامي.

- لقد تأخرت كثيرا. . لم تتصل بي كل يوم كما وعدتني. .

- لأنني مشغول جدا يا عزيزتي. . فأرجو أن تعذريني

- لا بأس

- أودعك الآن. . مع السلامة.

- مع ألف سلامة.

----

(8)

امرأة من رماد

انقضى هذا الأسبوع في عمل شاق إذ قام المسؤولون بتكريم الوفود الرسمية, وفي القيام بالزيارات المخصصة للمعاهد والمتاحف ودور الفنون والثقافة, ثم تفقدوا أنحاء الاتحاد السوفيتي حيث تم تشكيل لجنة مرافقة قد أعدت للضيوف برنامجا كاملا بهذا الخصوص. . . وزاروا الأندية الأدبية التي تبحث في القضايا الأدبية المعاصرة والقديمة. . وهناك التقوا حول مائدة كبيرة لتقييم الأدباء والمفكرين العالميين .. وقد كان "محمد" يتردد على عمدة القرية وأحيانا يقضي عنده يوما كاملا .. إذا اجتمع هناك بشباب القرية المسلمين واقترح عليهم التدريب العسكري ليتمكنوا من المواجهة والدفاع عندما تباغتهم الضغوط العسكرية . ثم جهزوا مساحة كبيرة من القرية وأحاطوها بسور كبير لتدريب النساء والرجال على حمل السلاح ... كانت سوزان في تلك الفترة تعيد محاولاتها في استدراج "محمد" وقد كان يكتم عنها أنباء رحلاته فهو في شك كبير حول جذور هذه المرأة وأهدافها التي تخطط لها .. وعندما ودعهم حملوه بهدايا لعائلته :معطف من الفراء وسجاد من صنع النساء , كما دعا عمدة القرية لزيارته في وطنه حتى يتم الاتصال المستمر بينهم ولتزويدهم بالمعلومات المادية والثقافية . انتهى اليوم الأخير من المؤتمر حيث أقرت التوصيات الأخيرة في شتى القضايا ثم رسموا منهجا علميا لممارسة العمل الصحافي, وبعد ذلك أقيمت حفلة بهذه المناسبة حضرها كبار رجالات الدولة والشخصيات السياسية والدبلوماسية. . وفي نهاية الحفل قام المؤتمرون بتوديع بعضهم البعض, وتفرقوا مصطحبين حقائبهم المليئة بوثائق المؤتمر فقد كانت أيام المؤتمر حافلة بالعمل, والتوصيات الكثيرة التي أقرت. . تحتاج إلى من يخرجها إلى حيز التنفيذ. .

قام محمد بجولة في الأسواق ليشتري هدايا لأسرته, وفور أن انتهى شرع يعد حقيبة السفر وأبرق إلى زوجته يخبرها أنه سيصل غدا الساعة العاشرة مساء. . . شعر بميل للسير على ضفاف النهر, فبعد أن تناول عشاءه غادر الفندق واتجه صوب النهر بخطوات هادئة واثقة. . تطبع بصماته الأبدية على هذه الأرض. . . كان همه هؤلاء الذين أسلموا في عالم ملحد فهم في كل لحظة يفقدون عشرات الأطفال والنساء والرجال, وهم بحاجة إلى يد تغيثهم. . . إنهم يعرفون كيف يحولون هذا الإحساس الصادق في نفوسهم إلى قنابل موقوتة يفجرونها في وجه الظالمين عندما يحاصرونهم بكل وسائل المدينة الرخيصة. . لا بد من مدهم بالمال, إنهم يفتقدون كل شيء. . . كل شيء. . . يفتقدون السلاح. . . الخير. . . الكتاب. . . القرآن. .

تنهد وهو مطرق. . يفكر في كبرياء, لا تعرف المهادنة, في أعماقه تتفجر الرجولة الأبية التي ترفض زخرف الحياة. . كان يمشي ساهم الطرف وقد أغرق أحاسيسه في هذا النهر الرقراق. . . يسري ماؤه بسكون كالدم يجري في أوصاله حاملا الحقيقة التي تعيش في دمه. كلما خطا في العمر خطوة. . وكلما دنا من السماء خطوة. . . وكلما ابتعد عن ضفاف النهر خطوة. . تنهد ساخرا. . يضرب أخماسا بأسداس يتأمل هنا وهناك شبابا وشابات قد تعانقوا على هذه الضفاف يسخر في نفسه من هذا التدهور الخلقي, أليست لحظة الاستغراق في الجسد تبعدنا عن الحقيقة آلاف الخطوات؟ الحق أن هؤلاء تجري في دمائهم فضلات المدينة النتنة. .

جلس عند أريكة محاطة بالأشجار ثم أخذ حبات من الحصى ليرميها في النهر: "آه. . لقد تعكر سكونه عندما داهمه جسم غريب. اللعنة. . اللعنة. . . إن دمي يرفض كل شيء إلا الحقيقة. . " جلس القرفصاء وعيناه الحادتان الذابلتان تحدقان في خبايا المرئيات تبحثان عن هدف. أخرج من جيبه دفترا صغيرا ومضى يكتب:

"الإنسان في الاتحاد السوفيتي يجحد وجود الله رغم حقائق هذا الوجود. . فهذا شريان عريض من النهر يتدفق لهدف. . ولولا هذا الهدف لحدثت المفارقات الكثيرة التي تجهد الإنسان. إنه يبحث عن الأسباب من خلال الطبيعة والطبيعة تجيبه. . . بأنها لا تعرف. . ورغم كل هذا يجحد!!. . أطبق دفتره ضاحكا, وهو يحدث نفسه: "هل استطاعت هذه الورقة أن تدفع الناس إلى الإقرار بوجود الله". . حدق بهما طويلا. . لا تدري هذه المسكينة أنها لحظات قصيرة وتصبح كالتراب على هذه الأرض لا يميزها صديقها المخادع عنه. . . وعاد يسخر ثانية. . . نهض واقفا ثم عاد إلى الفندق وقد تزود بمد نفسي يستحثه على مواصلة الطريق. . .

أما سوزان فقد قادتها أفكارها السقيمة إلى أن محمد يعيش قصة غرام مع "نادية" ثم أخذت تلفت انتباهه بأسئلتها الكثيرة حول هذه الفتاة, لكنه اندهش لأمرها, وعندما ينكر أنه لم يلتق بها أو لم يعرفها تلك المعرفة يضيق صدرها حتى تكاد تختنق. . تسأل نفسها: ولماذا تهتم بنادية كل هذا الاهتمام؟ فهي ليست إلا عابرة سبيل التقتها يوما ولم تسعفها الأقدار بلقاء آخر. . . كانت تخطط خطة عمياء. . . إذ توهم "محمد" أنها أصبحت تقرأ الكتب السياسية والفكرية, ثم تشرع في مناقشته. . وكان عندما يحدثها يرنو بعينه إلى الأرض فتسأم لهذا التصرف, تحاول أن تفهم في أي تيار يسير, وعند أية محطة يتوقف؟ تبحث عن سقطاته, لكنه كان فطنا يعرف مراميها. ولما خابت أحلامها في السراب. . أصابها الانهيار. أرادت أن تستعيد ثقتها في نفسها التي بددها هذا الرجل, قضت ليلتها مع ثري عربي مقامر حتى ساعات الفجر الأولى. . . عادت مخمورة, محطمة, مهلهلة الثياب. . . رائحة الدخان والشراب تفوح منها. . . تدخل غرفتها حافية القدمين, رمت بثقلها على الفراش. . كأنها في نوبة. . . تبكي. . . تجهش في البكاء, تمزق الوسادة بمخالبها. . . سالت دموعها الغزيرة لتمتزج مع المساحيق التي لطخت وجهها. فالقلب داكن اللون. . . علامات الكآبة والإحباط ترتسم عليه. . بقوة. . كأنها مريض

يتألم. . . تتلوى. . . تتأوه. . .تجهش: "أكاد أن أموت. . " اتصلت بمحمد. . . هاتفه كان يرن دون جواب. . . فقد كان غارقا في نومه بعد ساعات طويلة من التأملات مع الله في هذا الكون الفسيح. وبجنون وثورة انتزعت التلفون ورمته بقوة على الأرض وهي تصرخ "اللعنة. . اللعنة. . " النوم فارقها منذ أن عايشت ذلك الصراع مع نفسها عندما فهمت حقيقتها المستهجنة في نفس هذا الرجل الصامد أمام كل محاولاتها الفاشلة. . . وتراءت لها صورة نادية من جديد, تخيلت أن بيدها سكينا تمزق به هذه الفتاة التي سلبت عقله ولبه. . "أجل. . هي من يفكر بها إنه شديد الإعجاب بها", ثم عادت تبكي في ثورة حتى تبللت الوسادة التي حملت آثار أحمر الشفاه. . وعادت تطرد عن ذهنها شبح هذه الفكرة: "وما شأني إن كان يحبها. . . ما شأني أنا. . هل أبرر فشلي بهذا الأمر. لا. . لا. . إنه شيء آخر. . .إنـ . إنـ . إني أحبه. . أحبه. . . فلماذا لا يلتفت لحبي. . آه. . اللعنة علي, أحبه ولا أعرف كيف أهرب من هذا الحب." انتفضت بشدة. ."لا. لست أنا ممن يحب. . الخيط الأبيض لا يجتمع مع الخيط الأسود. . هيهات. . إنه محض خيال. . ". . كان فؤادها يتمزق. . يخفق بشدة مضطربا بين الحنايا. . الدنيا ضاقت عن امتصاص خيط بسيط من آلامها الكثيرة. . أطلقت الزفرات في جزع. . كانت حدقتاها تتسعان "يا إلهي كأني ميتة. . بل سأموت". .

غلبها الإجهاد والنعاس وهي تردد "محمد. . محمد. . محمد. . آه. . "واستسلمت عيناها للنوم. . تناهى إلى مسامعها طرقات قوية على الباب. . نهضت مذعورة لتفتح الباب. . يحييها الخادم: مدام. . حان موعد السفر فقد اتصلنا بك مرارا ويبدو أن التلفون معطل" وفي حسرة ووجوم أومأت "حسن سآتي حالا". .

نظرت إلى ساعتها, كانت تشير إلى السابعة صباحا, فقد مضى على نومها ثلاث ساعات فقط, أعادت جهاز التلفون إلى مكانه. . كل شيء كان حولها مضطربا. . مكياجها. . ملابسها. . حاجاتها. . . أوراقها. . . لا تدري ما تفعل. . وفي تبرم تتمتم. . "أحس بصداع, لا أعرف كيف أعد نفسي للسفر" وفي عجلة من أمرها, مضت تعد الحقيبة وتضع المساحيق لتخفي آثار الهالات السود حول عينيها, ثم تناولت الإفطار مع محمد كانت هادئة صامتة. . لكنه هدوء أعقب العاصفة. كانت التاكسي في انتظارهما حيث أقلتهما إلى المطار. .

----

(9)

زواج في دوامة

كانت تنتقل بين الدور فرحة. . فزوجها على وشك أن يطرق الباب قادما من "موسكو", أعدت العشاء وشراب البرتقال. .

تصيح خالتها:

- "منال أعدي الشاي فمحمد سيأتي متعبا يحتاج إلى الشاي". .

كأنها طفل لفرط سعادته "حسن يا خاله.". .

ثم لبست ثوبا أزرق مطرز بخيوط فضية لامعة اشترته حديثا, أرسلت شعرها على كتفيها فبدت أكثر جمالا. . خرجت وابتسامة الشوق ترتسم على شفتيها:

- "انظري يا خاله". .

تحدق الخالة في انبهار شديد:

- "رائع. . رائع. . تبدين فاتنة. . ."

وسمعتا طرقا على الباب, فتندفع منال لتفتحه, تبرق عيناها بوميض البشرى. .

"محمد. . محمد. . أهلا ومرحبا". .

فيبادلها التحية بشوق وسرور. . .

- كيف حالك يا عزيزتي لقد اشتقت إليك كثيرا. .

تنهض الأم. . فيعانقها ولدها بحنان:

- وكيف أنت يا أمي؟. .

تضمه بوله: "بخير يا ولدي". .

تحدق به طويلا ثم تهمس:

- تبدو نحيفا. .

يبتسم مجيبا:

ـ لفرط الشغل يا أمي. .

ويجالسها وهو يلتفت يمينا ويسارا كأنه يتفقد أرجاء البيت لعله قد تغير ليتأكد أن كل شيء بقي في مكانه. . . تسمرت عيناه وهو يتأمل زوجته وقد هدها ثقل الحمل فبدت شاحبة متعبة. .

ـ كيف حال الطفل؟. .

تضحك وهو تنظر إلى بطنها الذي انتفخ:

ـ "إنه شقي منذ الآن". .

وتناولوا العشاء. . . ورويدا بدأت علامات السرور تختفي عن وجهه الذابل وشرد ببصره بعيدا غارقا في تنهدات حزينة.

تستطرد الأم:

ـ أراك متعبا يا محمد. .

يتنفس الصعداء وهو يضع الملعقة جانبا:

ـ أجل يا أمي وأحتاج إلى قسط من الراحة. .

ينهض وهو يحمل الحقيبة إلى غرفته, ولمعت في رأسه فكرة:

ـ ها. . . بالمناسبة فقد أحضرت لك قطعتين من القماش يا أمي أرجو أن تنالا إعجابك. .

ويضع الحقيبة على المنضدة ليقدم لها ولزوجته الهدايا, ثم دخل إلى غرفته تتبعه زوجته.

استدارت بتؤده وهي تشير إلى ثوبها:

ـ "ما رأيك بهذا الثوب يا محمد":

يتطلع إليها في تكامل:

ـ "جميل. . جميل. ". .

تنكس رأسها مطرقة:

"إنك غائب الذهن يا محمد". .

يلبس البيجاما ويرقد على فراشه وهو صامت ثم تعيد تمتماتها:

ـ " لقد اتصلت امرأة في غيابك قالت إنك كنت مع صاحبتك". .

انتبه, وبدأ يفكر بما حدث له في الرحلة, وتمضي في حديثها. . .

ـ "لكنني أنكر ذلك". .

يطمئن: "خير ما فعلت". .

تزفر زفرة حارة. . تمس شغاف قلبه, فيحاول استمالتها. . .

ـ احتمليني يا حبيبتي, , فأنا مكدود تضايقني أشياء كثيرة. .

تقترب منه. . وقلبها يضطرب في صدرها. .

ـ "هون عليك يا عزيزي هون عليك". .

يمسك كفيها بحنان. .

ـ لقد كانت رحلة شاقة. .

وبعينين ترنوان إلى الأرض ثم تلتفتان إليه بحنان قالت:

ـ "لقد كنت أحس بضيقك". .

يتأملها في حب:

ـ أحتاجك دائما إلى جانبي يا منال. . .

تبتسم في دلال. .

ـ "كنت أجلس جنب الهاتف أتوقع اتصالك في كل يوم لكنك خيبت آمالي". . .

وتراءت له صورة "سوزان" وعمدة القرية ومشاكل المؤتمر فارتسم الضيق والتبرم على وجهه, وبشيء من التململ نهض يبحث في مكتبته عن بعض الكتب. .

تأففت "منال" في ضيق. .

ـ إنه متقلب المزاج. .

قال وهو منهمك في قراءة عناوين الكتب:

ـ أين كتاب الاتجاهات السياسية في العالم؟. .

تصرخ متضجرة: "لا أعرف. ."

تجلس القرفصاء تتنهد بحنق ثم تتمتم: "أهذا الذي كنت أنتظره منك؟. . "

كان لا يبالي. . . فسرعان ما انتفض وهو يمسك الكتاب قائلا:

ـ "لقد وجدته". . .

تهمهم في امتعاض شديد:

ـ "لماذا تتجاهلني؟!. . ."

ينتبه إليها:

ـ "خشيت أن أنسى ما عزمت عليه سابقا". .

تحدق به طويلا كأنها تبحث عن شيء في أعماقه:

ـ " ما الذي طرأ على بالك؟ تستطيع تأجيل ذلك حتى صباح غد". . .

يبتسم ثم يدنو منها:

ـ سأضطر للنهوض مبكرا صباح غد لأمر مهم, كتابي هذا هو الموضوع المهم. . .

أطرقت تفكر صامتة. . . ثم استطردت بعصبية. .

ـ "لا أفهمك. . . لا أفهمك". .

سحبت الغطاء على وجهها لتنام. .

بينما جلس هو على مكتبه ليتصفح الكتاب:

ـ " نحتاج إلى ترجمته, وطباعة نسخ كثيرة منه لإرسالها إلى عمدة القرية" نهض من مكانه وهو يفكر في سره "نحتاج إلى حملة تبرعات سأحدث الشباب غدا" فتح الدولاب الذي يضع فيه بعضا من أمواله كان يدخرها لأغراض عمله. . وعندما يئس من العثور عليها. . . تأفف بصوت عال "أين الأموال". . قطع الغرفة جيئة وذهابا. . . أحست به منال, أزاحت الغطاء عن وجهها قائلة: "أية أموال؟" يجيبها باهتمام شديد:

ـ "لقد وضعت في الدولاب ثلاثمائة دينار". . .

تذكرت وفي صدرها ضيق وحرج. .

ـ "لقد صرفتها". .

يصرخ: "لماذا؟". .

ابتلعت ريقها:

ـ "لقد كنت أحتاج إلى بعض الملابس والحلي وعندما وجدتها صرفتها". . .

اغتاظ:

ـ ومن أجاز لك ذلك؟. .

تنفعل غاضبة:

ـ "إنك زوجي وأموالك هي أموالي ومن حقي صرفها". . .

يحاول أن يكتم غضبه. . .

ـ لقد منحتك مائة دينار قبل سفري إضافة إلى تزويد البيت بلوازم الطعام وغيرها ولا أظن أنك بحاجة إلى غير ذلك, ثم إن لديك من الملابس ما يفيض عن حاجتك. .

تقاطعه: أية ملابس تعنيها؟ لقد كنت اشتري ثوبين في الشهر إضافة إلى الحلي وقد صبرت على حالك واكتفيت بالشراء مرة كل سنة لأنني أقدر ظروفك المالية. . .

ما زال يتمالك أعصابه:

ـ هذه الأموال هي صدقات وحاجات الناس, وقد احتفظن بها لأنها مخصصة لذلك, وكان الأحرى أن تسأليني لأعطيك ما تحتاجين. . .

تصرخ:

ـ "لم أكن أعرف, كنت أعتقد أنها من حقوقنا المعيشية". .

صمت وآثار الغضب تلوح على محياه, لكنها غرقت في البكاء, وفي لهجة حزينة قالت:

ـ "إنك تحرمني من كل شيء. . من السفر. . . من الملابس الفاخرة". .

شرد في تفكير معين: "هذا الذي كنت أخشاه وحدث الآن". .

وتمضي باكية:

ـ كنت في حاجة إلى المزيد من الأموال لشراء حاجات أخرى لطفلنا القادم. .

يسأل في فضول:

ـ "وهذه الأموال ألم تكف لشراء تلك الحاجات. . ."

تقول بحزن:

ـ "لقد اشتريت أربعة أثواب مع حذاءين وعقد من الذهب". .

نفد صبره:

ـ "هذا التصرف لا يناسبني أفهمت؟". .

تصرخ:

ـ "أنت زوجي ومن حقي أن تشتري لي كل ما أريده". . .

ـ يعنفها:

ـ "لقد حذرتك منذ البداية أنني لست الرجل الذي تطمحين إليه ولكنك كنت مصرة على هذه الزيجة". .

تسمرت عيناها في خوف شديد:

ـ "بدأت أخشاك. . يبدو أنك تبحث عن وسيلة لفك هذا الرباط".

كان لا بد أن يحتفظ برباط جأشه:

ـ لا تسيئي الفهم والظن:

وتثور:

ـ بل هذا الذي يحدث الآن, , لقد عدت من السفر ونفسك تمتلئ بأشياء دفينة. . لقد تغيرت. . تغيرت يا محمد. .

زفرة زفرة حرى. . يصمت. . . لكنها تنفجر:

ـ لقد أصبح عندي يقين أن هناك امرأة في حياتك. .

لا يستطيع أن يتمالك نفسه. . يقول بغيظ شديد:

ـ أنت ساذجة. .

وتمضي في ثورتها:

ـ نعم صدقت ساذجة! لأني صدقت ألاعيبك. . وبدأت أبرر أكاذيبك. .

يضع أصبعيه في أذنيه:

ـ أرجوك لا أحب سماع هذا الكلام فقد سئمت. . . ففي رأسي تدور أشياء كثيرة. . أنا مجهد وأحتاج إلى النوم. . يطفئ نور الغرفة ثم يلتف في غطائه. .

وأرخى الليل سدوله. . لا يعكر هدوءه الرهيب سوى زفرات "منال" ووساوس تتصارع في رأسها.

خرج محمد صباح اليوم التالي دون أن يتناول فطوره. . . كانت زوجته غارقة في نومها, ودون أن يثير أدنى إزعاج لبس ثيابه وهم لينصرف. الضيق يعتصر جنبات روحه. . وهالات السهاد الطويل حول عينيه والقلق يثقل بدنه. . التقى الأصدقاء في بيت محسن. .

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحا. . شوارع العاصمة هادئة وأصحاب المحلات يستأنفون نشاطهم. . . الأصدقاء قد تجمعوا وبعضهم كان يتثاءب لفرط النعاس.

بعد أن حياهم أحضر الخادم لهم أكواب الشاي وفطائر الجبن ثم بادروا بأسئلتهم حول رحلته. . وطفق يحدثهم عن كل دقائقها. . . فسأله محسن مندهشا:

ـ تبدو مرهقا يا محمد.

ابتسم متكلفا:

ـ "نعم يا صاحبي. . أشياء كثيرة ترهقني". .

أردف أحدهم وهو يخرج الكلمات ثقيلة, بطيئة:

ـ لقد تمت مصادر حريتنا في الانتخابات هذا العام, وقد تم تشكيل وفد من طلاب الجامعة ينتمون لمختلف الاتجاهات لعرض مذكرة احتجاج فلم تفلح هذه المساعي. . .

وأكمل آخر. .

ـ "هناك حركة خفية داخل الجامعة تعمل على امتصاص الحريات تحت مبررات كثيرة منها الحفاظ على وحدة الطلاب والقضاء على الفتن والاضطرابات ثم الطائفية؟!". .

يتنهد آخر ويقول:

ـ "لقد توتر الوضع بصورة حساسة بعد العمليات التخريبية داخل بلدنا الآمن مخلفة في المحيط الاجتماعي آثار من الحيرة والارتباك تمزق صفوف الناس". .

وبضيق وعصبية يضرب محمد بقبضة كفه الوسادة التي يتوكأ عليها. .

ـ "العملاء اليهود. . العملاء اليهود. . ومخابراتهم الواسعة تعبث في وطننا". .

في يأس يقول محسن:

- "ماذا نستطيع أن نفعل لهم يا صاحبي. ."

يجيبه محمد والغضب يتطاير بين عينيه:

- لا بد أن يفهم الناس تلك الأساليب ويعرفوا من وراء هذه التطورات الأخيرة. .

وفي ثقة يتساءل أحد المجتمعين:

- "توعية إعلامية تقصد؟!". . .

يقول:

- "نعم. .هذه هي المرحلة الأولى, ننشر في كل مكان أن في بلدنا دخيلا ومتطفلا يسعى بكل ما أوتي من حول وقوة لضرب أمنه". .

يسخر أحدهم:

- "والشائعات الأخيرة التي يرددها الناس هذه الأيام, مفادها أن من أشعل هذا الاضطراب في بلدهم هم المتزمتون الإرهابيون". . .

يستطرد محمد:

- "سأعد هذه الليلة مقالي عن الإرهاب العالمي وأسسه ومصادره ونتائجه, فقد استطعت في لقائي الأخير مع الصاحفيين العالميين في موسكو أن أجمع بعض الحقائق التي تساعدني في هذا الشأن". .

يجيبه أحد الجالسين:

- "لا تفعل يا عزيزي سيكون مقالك هذا طريقك إلى حبل المشنقة". .

وبشيء من الارتباك يهمس أحدهم:

- لقد شعرت وأنا في طريقي إليكم أن رجلا يراقبني, يتجسس الطرق الذي أسلكه, لكني ضللته حتى ضاع في الشوارع, فيبدو أن في الأفق أمرا مريبا. . .

يحدق محمد كأنه يستجمع أفكاره:

- "بالطبع فعلينا أن نأخذ الحيطة والحذر. . ونلتقي في الساعات التي لا يفطن لها هؤلاء الكلاب". . .

في حزن يطرق محسن ويقول:

ـ "لقد هدأت الاحتجاجات في الجامعة بعدما حل مجلس الطلبة الجامعيين وصمت المعارضون وكأن الوضع لا يعنيهم, وراح كل منهم ينطوي بخوفه وجبنه حتى يضمن مستقبله الدراسي".

.

وفي تساءول شديد يردف محمد:

ـ "وماذا عن عادل وشلته, فهو يعد العدة قبل بدء العام الدراسي". . .

يجيبه في تهكم أحد الجالسين:

ـ لقد انهزم ولملم أوراقه ووضعها في حقيبة ثم رماها في البحر. . . وعاد منهمكا في دراسته مبررا أنه سيخرج هذا العام, والأمر يحتاج إلى ترك كل الأعمال الإضافية والنشاطات. . .

يضحكون ليقول محسن:

ـ هذا يثبت أنه كان يمارس هواية ولا يصارع من أجل مبدأ ثم قرأ أحدهم مقالا كان قد كتبه حول التطورات الأخيرة في برامج التلفزيون وتنكرها للقيود الاجتماعية وعرضها للصور الفاضحة وتباحثوا في الأمر. . . ليلتقط محمد هذا المقال قائلا:

ـ "سأنشره لك". .

وكان محمد قد تذكر أن كتاب "الاتجاهات السياسية في العالم" يحتاج إلى ترجمة, فدفعه إلى أحد الطلبة المتخصصين ليقوم بترجمته, ثم قال:

ـ أريدك أن تختار بعض فصول الكتاب لطباعتها بشكل كتيبات صغيرة. . .

شرع محمد يحدثهم عن القرية المسلمة واحتياجاتها. . .

ـ لا بد أن نرسل لهم كل شهر دفعات من الأموال.

واتفقوا على ذلك.

ثم قرأ "محمد" لهم قصيدة"علي" الأخيرة. . .

الساعة أخذت تشير إلى التاسعة صباحا. . انفض الجمع لكن الحزن كان باديا على وجوههم, فثمة ضغوط عنيفة تواجههم. . وكان "محمد" القلب الذي قدر له أن يحتضن كل تلك الآلام. . أطرق بألم وهو يمشي بتؤدة مع صديقه محسن, ويفضي له بأفاعيل السكرتيرة "سوزان" وتصرفاتها الأخيرة. . كان محسن صامتا. .هادئا. . هناك ما يعكر صفوه. . لم يستجب لمحدثه. . التفت إليه محمد متسائلا:

- مابك يا محسن؟ أراك على غير عادتك؟. . .

تلعثم. . ضاق عن الإجابة, ويلج عليه محمد. . إنه يخشى أن تكون هناك أشياء خفيه, فيجيب محسن:

- أفضل أن يتغير مكان لقاءاتنا. .

وفي حيرة يسأله محمد. .

- "ماذا تقصد؟"

يمضي في وجل:

- "والدي رفض أن نجتمع في بيتنا. . وقد حدث خلاف كبير بيننا لهذا السبب". . .

يربت محمد على كتفه مطمئنا:

- لا عليك يا صاحبي. . . سنتفق على مكان آخر. .

كانت هناك أحاسيس من الحيرة والخوف تمزق صدره. . أطرق. . مما زاد في قلق محمد عليه, , فاندفع يقول بصوت أقرب للصراخ. . .

- محسن! محسن! ماذا حدث لك. .

- لا أخفي عليك يا محمد أنا خائف. . خائف من أبي. .

- ما الذي يخيفك إنك تدهشني. .

- "بل أنا محرج من نفسي يا عزيزي لا أعرف ماذا دهاني". .

يحدق به محمد طويلا كأنه فهم خباياه:

- "محسن. . راجع نفسك. . فلا مبرر لخوفك والآن استودعك الله". . .

انصرف محمد وهو يخفي عينيه عن صاحبه خشية أن يفتضح إحساسه بالشك. . التفت إلى الرجل مهلهل الثياب يقف إلى جوار بيت محسن. . . يتأمله, كانت نظراته حادة ينبعث من عينيه الفضول. . . كان يحاول أن يخفي حقيقته. . تارة يعبث بمحرك سيارته. . وتارة أخرى يتطلع إلى عجلات السيارة بتأفف. . لكن نظراته كانت متجهة ناحيته. . . إن في الأمر سرا عجيبا. . اقترب منه وهو يتوجس خيفة. .

ـ ها أستطيع مساعدتك؟. .

في دهشة قال الرجل:

ـ "شكرا. . . إنه عطل بسيط أحاول إصلاحه الآن". . .

نظر إليه محمد نظرة توجي أنه فهم مراميه. . ثم انصرف وهو يلتفت إلى الوراء. . حتى اصطدم بسيارته وما لبث أن انطلق بها مسرعا. . وبقي الرجل متسمرا في مكانه. . ضحك محمد وهو في طريقه ضحكة ساخرة. . وهو يقول في نفسه: "الأوغاد الحمقى يبثون الرعب في قلوبنا. . ولكن هذه الأساليب لا يمكن أن تفت في عضدنا فهي أوهام زرعتها الأيادي الصليبية من أجل امتصاص خيراتنا وحقوقنا الطبيعية". .

توقف عند الإشارة وكان عدد كبير من السيارات والعربات يقف في صفوف متراصة, وشرطي المرور يقوم بمهمة التفتيش. . لقد ازدحم السير وتصاعد التذمر. . الثواني تحولت إلى دقائق. . صوت الأبواق المزعجة يرتفع. . معلنا الاحتجاج. . تناهت إلى سمعه أصوات تصرخ يهتفون: "لقد تأخرنا" ويتأفف آخرون: "نريد أن نلحق بأعمالنا" فوضى. . فوضى. . ها هو بائع السجائر, طفل فلسطيني أشعث الشعر ـ يتنقل بين السيارات, كأني به يهتف: "هيا ارحموني. . . اشتروا من أجل فلسطين" عيناه كانتا تقولان باسترحام وتوسل "ارحموني فأنا طفل معذب", لقمة العيش هي فتات هؤلاء الناس. . يجمعها ذلك الطفل في إناء إنه متوسل بأسلوب مهذب. . كان يتمنى أن يتأخر السير لفترة طويلة حتى يزيد في مبيعاته. . ولفرط التذمر ينهره البعض. . . يوبخه بقسوة. . اقترب ناحية محمد:

ـ "سيدي . . . أتريد شراء سجائر؟". .

تأمله محمد بعينين وادعتين قال له:

ـ سأشتري كل سجائرك.

لمع بريق الفرح في عيني الصبي وهو يدفع حزم السجائر إليه, وطفق الآخر يقدم له الدنانير حتى أتمها عشرين دينارا. .

قال الطفل في دهشة:

ـ "ولكن الثمن عشرة دنانير يا سيدي وليس عشرينا". .

ابتسم له بحنو:

ـ أعرف ذلك ولكن العشرة دنانير الأخرى لتشتري به كمية أخرى من السجائر لتبيعها وتستفيد من ثمنها. .

انطلق الصبي فرحا, وقد تهلل وجهه بالسعادة.

حركة السير بدأت تتسارع بعض الشيء. . فقد كان شرطي المرور يختار عينات عشوائية, فهو الآن في حالة مزاجية. . أو لعله تنظيم محنك وخطة رسمها في ذهنه. . .

تابع سيره. . وفي المرآة لفت انتباهه سيارة تسير خلفه ببطء فيها رجلان يتعقبانه. . تمتم بتصميم: "سأعرف كيف أضللهما". .

جعل ينطلق في شوارع بعيدة ويختار طرقا ضيقة ومتعرجة ويعرج نحو اتجاه مخالف لسيرهما. . . حتى وقف إلى اجتياز شارة ضوئية. . وما إن لحقا به حتى ظهر الضوء الأحمر فتوقفا, وارتسمت علامات الغيظ على وجهيهما, بينما كان محمد قد أفلت من قبضتهما. .

ضحك ملء فمه. . "إنها تسلية رائعة." لكنه سرعان ما عاد إلى ضيقه وتفكيره: "ماذا حدث لمحسن. . ماذا حدث له؟. . كل شيء قد اقلب ضدنا كما يبدو. . "

وصل إلى بيته وهو لا يعرف كيف حدث ذلك. . إنها حركة غريزية روتينية اعتاد عليها. . لم يبذل جهدا لمعرفة الطريق. .

ثمة حركة غريبة في البيت .. انتبه إلى أن أمه مطرقة باكية .صعق ..

ـ "ماذا حدث يا أمي؟". .

ودون أن تجيب تومئ إلى المنضدة:

ما زال مندهشا, اقترب من المنضدة, وجد عليها صورا فوتوغرافية قد التقطت له مع السكرتيرة "سوزان" عندما كانا في موسكو. تسمر في مكانه, لا يعرف ما يقول. . لم يكن يتوقع هذا الأمر. أشياء كثيرة تصطخب في نفسه. . يتطلع إلى أمه, يستحثها أن تتكلم فقالت وهي تجفف دموعها:

ـ "صباح هذا اليوم طرق الباب رجل وقدم لمنال هذا الظرف, وعندما وقعت عيناها على تلك الصور ذهلت وركبتها ثورة جنونية لطمت خديها صارخة وهي تقول: "هذا هو الدليل على

خيانته" اتصلت بأمها. جاءت الأم وبعد أن رأت الصور قالت كمن لا يصدق ما يرى: "لقد خنت الأمانة يا محمد"...

وأمرت ابنتها أن تعد حقيبتها وقالت: "فليحسم الأمر ويطلقها" حاولت عبثا أن أثني منالا عن هذا التصرف لكن ليست بيدي حيلة فهي تحمل ضدك دليلا قاطعا وأظن أن إخوتها سيثورون عليك"...

ثم سألته في عتاب..

ـ لماذا فعلت ذلك يا ولدي؟..

كان يحاول أن يكبح ثورته: لكنه صاح أخيرا:

ـ "إنها مؤامرة"..

وخرج والشرر يتطاير من عينيه وصفق الباب وراءه. كانت أمه تصرخ "محمد. محمد.. محمد.."...

وهمهم في طريقه: "ماذا افعل لهذه الحرباء الماكرة. سأدق رأسها. سأحطمها." زفر في الفضاء وهو يستعيد في ذاكرته محاولاتها في استدراجه, ثم انتبه إلى فكرة تحوم في رأسه: "هذه المرأة سلاح, ويمكن أن يضعوا آلاف النساء سهاما وأسلحة ضدنا. ماذا يستهدفون؟!. . تحطيم حياتنا الخاصة. وإن نجحوا في ذلك فلن يستطيعوا تحطيم صدورنا التي تتنفس المبدأ والعقيدة مع الهواء"..

وصلت سيارته أمام فيلا كبيرة ثم انطلق مسرعا وهو يضغط على جرس الباب. كان ثمة صراخ وهمهمات غير واضحة داخل البيت. فتحت الخادمة الباب, وبدون مقدمات اندفع إلى الداخل:

ـ أين منال يا خالة؟..

خرجت منال من غرفتها, صفراء, ذابلة, عيناها مغروقتان بالدموع... ترتجف في حنق:

ـ "طلقني. طلقني."

يقترب منها وهو يكاد لا يصدق..

تندفع إلى الوراء صارخة:

ـ "ابتعد عني أيها الخائن". .

يقطب جبينه:

ـ منال افهميني أرجوك. . إن في الأمر حكاية يتوجب عليك سماعها.

في ثورة لا تهدأ قالت:

ـ تبرير لم يعد يجدي. .

كان في حيرة لا يعرف كيف يتصرف. . فسرعان ما استدعى خالته:

ـ خالة دعيني أتحدث إليك أرجوك. .

كانت خالته في حالة من الضيق. .

ـ "الأمر واضح يا محمد ولا يحتمل أي تبرير". .

ويصر على موقفه:

ـ دعوني أتحدث. .

تضع منال أصبعيها في أذنيها صارخة:

ـ "لا أريد أن أسمع صوتك المزعج". .

يقترب منها وهو يشد ذراعها مغتاظا:

ـ لا تظلميني. .

تنهره بشدة:

ـ لا تلمسني. . فقد كرهتك. .

ـ لا تتسرعي في الحكم. .

وتعنفه:

ـ اذهب إلى نزواتك الطائشة. .

يصفعها وهو يصرخ:

ـ "لا تظلميني أيتها الحمقاء". .

وتندفع إلى غرفتها باكية بينما تتوعده الخالة:

ـ إن لم تطلقها فسأقلب عليك الدنيا ولا أقعدها. .

وكان لا بد أن يفضي بما عنده. . لكن الخالة كانت هي الأخرى رافضة أن تسمع فانسحبت إلى الداخل قائلة:

ـ عندما تضع منال طفلك تستطيع أن تأتي لتأخذه.

اندفع إلى الخارج وهو يقول:

ـ سأفضي بالحقيقة إلى أخيها, فإن وثقت بي فأهلا بها ومرحبا وإلا فلا أستطيع الضغط عليها. .

خرج كالبركان يثور غيظا وحيرة وضيقا والتقى أخاها وحدثه بالأمر فلم يلق منه إلا الصد, عاد محمد إلى بيته مهيضا مشتت العقل, واهن النفس مخذولا, فلم يجد أمامه سوى أمه الصابرة تجلس في انتظاره تترقبه. .

وفي حنان يتهادى في وجهها بادرته:

ـ ماذا فعلت يا ولدي؟. .

بحزن أطرق يسرد لها الموقف. . . صدقته. . كانت تحاول أن تبدو في أحسن حال, لكن ضيق التنفس قد لازمها منذ أن حدث هذا الأمر نهضت من مكانها بصعوبة. . . الحمرة القانية تصبغ وجهها:

ـ ما بك يا أمي. . . أراك مريضة.

تجلس ثانية على الأريكة. . تتنهد:

ـ صدري يضيق يا ولدي. .

أنفاسها متقطعة.

ـ يجب أخذك إلى الطبيب حالا. .

واصطحبها إلى الطبيب. . . فقد كان ضغطها مرتفعا جدا. . وحرارتها في أعلى درجاتها. .

قال الطبيب:

ـ "يجب أن ترقد في المستشفى إن حالتها صعبة. . ولا بد أن تكون تحت عنايتنا حتى تعود صحتها إلى وضعها الطبيعي". . .

وتم هذا الأمر في حركة بطيئة ملؤها الحزن والقلق. .

عاد محمد إلى بيتها الحزين يسخر ضاحكا.. "لقد صدق المتنبي حينما قال إن المصائب تتجمع كلها دفعة واحدة على المرء". .

يتفقد البيت. . كان صامتا ساكنا لا حركة فيه, كل شيء فيه مهمل. . فمنال لم ترتبه كعادتها كل صباح, غرفة النوم في فوضى. . أعد إبريقا من الشاي وشطيرة من الجبن. . ثم جعل يتناول طعامه دون شهية. . أخذ يتجول في أنحاء البيت, وهو مطرق يفكر, فقد تفاقمت عليه الهموم من كل ناحية: طفلة القادم الذي سيولد في فوضى أسرته, زوجته التي جن جنونها ففقدت صوابها. . وفي تذمر نقر على المنضدة. . يضرب أخماسا بأسداس, انتفض فجأة لرنين الهاتف وقد باغته, رفع السماعة:

ـ آلو. .

يجيبه صوت أجش يمتزج بنبرات آمرة:

ـ لماذا تأخرت اليوم يا محمد؟. .

ـ كنت مجهدا يا أستاذ عبد الله. .

ـ تعال حالا. .

أعاد السماعة في غضب. . "ماذا يريد؟ ليس لي رغبة في العمل اليوم" لكنه سرعان ما اقنع نفسه "لماذا ينتابني شعور بالقلق الآن بأن كل شيء سأفقده حتى الطعام. . عندما اخترت طريقي كنت أعرف أنه معبد بالآلام والمعاناة ولن أستطيع الحياة كالبهائم إلا عندما أساوم, بيد أن هذه المساومة ستفقدني معنى الإنسان الذي يشعر ويتألم ويفرح ويعاني, فالذين يأكلون وينامون ويجتمعون كالبهائم كثيرون في هذه الدنيا بل يشكلون مع البهائم ثلاثة أرباع الكرة الأرضية. . في حين يعيش الربع الباقي بلا طعام بلا قوت يقيم الأود, اللهم إلا بقايا الآخرين". .

استقبلته السكرتيرة "سوزان" كأنها تحاول معرفة ردود فعل الصور. . أعرض عنها, فهي محاولة استفزاز سخيفة وإثارة أعصاب, لكنه أظهر البرود والبلادة أمامها..

حيته بغنج ودلال كعادتها, لكنه هذه المرة منحها شيئا من اهتمامه:

ـ كيف حالك؟ ماذا تصنعين الآن؟. .

تلاحقت أسئلته. . . فغرت فمها بذهول. . . فهي لا تكاد تصدق.

ماذا حدث له؟

ـ إنني بخير يا محمد. .

اندهشت. . أومأت إلى الباب الموصد:

ـ تفضل الأستاذ عبد الله في انتظارك. .

جلس على الكنبة باسترخاء وهو يتمتم:

ـ لا. . أريد أن أحدثك بعض الشيء. . أستعيد معك ذكرى الأيام التي قضيناها معا في موسكو. .

صمتت وهي لا تبدي حراكا:

ـ إنني لا أصدق ما تقول. .

ويدعوه الأستاذ عبد الله:

تحرك لملاقاته لكنه همس لها بهدوء:

ـ صورنا كانت رائعة. .

حدقت به طويلا لتفهم مقاصده. كان الأستاذ "عبد الله" غاضبا. .ثائرا. . دفع الصور إلى "محمد". .

ـ ما هذه السخافات يا محمد؟

قهقه حتى النخاع. . . وصرخ الأستاذ عبد الله بانفعال:

ـ ما هذا يا محمد؟.

قال محمد وهو ينظر إلى الصور مليا:

ـ كانت رحلة ممتعة وأتمنى أن تتكرر.

خابت آمال الأستاذ وجعل يتمادى في غضبه المفتعل:

ـ إن تصرفاتك مثيرة للاشمئزاز.

صمت محمد وهو يحدق بالأستاذ, ثم قال:

ـ أتريد أن تفصلني من الشغل. . . فأنا جاهز. .

خنق كل محاولاته وعاد إلى تمثيله السابق:

ـ ها. ماذا كتبت هذا الأسبوع. .

يدفع إليه مقالا:

ـ كتبت دراسة طويلة حول الإرهاب الأمريكي ووسائل المخابرات في إثارة الارتباك. قاطعه الأستاذ والحمرة تعلو وجهه:

ـ لا. . لا. . لا تفعل هذا. .

في هدوء يجيبه محمد:

ـ أنا صحافي حر أكتب ما أراه في مصلحة وطني. .

يأخذ المقال ويضعه في درج المكتب وهو يتمتم في حيرة. .

ـ حسن. . . سأنشره لك بعد أن أطلع عليه.

شرد الأستاذ ببصره بعيدا لعله فهم خطة الأفعى. . .

استأذن محمد في الانصراف. .

التقى السكرتيرة ثانية. كنت قد هذبت مكياجها وشعرها بعض الشيء وأوحت له أن سلوكها قد اتخذ نوعا من الجدية والأدب. .

جلس قائلا:

ـ أليس لي حق في طلب فنجان من القهوة. .

ابتلعت ريقها وضغطت على الزر بشرود تدعو الخادم أن يحضر لهما فنجانين من القهوة. .

تحدث وهو يعبث بأوراق ضمها في يديه. .

ـ عندما رأيت صورك خالجني الحنين الجارف إلى موسكو. . . رذاذ المطر يتساقط على شباكنا. وجهك الصامت بين حبات الضباب الشاعرية شاطئ النهر عندما أخذت تركعين أمامي. . دموعك المتوسلة. شجرة التوت الندية. كل شيء يا سوزان أذكى في صدري الشوق إلى تلك الأيام. .

كانت تصغي وكأن على رأسها الطير. . . شاردة في بعيد الأحلام. . . انتبهت إلى الخادم يضع على مكتبها فنجان القهوة, تضجرت. . ليتها تدق عنقه لقد أيقظها من أحلامها, تابع محمد سخريته دون أن يثير انتباهها. .

تنهدت:

- الآن فقط أحسست بعذابي. .

يقول بهدوء مفتعل:

- كنت أحس بك دائما لكني أفكر بما وراء هذا الحب فأنا رجل متزوج وظروفي لا تسمح لي بالزواج.

قاطعته وعيناها متيمتان, وهمست:

- حبك هو الغاية يا محمد. . حبك فقط. . أنا لا أبحث عن شيء, أريد الحب فقط. .

نهض من مكانه. . فصرخت بتوسل:

- لا تذهب. . . دعني أراك. .

وفي دعة وسكون أجابها:

- أتمنى أن أبقى إلى جوارك العمر كله لكن أنت تعرفين التزاماتي. . . أراك غدا. .

انصرف وهو يحدق في نظرة حادة: "سأعرف كيف أصل إلى الغاية" صفق الباب وراءه. . جلست مشتتة, تتصارع الأحاسيس في صدرها. . . تتنهد وهي تستعيد كلماته الدافئة. . انتبهت إلى صوت الأستاذ عبد الله يدعوها إليه. . غضبت في تأفف. . "وماذا يريد هو الآخر؟". . كانت ساهمة شاردة. . ليست كعادتها. .

ينفخ دخان اللفافة في حيرة:

- هذا الشاب مخيف. .

وببلاهة وذهن غائب تسأل:

- أي شاب تقصد؟. .

يصرخ:

- محمد. .

أطبقت جفنيها تفكر. .

ـ ماذا به؟ . .

في غيظ يعنفها:

ـ ما بك أين حماستك؟. .

تنتبه فتنتصب في وقفتها كأنها استيقظت من جديد.

يقول بعصبية:

ـ لقد قرأت مقاله توا. . فهو شاب خطير. .

كانت هذه العبارات تثير في نفسها الإعجاب والهيام, إنه الرجل الوحيد الذي لم يخضع لأحابيلها التي تساقط فيها آلاف الرجال. .

أجابت:

ـ وماذا نفعل له الآن؟.

قال:

ـ لقد عاد إلى غيه وضلاله ثانية, ونحتاج إلى جرعات أقوى نسقيه إياها.

وفي فخر وكبرياء تتمتم:

ـ "لقد وقع في حبي وهذا هو المهم"

يبتسم ابتسامة صفراء:

ـ رائع. . رائع. .

وتمضي:

ـ "سأخرجه من عالم المثاليات إلى واقع الحياة. . اليوم حب. . وغدا لقاء". . ويشيد بها:

ـ أحسنت صنعا. .

لمعت السعادة في عينيها "هذه هي الخطوة الأولى. . . ألم أقل لك إن رحلة موسكو قد آتت ثمارها الآن. .". .

ويقهقه وقد عاد لونه البني المشرب بحمرة إلى وجهه ثانية. .

لكنها صمتت وباتت في حيرة من أمرها "إنها تحبه ولا تريد منه سوى الاهتمام بها". .

وقبل أن تنصرف قال لها الأستاذ:

ـ الليلة عندنا ضيوف السفارة. .

أخرج من مكتبه حزما من الدنانير. .

ـ اشترى لك ثيابا جديدة. .

تطلعت إلى الحزم وفي صدرها تسكن صورة محمد. . . اليوم حدث شيء جديد في حياتها. . ينبغي أن تتحرر من هذا الأمر.. رنت بوجهها إلى الأرض. . صرخ بها. .

ـ هيا خذيها بسرعة. .

قالت بتلعثم:

ـ "لا. . لا أستطيع. . أنا متعبة اليوم". .

قطب جبينه. . يأمرها:

ـ خذيها. .

ارتعدت خائفة. . . لعله مصيرها الذي بات من الصعب الخلاص منه. . أخذت الدنانير وانصرفت. . جلست مطرقة. . . لا تعرف ماذا تفعل, هذه قيود أحست بها الآن عندما خفق قلبها لأول مرة بإحساس صادق. . تأملت الكنبة التي جلس عليها محمد قبل أن يغادر المكتب, فنجان قهوته. . . آثاره. . . قصاصة ورقة سقطت من يده, عباراته الرقيقة. . فيها كل معاني التهذيب والقداسة. ثم أشاحت بوجهها إلى الجانب الآخر من حياتها. . رجال متخمون بالرذيلة, رائحة الدخان والخمر تختلط مع أنفاسهم, يضعون الدنانير تحت أقدامها, قهقهاتهم الوقحة. . عيونهم النهمة إلى النساء. . . أبدانهم المشوهة. . كيف استطاعت أن تسلم زمام أمرها إليهم. .. رقصت ضحكت. . لعبت. . غامرت بعفتها من أجل لذاتهم, وهي الآن على أبواب الثلاثين من العمر المحطم. ليس زوج وسكن. . ليس بين أحضانها طفل تلاعبه, تناغيه, انتبهت إلى عصبية بدأت ترتسم على محياها. . "من منهم تقدم للزواج مني كلهم؟ متزوجون لهم نساء محترمات وأولاد مهذبون وبيوت عامرة, وفي الخفية حيث العيون غافية يعبثون بأحلام الصغيرات" نهضت من مكانها وهي تحمل حزم الدنانير. . . رمتها على مكتب الأستاذ عبد الله:

ـ قلت لك إنني متعبة, وأظن من حقي الإجازة, حتى البهائم تخلد إلى الراحة عندما تتعب. .

اقترب منها, يقرص خدها بخبث. . .

ـ أضاعف الأجر. . .

تنتفض. . وجهها تعلوه حمرة وصفرة:

ـ إنك لا تفهمني. . .

يضغط على كفها:

ـ أفهم ألاعيبك تريدين المزيد. .

تتنفس في غيظ شديد, شعر أن في داخلها أمرا غريبا. .

قال بحنق. .

ـ أرميك في الشارع حيث الكلاب والبهائم. .

أطبقت عينيها متنهدة. . . ففهمت هذه الحقيقة التي تلتف حول عنقها ودون أن تلتفت إليه أعادت الحزم إلى حقيبتها وانصرفت بينما مضى الرجل يقهقه وهو يردد "شاطرة!. . شاطرة يا سوزان". . . وسرعان ما انقلب هزاره إلى جد وأطرق يفكر, فقد أثارت تصرفاتها الغريبة الشكوك في نفسه "لا أعرف ما يحدث خارج مكتبي" . . . صمت طويلا حتى استقر عند أمر في نفسه: "سأضع جهازا للتنصت في مكتبها لأعرف بمن تتصل؟ وماذا تفعل خفية عني؟". . .

----

(10)

وداعا يا صديقي

العام الدراسي كان ثقيلا, فثمة تغيرات داهمت الناس, الوجوه أصبحت حائرة, ترتسم عليها آلاف الأفكار لكن لا أحد يستطيع أن يهمس. . نظرات العيون هائمة في الوحل وكل منهم يبحث عن مهرب, الطلاب مشتتون هنا وهناك. . في صدورهم تدوي هواجس الخيبة والخذلان. . كلماتهم يائسة. . عيونهم لا تترقب من الزمن سوى دخان يغشي العيون فيعتذر عليها البصر.. تحوم في سطور الكتاب البائس الذي انقرض كتابه مع الأسلاف الأولين. .

كان محمد يبحث عن "محسن" وسأل بعض الأصدقاء فلم يجده. . لكنه انتبه إليه يخاطب إحدى الفتيات. . ويقهقه معها, ذهل محمد "أهذا محسن؟ ما به قد تغير. . بنطلون الجينز. . قميصه الأحمر. . شعره الطويل." نفض عنه هذا الخاطر "لا. . ليس هو".

اقترب منه أكثر ففزع لمرآه. . . "محسن!"

ارتبك:

- أهلا بك يا "محمد"

بحدة قال محمد:

- هل أستطيع أن أحدثك؟

ترك الفتاة ورافق صاحبه.

- لقد اضطررت إلى تغيير هندامي لأوحي. . .

صمت وهو مطرق.

قاطعه محمد:

- لتوحي أنك شاب مستهتر أليس كذلك؟! ولا أظن أن هناك مبررا لتضع سلسلة ذهبية في عنقك وفي معصميك.

ابتلع ريقه:

- إنها سياسة يا صديقي, يبدو أنك لا تشعر بما يحدث لنا.

تنفس الصعداء:

ـ أعرف أن بعض الشباب قد اعتقلوا, والبعض الآخر قد هاجر.

وفي رعدة قوية أصابت بدنه يقول متلعثما:

ـ أن الأمر بالغ الخطورة.

انتفخت أوداجه:

ـ الخطورة تكمن في غبائك!!

يعنفه:

ـ أنا لا أستطيع أن أجازف بحياتي كما تفعل أنت. . ثم إنه مجرد مظهر خارجي لا قيمة له, بيد أن الأعماق بقيت كما هي.

ضحك محمد ساخرا:

ـ هذه تنازلات يا صديقي. . تبدأ من الظاهر لتنتهي في الباطن.

بدأ صاحبه يتململ. . ثم أخذ يلتفت هنا وهناك, فلنفترق الآن. . أشعر بأحدهم يراقبنا. . . انصرف خائفا. .

أخذ محمد يضرب كفا بأخرى وهو يتمتم: "سبحان مغير الأحوال"

كان بعض الأصدقاء يجلسون حول مائدة الكافتريا, التقاهم. . ساهما. . يفكر في ضيق, ففاجأه أحدهم:

ـ أرأيت محسنا كيف تحول مهرج!

قال زميله الذي يجلس بجانبه:

ـ والده قد قلب كيانه, فهو رجل ذو سلطة شديد المراس, كان يرغمه أن يلازمه في مكتبه التجاري ويخيفه بشتى التهديدات, أظن المسكين يعيش صراعا مريرا في نفسه, فهو الآن مزدوج الشخصية.

قال محمد:

ـ كنت كلما أطلبه في الهاتف يقال لي إنه غادر المنزل.

يجيبه آخر:

ـ أظنه يكون موجودا لكن هذا أمر والده لجميع الخدم.

صمت محمد, وشرد ببصره بعيدا, وكادت أن تطفر الدموع من عينيه, فهو يتألم لهذه الحقيقة المرة. . صديق طفولته قد جرفته مسيرة الحياة إلى الوجه الثاني من الحياة. . هذا الإنسان الذي كان ينفث في صدره كل همومه ومعاناته.

انتبه إليه الأصدقاء, فربت أحدهم على كتفه:

ـ "لا عليك يا صاحبي. . ادع الله له. . لعله يثوب إلى رشده"

فانفجر يهمهم في ضيق:

ـ عندما حدثته الآن أحسست بحواجز كبيرة بيننا, النور الذي كان يتدفق من عينيه سابقا قد تحول الآن إلى عتمة وظلام لا أستطيع أن أكشف بها خباياه.

أطرق في حزن, زفر زفرات كسيرة. . كأنها صراخ طفل تنهش جسده الأشواك. . حدق في ساعته. . وفي ثقل كبير ينهض:

ـ موعد المحاضرة.

كان الأستاذ يتكلم عن "الحضارة الإسلامية" وآثارها في العالم, ويشعر بمتعة بالغة عندما يذكر لهم أهم إنجازات العلماء المسلمين. . ويسردها بشكل قصة حتى يظن المستمع أنه يعيش القصة, فهو بارع في إيماءاته. . تساعده تقاطيع وجهه المعبرة أثناء الحديث. . وتبرم عندما يعترض أحدهم عليه. . يعتقد أن هذه الأجساد السامدة تتفاعل مع وقع كلماته لكن سرعان ما دب بهم الضجر والتململ. . انتبه محمد إلى هذا العالم الصغير. . الساكن. . الذي لا يتلاءم مع حقيقة الدرس.

سأل الأستاذ:

ـ ما هو الهدف من سرد قصة الحضارة الإسلامية؟

يبتسم الأستاذ ويرمقه بإعجاب شديد:

ـ سؤال ذكي جدا.

انكسر طوق الملل بعض بالشيء, لفت الانتباه. . شرع يقول:

ـ لنربط الماضي بالحاضر, ولنعيش الثقة بمقدرات أمتنا وإنجازاتها العظيمة.

وعاد محمد يقول ساخرا:

ـ نبكي على الأطلال, ونعيش على فتات الأموات وأمامنا العالم الفسيح لنواصل المسيرة في الإبداع الفكري والعلمي. . هذا ضعف يا أستاذ.

ارتفعت درجة الحرارة. . وتحرك الأموات. . وعلا الضجيج. . فتحدث آخرون واعترض البعض, لكن الأستاذ نظر باستياء إلى هذا الحال الذي يحسبه فوضى. جلس على كرسيه صامتا وهو يسمع.

وتناهى إلى أذنيه شاب يسخر:

- لا بد أن تأخذ قسطا من الراحة يا أستاذ فقد كل لسانك.

ضحك الأستاذ:

- اخرس يا ولد.

طفق يتجول في ساحة الكلية حتى انتهى عند المحاضرة الأخيرة, إنه يشعر بالاختناق. . حاول أن يستجمع أفكاره المشتتة فلم يفلح. . استأذن في الانصراف. . كان البيت موحشا, فوالدته راقدة في فراشها مريضة. . زوجته ما زالت تطالب بالطلاق رغم محاولاته في استرجاعها. . التفت إلى رسالة وضعت على منضدة الصالة. . تنفس وهو مطرق "إنها من علي"

بسم الله الرحمن الرحيم

" أخي الحبيب محمد"

سلام الله عليك ورحمته وبركاته. . وبعد.

استلمت رسالتك الأخيرة وقد قرأتها بشغف حتى توقفت عند بعض سطورها الحزينة. . فأنا لم أتوقع أن تتغير الأحوال بهذه السرعة, ظننتك تبالغ يا أخي حتى قرأت بعض ما كتبت الصحف الأجنبية والعربية, وقد ساءني ما حدث لبعض الأصدقاء, وحسبي أن هذا قضاء الله وقدره.

والحال لا يختلف هنا في مصر. . لعل هذا نصيب الأشقياء دوما. . إنني أدعو لكم دائما عندما أزور المراقد الشريفة. . وزوجتي فاطمة قلقة عليك, تسهر الليالي الطويلة ساجدة راكعة داعية ربها أن يحفظك. لقد اتصلنا بكم أكثر من مرة فلم يرد أحد على الهاتف فقلقت فاطمة وجعلت تبكي ليالي طويلة, ولم أفلح في إقناعها بهدوء الحال, كانت تعتقد أنك في الزنزانات. . إننا نعيش في حالة قلقة يا أخي فأرجو أن تطمئننا على أحوالكم دوما.

نحن الآن نرتقب ولادتها. . فقد اقترب موعدها وأظنه خلال أسبوعين. . دعواتي لزوجتك, لعل الله يسهل أمرها ويرزقك منها بالذرية الصالحة.

أخي العزيز:

قد حدث قبل عدة أيام حادث رهيب في جامعة أسيوط, فإحدى الأخوات المحجبات كانت ترتدي نقبا حتى أثارت السخرية في صفوف الطلاب, ولسبب ما ذهبت إلى عميدة الكلية لمراجعة إدارية فجعل يرغمها على خلع النقاب, وكانت تقاوم ضغوطه, وبينما هم ليخلع عنها النقاب صرخت واستغاثت بأخوتها الطلبة, فاندفعوا إلى العميد وأشبعوه ضربا وحدثت عندئذ اشتباكات عنيفة, مما تطلب تدخل الشرطة لفض الاشتباك, ناهيك عن المظاهرات المتوالية التي يثيرها الطلاب لتغيير نظام الجامعة وتطبيق المبادئ الإسلامية هناك, وأظنها نيران لا تخمد, وأخيرا وليس آخرا ـ أدعو الله أن يحفظكم برحمته ويوفقكم لما فيه الخير والسداد سلامنا إلى الأهل والأصدقاء.

أخوك "علي"

شعر باطمئنان كبير فراح ليطمئن والدته. تهلل وجهها بالسعادة رغم الضعف الذي سلب نشاطها وحيويتها. . ناولها الدواء ثم دخل المطبخ ليطهو لها الحساء واللحم المشوي, كما أوصاه الطبيب.

رن الهاتف فتباطأ بالرد, بيد أنه نفض كفيه ورفع السماعة. . كانت المتحدثة سوزان:

ـ اشتقت إليك كثيرا يا محمد.

تذكر أنه قد التزم خطة حكيمة يسعى في إنجازها.

ـ كيف حالك يا سوزان؟

تنهدت في حسرة ولوعة:

ـ أريد أن أراك الآن.

قال ضاحكا وهو يتأمل ثيابه الملطخة ببقع الزيت والبهار:

ـ الآن. . . أنا في مهمة صعبة.

ـ ما هي؟ لا أظن أنها أهم مني.

قهقه:

ـ أعد الطعام.

ضحكت وهي لا تكاد تصدق:

ـ أمعقول هذا؟. لا أظن أن أمثالك يحسنون إعداد الطعام.

ـ لضرورة قصوى.

ـ وما هي تلك الضرورة.؟! فأين زوجتك؟

ـ إنها حامل وتحتاج إلى قسط من الراحة. . فقد آثرت الذهاب إلى بيت أبيها ريثما تسترد عافيتها.

انتابتها أحاسيس الغيرة. . لقد اشتعل غيظها.

لكنه قطع صمتها فجعل يقول:

ـ اسمحي لي أن أنصرف الآن. . فاللحم على النار.

وضع سماعة الهاتف وهو يتمتم في غيظ: "اللعنة عليك أيتها الحمقاء المخدوعة. . سأجعلك عبرة لأمثالك من الساقطات"

وفور أن أعد الطعام نصبه أمام والدته. . أسند ظهرها إلى وسادة كبيرة ثم جلس إلى جانبها يطعمها بيديه بحنان وحب. . كانت أناملها ترتجف عندما تقبض الملعقة بكفها.

رمقته بحزن دفين:

ـ لقد أخطأت في زواجك من منال يا ولدي.

حاول أن لا يثيرها:

ـ لا ذنب لها. . إنها مخدوعة.

وواصلت بألم:

ـ الزوجة التي لا تقبل عذر زوجها لا خير فيها. . لقد رفضت زيارتي في المستشفى رغم أنها تعرف كم كنت أعاني المرض.

ربت على كتفها:

ـ النساء يعتقدون دائما أن الحياة الزوجية عسل حلو المذاق, وعندما يتعكر صفوها لطارئ في حياة الرجل ينسين الحقوق والواجبات, ويعدن إلى أوكار آبائهن مخذولات.

شردت ببصرها بعيدا, كأنها تتذكر شيئا:

ـ أستثني فاطمة. . فهي مثال للزوجة المخلصة الصابرة.

ويبادلها محمد الثناء:

ـ كنت أتمنى لي زوجة كفاطمة هي حلم كل الرجال, وكثيرا ما يكتب لي "علي" عن حبه لها واحترامه لمواقفها النبيلة.

قالت الأم وهي تدفع عنها إناء الحساء:

ـ اكتفيت يا ولدي.

يلملم الأطباق ثم يجلس إلى جانبها يسامرها حتى لا تداخل الوحشة فؤادها. قالت بحزن:

ـ أشعر بدنو أجلي يا ولدي.

حضنها وهو يخشى أن يفقدها, فهي الحب الوحيد الذي ينبض له بالصدق الآن.

ـ لا تقولي ذلك يا أمي. . أنت الأمل الباقي في هذه الحياة.

دمعت عيناها.

ـ لا أعرف ما سيكون مصيرك من بعدي. لكن أوصيك أن تحافظ على نفسك, فغدا ستصبح أبا وسترى الحياة حلوة في بسمة وليدك وعينيه الجميلتين.

ضحك متكلفا:

ـ لا أدري ما سيكون حال هذا الطفل؟

تسأله بحنو:

ـ ماذا ستسميه إن شاء الله؟

ـ عبد الله.

ابتسمت في وداعة: "ذكرى أبيك" وأطرقت تستعيد ذكرياتها حتى ذرفت الدموع الغزيرة, أمسك بكفها يقبلها:

ـ لا تبكي يا أمي فوالدي حي يرزق في كل سكناته وهمساته.

حملت رأسه بين كفيها وهي تتمتم:

ـ أنت صورة أخرى من والدك المرحوم.

عاد إليها الضيق في التنفس. . ويبدو أنها بذلت مجهودا.

ـ لا تتعبي نفسك يا أمي. . ارتاحي. . نامي.

سحب عليها الغطاء فشعر بالوسن يدب في جفنيها المتهدلتين حتى راحت في سبات عميق. . أطفأ النور. . ثم خرج إلى الصالة. . جعل يتصل بزوجته, كان يتبع كل السبل والحيل لإرضائها حتى قال لها في الهاتف:

ـ حبيبتي عودي من أجل طفلنا القادم. . . لا يركبك العناد.

أجابته بغرور وصلف:

ـ الآن عرفت قيمتي ومكانتي. .

ـ أنت دائما معززة مكرمة عندي يا منال.

ـ واضح من خيانتك.

ـ أنا لا أخون زوجتي وأم طفلي.

ـ طلقني.

ـ أحبك. . لا أستطيع. . عودي إلى بيتك الذي غدا موحشا حزينا يبحث عن لمساتك الحانية. . زهور البيت غدت ذابلة بعدك يا حبيبتي. . عودي. . أقسم لك بالله أني أحبك حبا لا يوصف.

صمتت كأنها تطلب المزيد.

ـ عودي يا مهجة القلب وقرة العين. . أنا بانتظارك دوما, أنا لا أستطيع الحياة دونك. . أرجوك. . إن خالتك مريضة طريحة الفراش والسبب فراقنا عن بعضنا. . لا بد أن يعود الحال كما كان.

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ إنني سألد الشهر القادم وأحتاج إلى وجود أمي بجانبي.

ـ ولكن لزوجك حقوقا يجب أن تؤديها.

ـ أي حقوق يجب بعد أن جرحتني في كرامتي؟

ـ لقد شرحت الموقف دون تضليل وليقيني أنك تثقين بي.

ـ كنت أثق بك سابقا أما الآن فالحال قد تغير.

يصمت غاضبا ويجيب بألم شديد:

ـ إذن فالطلاق هو الحل الأخير.

فزعت وكاد أن يغمى عليها.

ويقول:

ـ يبدو أني أخطأت في كل هذه المحاولات مع السلامة.

رمى السماعة غاضبا متذمرا.

ارتدى ثيابه وهرب من هذه الأحاسيس التي تحترق في صدره. . بدا كالبركان تغلي فيه الحمم, إن الأيام تثبت له سوء اختياره لهذه الزوجة فهي قد تمادت في غيها وعنادها.

التقى السكرتيرة "سوزان" وقد اضطربت عندما وقعت عيناها عليه, أومأت له بالجلوس. . كانت هالة من السعادة ترتسم على محياها جعلها تبدو في نضارة لم يعهدها من قبل, جلست إلى جانبه:

ـ لقد كنت أعد الدقائق واللحظات من أجل رؤياك يا محمد.

حاول أن يتناسى ضيقه بحياته وابتسم بتكلف:

ـ شكرا لك. هل أعددت مقالي الأخير للنشر؟.

في فضول تسأل:

ـ أي مقال تعنيه؟

ـ الإرهاب الأمريكي.

وعلى الفور أجابت:

ـ لا أظن, فالأستاذ عبد الله رفضه.

بغيظ يسأل:

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف.

وكاد أن يدخل إلى المكتب, لكنها استوقفته هامسة:

ـ من حسن حظي أنه مشغول في اجتماع.

يعود أدراجه بتأفف.

ـ هون عليك يا محمد.

وتتبادر إلى ذهنه فكرة. . يخرج من حقيبته كتابا يدفعه إليها:

ـ تفضلي هذه هديتي لك.

تأخذ الكتاب وتضمه إلى صدرها فرحة:

ـ شكرا. . شكرا لك يا محمد.

تتطلع إلى عنوان الكتاب "إنها قصة الرباط المقدس لتوفيق الحكيم"

تتأمل محمدا بشوق وألم:

ـ إنها أجمل هدية في حياتي.

يطرق وحزن دفين يختلج بين حناياه:

ـ مفهوم القصة رائع يا سوزان.

بفضول تسأل:

ـ ما هو؟

يحدق طويلا في الفضاء كأنه يستجمع الأفكار ويجيب:

ـ مفهوم الرابطة المقدسة بين الرجل والمرأة, إضافة إلى معنى الجمال الحقيقي, وفلسفة اللذة, فهناك لذات معنوية تتمثل في القيم الإنسانية الراقية تفوق لذات البدن الرخيصة.

تصمت طويلا. . كأنها تستعيد شريط حياتها الملوث.

في استخذاء وتوسل تهتف:

ـ لا تتركنا يا محمد. . لقد بدأت أرى الحياة في نور عينيك. . إنني امرأة ضائعة حائرة لا أعرف لي قرارا. . استيقظت في هذه الدنيا على الحرمان وعشت ليالي سوداء حالكة, سقطت في وحل الرذيلة النتن, لكني بدأت أتغير عندما عرفتك. . أجل لا أكذب عليك, ربما كنت في السابق كاذبة أما الآن فقد عرفت في شخصيتك معاني عظيمة, استقامتك, نبلك, رجولتك, رغم كل محاولاتي في إغوائك, فهمت فيك روحك الشفافة التي تبحث عن أليف رائع يحمل قيمك ومثلك, أنا أفهمك يا محمد. . أفهمك. . لكن السبيل الذي اتخذته في التقرب منك كان متعثرا.

دمعت عيناها. .

أشاح بوجهه عنها "ماذا فعلت!!" أشعر بالإشفاق عليها. . لكن هذا الإحساس يفسد خطته.

ومضت في حديثها:

ـ كنت أتمنى أن أحدثك بأمر لكني خائفة. . خائفة جدا

ابتلعت ريقها. . واصفر لونها. .

نظر إليها يستحثها على الكلام:

ارتجفت وذرفت دموعها:

ـ لا أستطيع. . أود أن أساعدك لكني محاصرة بأشواك قاتلة.

برقت عيناه بوميض التحدي للمجهول: "هيا تحدثي".

انتصبت واقفة وهي تصرخ بيأس:

ـ أنا خائفة. . خائفة جدا.

بحنان ورفق استطرد:

ـ لا تخافي سأحميك سأحتويك بكل قوتي.

التفت إليه بوداعة:

ـ أحقا ما تعني يا محمد. . هل ستحميني؟!

ويشجعها:

ـ أجل. . بالتأكيد

ـ لكن دعني أراك في مكان بعيد لأفضي لك بهذا السر حتى أبدو في عينيك ناصعة مشرقة.

انتبهت إلى "الزر" الأستاذ عبد الله يدعوها.

انفرج الباب ليخرج رجلان أشقران, طويلان, نظرا إليها بنهم, ثم ودعاها بابتسامة صفراء.

دخلت المكتب مرتبكة. .

نظر إليها مشدوها, يتأملها:

ـ هذه الأيام تبدين غريبة الأطوار.

تلعثمت:

ـ متعبة. . متعبة فقط.

أشعل لها سيجارة.

قبلتها بعد تردد, ثم سألها ساخرا:

ـ ماذا فعلت مع محمد؟

ابتلعت ريقها, كانت خائفة أن يعرف حقيقة الموقف, فأبدت نوعا من الخبث المتصنع:

ـ لقد وقع في الفخ واليوم, سألتقيه في بيتي. .

قهقه كعادته, حدق بها طويلا كأنه يكشف سرها.

اضطربت, نفخ دخان سيجارته بوجهها ثم قهقه, تود لو تسويه الأرض فهي الآن في منتصف الطريق مترددة بين الإقبال والإدبار, لكن حبها لمحمد دفعها لهذه المجازفة, وستقدم على هذه المحاولة وهي مغمضة العينين لعل هذا الأمر هو المحك الحقيقي لصدق نواياها.

فكرت وهي سامدة. . عليها أن توهمهم أنها مستمرة في إغواء هذا الرجل, ولكنها أوحت لأستاذها هذا أنها مقبلة على أمر جديد في حياتها. . جعلها تبدو متحفظة في كل تصرفاتها.

كان محمد في مكتبه يكتب المقالات السياسية حول تطورات الأوضاع ويضعها بشكل تساؤلات أمام الناس. . لكن الموعد الذي سيكشف له السر "خطة الأفعى" شغل تفكيره. . فبدا ساهما, مطرقا, مترددا في الذهاب إلى الموعد "ربما يكون هذا فخا جديدا, لكنه شعر أنها صادقة يلمع في عينيها صدق واضح, ولا أظنها تبرع في البكاء وإظهار الحزن المبالغ فيه. . كانت تبكي وتتوسل أن أحميها. . أجل مسكينة. . تبدو ممزقة. . منهوكة القوى. هي في حقيقتها إنسانة معذبة سلبوها كل شيء" انتفض وهو يسخر من نفسه "ماذا حدث لي؟ لقد أفسدت خطتي. . هل أصدق حرباء قضت سني حياتها تلعب بالنار ولكني أوهمها أني أصدقها. . هذا هو الحل." شعر بالارتياح. . لعلها ستساعده في كشف بعض الأوراق الخفية. . . وكان هذا مصدر سعادته.

----

(11)

سر القتيلة

الساعة تشير إلى الخامسة مساء, كان "محمد" يجلس في "الكازينو" المطل على البحر. . في مكان منعزل, يحدق في ساعته, ومضت الدقائق ثقيلة, بطيئة, تذمر "ما بها تأخرت. . . " وعندما انقضت ساعة كاملة انصرف غاضبا, اللعنة. . لقد خدعتني هذه الحمقاء, ما الذي حدث!! سرعان ما طرد غضبه ببعض الأعذار. . لعلها وجدت الظروف لا تناسبها, فهي ستكشف أمرا خطيرا. . ركب سيارته وانطلق بها سريعا. . . وكعادته انتبه إلى سيارة تتعقبه, ولفرط ضيقه تجاهلها: "ماذا يريدون؟! إنهم يتبعونني كالحمقى حتى إلى الهاوية" تنهد بعمق وهو ساهم. . كئيب المحيا. . نافد الصبر "سأنتظر حتى المساء لأعرف سبب تأخرها. . إنه وقت طويل أمام فضول يغمر صدري, عرج على صاحبه "محسن" وعند الباب يقول له الخادم:

ـ سيدي محسن قد خرج مع والده قبل نصف ساعة.

جعل محمد يسأل الخادم:

ـ كيف أستطيع أن ألقاه. . إنني كلما اتصلت به يقولون إنه قد خرج, قل يا عزيزي ما الذي يحدث بالضبط!!

ينتفض الخادم في وجل, وكأن العيون تلاحقه هنا. . وهناك.

تتصاعد أنفاسه:

ـ أنا عبد مأمور يا سيدي. . لا أعرف.

تطلع محمد إلى السيارات التي تقف أمام الفيلا:

ـ وهذه السيارات لمن؟

يستغيثه الخادم:

ـ سيدي أنا خادم أفعل كما أؤمر.

يعض محمد شفتيه كأنه فهم القصد:

ـ إذن هو موجود. . لكنها أوامر. .

ينظر إليه الخادم موافقا إياه. . لعل لغة العيون هي السبيل الوحيد لانتشال الخادم من هذا المأزق.

ينصرف محمد. . ليعود إلى بيته مخذولا. . يتألم عندما يجد أمه المريضة راقدة في الفراش تصارع المرض. . تزداد حالتها سوءا يوما بعد آخر.

يقترب منها يتفقدها. . كان بجانب السرير باقة ورد وكعكة. . رمقها متسائلا فأجابته مبتسمة:

ـ لقد زارتني اليوم خالاتك, وقد بعثت لي منال باقة الورد مع هذه الكعكة, أظنها بوادر صلح يا ولدي, قد حدثت والدتها اليوم وأفضيت لها أنها رغبتي قبل أن أموت. . لا بد أن تعودا لبعضكما, فالحال لا يحتمل الطلاق. ستلد عن قريب وهي ستحتاجك أكثر من أي وقت مضى.

ينحني, يقبل كفيها متضرعا:

ـ لا أعرف كيف أقدم شكري لك يا أمي.

وتواصل حديثها:

ـ أعتقد أنها تنتظرك الآن. فقد عرفت كيف أقنع أمها. . فلا مبرر لهذا الانفصال, هذه الأيام أحتاج إلى من يعتني بي وبطعامي, وستقوم منال بهذا الواجب. . ولقد فهمت أن والدها عنفها على عنادها هذا حتى سلمت بضرورة العودة إليك, ثم إن المرأة لا سند لها في حياتها غير الزوج ولن يستطيع والدها ـ مهما حاولا ـ تعويضها عن حنان زوجها ورعايته, فالسكن الذي تنشده في صدره هو الذي يتلاءم مع فطرتها وتكوينها, لقد عرفت هذا يا ولدي عندما توفي والدك, بقيت في محنة عصيبة ولا زلت. . داهمتني الأمراض من كل ناحية لأني فقدت الحضن الدافئ واليد الحانية التي كانت تربت على كتفي عندما أشعر بالتعب.

تنهدت من الأعماق وهي تهتف في حزن:

ـ أشعر بالحنين الجارف إليه. . لقد كنت أحبه ولا زلت.

ـ أطبقت جفنيها على تذكاره. . وبكت.

ضم كفيها إليه يلثمهما بحنان وانتبه إليها, فقد سلبها النعاس وعيها, وراحت في إغفاءة كعادتها. .

انصرف إلى مكتبه ليذاكر دروسه, فهو سيتخرج هذا العام, وكان عليه أن يبذل جهدا مضاعفا.

خيم الظلام على المدينة وجاء المساء. . ذهب إلى الجريدة ليعرف السر الذي أعاق "سوزان" عن الحضور في الموعد المحدد. ما زالت العيون تترقبه أثناء المسير, الفوضى ثانية. . نقطة تفتيش تعترض طريقه. . رجال يتبعونه في ألف طور وهيئة تارة بشكل متسول وتارة أخرى بهيئة عامل تنظيف ماذا يبحثون في عينيه؟ فصدره يمتلئ حقدا دفينا عليهم. . لعل هذا الحقد له مبرراته. . فهم سلبوه حقه في الحياة الطبيعية, وزرعوا الألغام والأشواك في طريقه. . تنهد ونكس رأسه. . شعر بضيق كبير في صدره أكثر من أي وقت مضى. . إحساس بالاختناق. .

فتح النافذة. . واستنشق جرعة كبيرة من الهواء. . وصل الجريدة. . كان هناك هدوء يبعث على الريبة. . فثمة جموع بشرية يرتسم على وجوهها الوجوم والدهشة. . عندما وصل هناك. . انتبه إلى عيونهم المتسمرة. . تصوب السهام إلى صدره. . يحدقون به متهمين. . الهمس واللمز قد تصاعد في همهماتهم الغريبة.

يتساءل:

- "ماذا حصل؟ ما الذي حدث؟" يشيحون بوجوههم عنه في تبرم وضيق. يتأمله البواب الرجل المسن الذي يبرق في عينيه وميض الطيبة والإيمان. .

وعندما يئس من معرفة الموقف, قال له البواب:

- السكرتيرة سوزان ماتت منتحرة ويقولون إنك السبب وراء هذا الانتحار.

صعق من هول الصدمة. . "يا إلهي, غير معقول" اندفع إلى الأستاذ عبد الله وصدره ممتلئ قلقا وهلعا, ولفرط الذعر اصطدم بالفراش الذي يحمل فناجين القهوة, ارتعدت أوصاله. . قلبه يخفق بشدة. . وجهه قد تحول إلى قطعة من الشحوب والذبول, يكاد لا يستطيع أن يسيطر على أعصابه, قال له الأستاذ عبد الله وهو يفتعل الحزن والأسى:

- لقد انتحرت المسكينة عندما أوهمتها بالزواج.

ذهل:

- أي زواج؟! أنا لم أعدها بذلك.

قال الأستاذ:

- قد أفضت لي أمس أنها ستقابلك لإتمام إجراءات الزواج بعد أن خدعتها في رحلة موسكو, وعندما اعتذرت لها عن تحقيق الأمنية خشيت من الفضيحة فانتحرت.

يصرخ بشدة:

- غير معقول. . هذه تمثيلية ملفقة. . كذب وافتراء. . هناك من نسج كل هذا الوهم.

ويضرب بقبضة كفه على المنضدة صارخا بكل حنق, ويكاد الدم يتفجر في عروقه:

- كذب. . كذب. . افتراء. . . افتراء.

أخذ الموظفون والعاملون يتوافدون على مكتب رئيس التحرير عندما سمعوا صراخه. . ففي الأمر إثارة لكوامن نفوسهم الخبيثة فمنهم من ينتظر هذه المناسبة لتنفيس غيظه من هذا

الشاب الناجح, وعيونهم نعكس كل معاني الشماتة. وارتفع الدوي والصراخ. . بكلمات هي أشبه بسموم يبثها الفاشلون في قلوب الناجحين من الرجال: "فضيحة لجريدتنا" ويقول آخر "لا بد من فصله عن الوظيفة" يقهقه آخر بخبث: "ويوهمنا أنه صاحب المبادئ والأخلاق" كاد أن يبصق في وجوههم اللزجة التي توحي بالترف والاسترخاء البهيمي. يعنفه المدير وهو يرمي على المكتب مجموعة الصور التي التقطت لهما في موسكو بغية أن يضع الدليل في أيدي الموظفين: "وهذه الصور بماذا تفسرها؟" ويتدافعون ليروا الصور, وتتناقلهم أيديهم: "يا لها من صور خليعة"

"انظروا. . انظروا", "حرام. . حرام" ويومئ إليه أحدهم "أنت ذئب شرس تلبس ثوب الحمل الوديع"

ويمضي محمد في الدفاع عن نفسه وسط هذا الضجيج والدوي, يود لو يصم أذنيه عن سماعهم. لا أحد منهم يمنحه عذرا بسيطا أو مبررا. . لقد أخذ التعتيم الإعلامي دوره في هذا الأمر. . وملأ صدورهم حقدا, وآذانهم باطلا. . التفت إلى وجوههم البشعة. . كانت وجوه أصنام نفخت فيها روح واحدة من السذاجة والبلادة. . إلا رجلا واحدا كان يقف بعيدا وفي عينيه الكسيرتين دمعتان حارتان. . يتأمله في حنان. . هاجس الأبوة يتدفق في وجهه كأنه يصرخ أمام الملأ "مظلوم. . بريء" لكنه مكتوف اليدين. . أعزل. . قد ألجمت الحاجة شفتيه المهدلتين. . لكن عينيه سلاح ينفد في صميم القلوب المتحجرة ويفجر فيها الدم.

انتفخت أوداجه:

ـ اسمعوني. . اسمعوني. .

يعلو صراخهم بالرفض والاستنكار والسخرية.

وبشيء من الهدوء القاتل يقول الأستاذ عبد الله:

ـ عودوا إلى مكاتبكم.

ينظر إليه محمد, يحدث نفسه: "وأين الشدة والحزم, إنه إجراء روتيني. . لكنك تتمنى أن ينهالوا علي ضربا وتعذيبا".

صرخ أحد المنافقين:

ـ افصلوه ليكون عبرة لغيره.

كان رئيس التحرير قد أعد بيان الفصل سابقا ودفعه إليه

ـ هيا وقع.

ويوقع على قرار فصله.

ويولي هاربا, وهو يشق طريقا وسط جموعهم. ـ وكان يجد صعوبة بالغة في إزاحتهم عن طريقه. ـ كأنهم جثث لحمية فارغة من المحتوى والشعور, وصرخ بأعلى صوته: "أيها الناس. ـ سوزان قتلتها المخابرات عندما كادت أن تفشي لي هذا السر. ـ إنكم نائمون. ـ غافلون. ـ الاستعمار يسلب خيراتكم ونعمكم. ـ جريدتكم هذه ليست إلا منبرا أجيرا للعملاء. ـ لقد كشفت سرهم هذا وجندوا لي عملية لاستدراجي إلى طريق الهاوية, وعندما تابت ـ بعون الله ـ إلى رشدها قتلوها. ـ اسمعوا أيها الناس, إنكم تحت قيادة حمقى يديرون مصائركم بما يتفق مع مصالحهم, فلا تكونوا همجا رعاعا. ـ استيقظوا من الغفلة, لا يخدعكم التعتيم الإعلامي. ـ إنما هي مسرحية رتبها هؤلاء الأوغاد لقتلي, ولكنهم قتلوني بشرفي وكرامتي وعزتي, وجعلوني حيا أتعذب. ـ لم يسفكوا دمي حتى لا أكون في تاريخ الرجال بطلا.

يصرخ الأستاذ عبد الله: "اخرس أيها المجنون. ـ اخرس"

ويمضي محمد في حدة وثقة.

"نعم أنا مجنون, وتلك هي نهاية هذه المسرحية حتى تسلبوا تأثيري على الناس وتجدوا طريقا للخلاص من هذه الأكذوبة".

وينتبه إلى مجموعة من الرجال الغرباء يدخلون المكتب ينهالون عليه بالضرب. تسمر الحاضرون في أماكنهم. ـ وحاول بعضهم فض الاشتباك. ـ تفجر هاجس في أعماقهم الميتة أن في الظلمة الغائرة البعيدة سرا عميقا. . .

لم يتمالك البواب المسكين نفسه, بكى وهو يحاول إنقاذ محمد بذراعيه المرتعشتين:

ـ حرام عليكم. ـ اتركوه. ـ اتركوه.

ويأمرهم الأستاذ عبد الله أن يتركوه. ـ بعد أن أصبح جثة هامدة تتنفس بلهاث سريع ودم غزير يسيل من فمه. ـ أغمي عليه.

عاد الموظفون إلى مكاتبهم ودهشة مروعة سلبتهم القدرة على استئناف العمل, بقي الأستاذ عبد الله في حالته من الفوضى والارتباك. ـ لقد كانت خطة فاشلة أمام بطل يتحدى الحياة من أجل مبادئه.

عندما أفاق من الإغماء سقاه البواب كوبا من الماء. . وقاده إلى الطابق الأسفل حيث غرفته المتواضعة, رقد على الفراش مكدودا, واهنا. . مرهقا. . مسح الدم عن شفتيه ثم غسل وجهه بماء دافئ.

ـ أنت بريء يا ولدي. . أعرف ذلك.

كان محمد في شبه إغفاءة, لكن لفرط الأسى انفجرت الدموع في عينيه وامتزجت مع دمه, وفي حشرجات غير واضحة يتمتم: "لقد قتلت سوزان. . قتلوها يا عم قتلوها".

يبكي الرجل المسن بأسى:

ـ الله ينتقم من الظالم. . الله ينتقم.

يصرخ محمد وهو يمسك رأسه:

ـ أحس بدوار في رأسي آه. . الألم. . ألم فظيع في رأسي.

ويناوله البواب دواء مهدئا حتى راح في سبات عميق.

----

(12)

لست متهما

انتشرت هذه الفضيحة بين الناس انتشار النار في الهشيم, وأصبح كل فرد حاطب ليل لا يعرف الأخضر من اليابس, وقد سرى إلى البعض أنه قتلها بعد اغتصاب. . وأصبح في كليته موضع تحقير ونفور, ولم يبق من أصحابه سوى أفراد ثلاثة عندما يتحدث إليهم يتصارع الشك والريبة في قلوبهم. . كتبت الصحف هذا الخبر تحت عنوان "فضيحة طالب جامعي", وأضافوا إليها المزيد من الرتوش لتكتمل القصة في حبكة أدبية تقنع القارئ وتسلب استعداده لتقبل الحقيقة, ضاق صدره وهزل عوده, فالاتصالات الهاتفية المتلاحقة قد أسرعت في نقل التقارير الكاملة عن حياته فلم يعد هناك مفر من الهروب ناهيك عن زوجته التي كادت أن تميل إلى العودة بيد أن طائفا من هذا الشيطان قد مسها كما مس أهل المدينة فصممت على الطلاق, لا سيما أهلها الذين قطعوا اتصالهم به. . فكلما حاول الاتصال ببيت خالته, يصفقون الهاتف في وجهه. . ضاقت به الدنيا بما رحبت, لم يبق أمامه سوى أمه التي أصبحت شبح إنسان يشتد ضعفها يوما بعد آخر ويزداد أنينها وبكاؤها لفرط الألم, لا تعرف ماذا هناك, لكنها تتساءل: لماذا قطعتها أخواتها ومنال التي وعدتها بالعودة إلى البيت. . جراح الوحدة. . والشوق الذي يقوى مع الأيام فهناك ذراعا زوجها تناديانها من بعيد: "هيا أقبلي" كان كلما يقبل عليها هذا الطيف يشتد ألمها. . ويشتد ألم محمد الذي أفرط في البكاء كأنه يستغيث بها: "لا تتركيني يا أمي. . فأن سياط الساعة لا ترحم" تحاشى الحديث معها هذه الليلة فهو متخم بالهموم وهي ستكتشف في عينيه كل أسراره, جلس على مكتبه ليكتب رسالته الأخيرة لصديقه "علي" المتنفس الوحيد الذي بقى له في هذه الدنيا. يخبره أن لا ضرورة للكتابة إليه فهو لا يعرف ما يكون مصيره. . وليس هناك من يستلم الرسائل, ثم وجد أنه من الضرورة إشعار فاطمة بحالة والدتها الصحية التي تسوء يوما بعد آخر. . وختم الرسالة. أعباء كثيرة على كتفيه. . وضع رأسه بين كفيه يتأمل ذاته المطعونة بألف سكين صوبها هؤلاء للتشهير به. . الحمد لله الذي منحه القدرة على التماسك كأن هاتفا روحيا يناديه من الأعماق: "تذكر محمدا نبي الأمة. . تذكر نوحا. . تذكر إبراهيم. . هؤلاء صنعوا التاريخ بدمائهم وأنفاسهم وحبات الندى المتلألئة على جباههم" فتح القرآن الكريم ليقرأ بعينين متضرعتين خاشعتين, تساقط الدمع الغزير منهما "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا * المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا".

شعر بارتياح شديد. كأن ماء رقراقا قد سال على جرح تغور فيه الدماء الحارقة, تنفس الصعداء وهو يفكر ساهم الطرف, الله عز وجل منحه الآن جرعة ندية تلطف جفاف حياته: "لا تكترث بحال الدنيا, فلقد أعددت لك الخير والنعيم, الناس هنا يحاكمون أنفاسك إن كانت جوفا أو حقا, لكني سأهبك الجزاء الأوفى فيما بعد".

فتح النافذة. . واستنشق جرعة كبيرة من الهواء, يتأمل الدور الساكنة. . الظلام يخيم على هذه المدينة الصامتة. . الناس في هذه البيوت يتحدثون الآن عنه ويصورونه وحشا كاسرا ثم يهرعون إلى مراقدهم وهم يجترون بقايا حكاياتهم لتتحول إلى قصص وأساطير, كما نسمع في حكايات ألف ليلة وليلة, يجلسون حول الموائد والمواقد الدافئة يتسامرون, يتمازحون,. . على حساب ألف مسكين, بائس يعيش على فتاتهم. العذاب للمظلوم حياة يعيشها حتى رمقه الأخير. . وكان لا بد أن تصنع هذه الحياة حتى يتسلى هؤلاء بعذابات الأشقياء الذين يبحثون عن بسمة وهمية تزين شفاههم اليابسة. . انفجر الحزن في دمه. . بقوة طاغية. . فشرع يهتف في حشرجات تتراقص في صدره اللاهث وهو يحدق في مساء المدينة. .

المساء الكئيب يكتم في تلك المدينة

ويبيت تحت أجنحة الصمت. رعاع. .

لقد انتهى زمن الحركة ودخلوا كهوف الضياع

الشاطئ المخمور يتنفس بحدة

بعد أن عانقت أمواجه ضفائر الظلام

وهناك تطاول الأفق الثكلان.

لم يبق فيها دهليز واحد من النور

كانت مترامية كأغطية السحاب

وقد تصاعدت من بين جنباتها ألحان غريبة

اللحن القديم. . اليوم المسكين

وقد ترك شرابه وزاده

محموما بشظايا النكبة

وراح يترنم بألحان الموت

فكانت أغطية السحاب والهتاف المحزون في عناق

ما زالت الهمسات الجريحة تتكسر على أعواد الأشباح

وتفر الأرواح الطاهرة من أعشاشها الفقيرة.

إنها حشرجات مسامع الأبرياء

وتتطاير هذه الكائنات الغريبة

في ذلك الفضاء الممتد

وكأنها في رحلة المجهول

ولكن سرعان ما تتلاشى الأمواج

وتعود أسراب الطيور على جناح الزمن.

انفجر باكيا بحرقة. . كأنه طفل صغير, ويضرب بقبضة يده على حافة النافذة لفرط الأسى, واشتد لهاثه مع هذا النزف, ثم حدق في النجوم المتلألئة في السماء طويلا وهو يرتعد "لعلي سأسكن هناك. . هناك قبور الأرواح الظاهرة إن أبي يتعذب. . أجل, لقد رأيته في منامي ليلة أمس. . عانقني باكيا. . إنني أرى وجهه الآن في صفحة السماء بيتنا هالة من نور تجتذب ناظريه. . يرمقني ويهتف "اصبر يا ولدي فالفوز قريب" انتفض من هذا الخاطر "لقد كان أشبه بحلم" لكنه حلم جريح لأنه بقايا أمنيات. عاد إلى فراشه بعد أن أعياه التعب ومضى يذاكر وهو راقد على سريره حتى استسلم للنعاس.

وفي الصباح وجد صعوبة بالغة في النهوض. . حدق بالسقف طويلا ثم تثاءب في تثاقل, يتمطى في ضيق شديد. . كأنه قضى ليله يحمل أثقالا كبيرة, تناهى إلى سمعه صوت أمه تناديه بوهن كسير: "محمد. . انهض" هم ليراها. . بدت هزيلة أكثر من الأمس تئن: "متى تعود زوجتك؟ ستلد عن قريب. . أريد أن أرى طفلك قبل أن أموت." لا يعرف ما يقول لها, بقي صامتا, لعل الصمت هو اللغة الوحيدة التي تمكنه من الخلاص عند كل مأزق. . قبلها على رأسها ثم انصرف بعد أن غير ثيابه. . شفتاه يابستان, وقد بدأت بعض الشعيرات البيض تتناثر على فودية وثمة تجاعيد تبدو بارزة يعبس أو يفتعل الضحك, ولم يأبه هذه المرة لأولئك المارة الذين يتساءلون بفضول عن سر حكايته. . علامات الدهشة ترتسم على وجوههم الباهتة لكنه

كان يتحدى وبعنف كل هؤلاء, فهو يمارس حياته الطبيعية, انتهى به المطاف عند باب الكلية, اشتد حزنه كلما لمع في عيون أصحابه بريق الأسى. . أشهر قلائل ويفارق هذا المكان والأحرى به الآن مضاعفة جهده في المذاكرة, لكن الأفكار المتضاربة تتصارع في ذاكرته تارة يحوم في صراعه الأخير مع زوجته وعنادها, وتارة أخرى المستقبل المجهول الذي يتربص به, ليس أمامه سوى الانتظار ولكن بعيدا عن زحمة الحياة لئلا تتصيد الأصابع المتسترة سقطاته, أطبق الكتاب ونهض في ضجر. . لقد انكسرت كل أحلامه الآن. . . لا بد أن يغض طرفه عن هذه الأوهام التي ما لبث أن انهارت في مقتبل حياته, قادته أقدامه الثابتة نحو مكتب أستاذ العلوم السياسية, لعله يصغي إلى حكايته ويفهم ذلك المثل الذي يعيشه, كان الأستاذ سالم منكبا على مراجعة كتاب بين يديه, وعندما أقبل عليه محمد, رفع عينيه:

ـ أهلا بك يا محمد.

أطرق محمد وهو يبذل جهدا كبيرا في التفكير ثم أومأ إلى الكتاب الذي سرعان ما وقعت عيناه على عنوانه:

ـ "الحرب النفسية" التي درسنا أساليبها العام الماضي, أتذكر يا أستاذ كيف قلت لنا إنها هجوم دعائي مبرمج في الغالب يهدف إلى التأثير على نفسيات وعقول الأفراد والجماعات كي تتعرض للتفكك والوهن والاضطراب حتى تتوجه إلى الأهداف التي يسعى صاحب المصلحة في تخطيطها؟

أجاب الأستاذ: "نعم"

ومضى محمد يقول:

ـ الشائعة التي أثيرت ضدي في صفوف الناس, خصوصا طلاب الجامعة كانت مثالا لما درسناه.

صمت أستاذه وعيناه تتأملان محمدا بحزن عميق فقال بتؤدة:

ـ أعرف كل هذا يا ولدي فأنا أستاذك الذي عرفك خلال أربع سنوات.

تنهد ثم توقف, ضرب كفا بأخرى: "ليس بيدي أي حيلة. . نحن مقيدون. . كما تعرف, فأنا أستاذ منتدب هنا من جامعة القاهرة لا أستطيع أن أفعل لك شيئا".

كاد محمد أن ينفجر, ثم ثار في عنف:

ـ لكنني لن أهدأ وسأعرف كيف آخذ حقي وحقوق غيري, فأنا نموذج من آلاف النماذج التي تسحق ظلما.

ارتعد الأستاذ ووجهه تعلوه حمرة وصفرة.

ـ اصمت. ـ اصمت. ـ أخشى أن سمعنا أحد.

وثب محمد من مكانه يتمتم بغضب: "كل الذي ندرسه مجرد أوهام" وفي طريقه التقى "عادل" كأنهما غريبان. ـ نظرا إلى بعضهما بحزن مكتوم. ـ كأنه يريد أن يقول شيئا. ـ لعله يتساءل كيف ساقتهما الأقدار بعد الخصومة إلى شبحين. ـ ما الذي حدث لنا؟! لعل الخصومة كانت ضبابا يغشى قلبيهما, فهرب عادل وهو يلمح الأنين في عيني غريمه الذي كان لآخر لحظة يأبى أن يخاصمه.

كان محمد يفتش في هذه اللحظات عن خطة يفجر فيها هذه الصمت الكامن في النفوس الهامدة, عيناه ساهمتان, تدور في رأسه شتى الخواطر, وسرعان ما خطرت في ذاكرته نكسة حزيران, لعلهم سيعرفون الحقيقة فيما بعد. ـ وسائل الإعلام قد أساءت كثيرا طيلة حرب حزيران عام 1967 حين كانت تصور للجماهير أن سير المعارك في سيناء والجولان والضفة الغربية يجري لصالح العرب, ولكن سرعان ما فوجئت الجماهير بإعلان دول المواجهة عن خسارتها الشاملة في الحرب, مما أدى إلى انتكاسة نفسية حادة في صفوف الأمة. قهقه بعمق, مما أثار انتباه الطلاب المارين, فجعل البعض يهزأ "على عقله العفاء" ثم تجمهروا حوله يتحدث إليهم قائلا بغضب: "لا بد أن تفهموا. ـ عشرات الطلاب الآن هم رهن الاعتقال. ـ أنتم الآن في أرض وهمية معلقة ليس لها أرض أو سماء. ـ أنا لست لصا أو محتالا كما تبثه الإشاعات المزيفة, إنما لأني واجهتهم بحبي لأرضي ووطني ومبادئي سلاحا أصوبه إلى صدورهم, عرفوني مستيقظا, وعندما وجدوا صعوبة في اقتلاع جذوري أوهموكم أنني شجرة ملعونة لا تبث إلا السموم, استخدموا لقتل مبادئي سلاح الغريزة حتى أتخلى عن تلك القمم الشماء وأسقط في هاوية الشهوات. ـ أرادوا قتل عقلي وإحياء غريزتي حتى أكون بهيمة" ثم تغيرت نبرته وهو يضحك, يتفجر فيه الضحك ويمضي قائلا: "بهيمة تأكل وتشرب وتنام. ـ كلنا بهائم. ـ همج رعاع ننعق مع كل ناعق" كان جمهور عريض من الطلبة يستمعون إليه وكأن على رؤوسهم الطير. ـ ماذا حدث له: وسرعان ما انتشرت في صفوف الطلبة إشاعة سريعة "مجنون" لقد جن لهول الصدمة. ـ حتى أيقنوا بجنونه وكانوا حوله كالمتفرج ينصت إلى مهرج. ـ ومضى يتمادى في كشف كل الأسرار التي اختبأت في صدره. ـ أمر رهيب حدث في ساحة الكلية لكن هذا الاضطراب كان هو الرسالة الأخيرة التي يحملها ذلك الشاب إلى أصحابه. ـ شق صفوف الطلبة رجلان يلبسان ثيابا بيضاء, قد جاءهما نبأ موقوت: "هيا. ـ ابتعدوا, فهذا الشاب مجنون" ألبساه عنوة القميص الأبيض الذي يحبس مقاومته وهو يصرخ: "انظروا. ـ

هذا هو المشهد الأخير, اتهموني بالجنون. . . آه. . أنتم المجانين أنتم المجانين"هم أصحابه ليضربوا الرجلين, وحدث اشتباك بين المؤيدين والمعارضين وصراخ عنيف "هذا ظلم لن نسمح به. . "بكت الطالبات وهن في طريقهن هاربات.

وهنا تدخلت الشرطة لتفض هذا النزاع وإذا بالأرض قد غطتها كتب ممزقة وأوراق متناثرة وأقلام سقطت من جيوب البعض وبقع دماء. . انتبهوا إلى صوت محمد ينادي كالطير الذبيح تطبق عليه النسور الجارحة: "استيقظوا. . استيقظوا من الغفلة" انتبهوا بعد صمت رهيب إلى محمد وقد غاب عن عيونهم. . . دمعت عيونهم. . لا أحد يعرف هل هذه عاطفة إشفاق أم هي ردة فعل طبيعية, قد نزف من فمه عندما لكمه أحد الرجلين وهو يقاومهما. . خرج الطلاب من دور المحاضرات, سادهم هدوء مريب وغمامة حزن عميقة خلفتها العاصفة التي أثارها البطل. . كان الأستاذ سالم يقف في الدور العلوي من مبنى الكلية يحدق به من بعيد وعيناه تذرفان الدموع, فلم يطق حضور محاضراته اليوم. . اعتذر وعاد أغلب الطلبة إلى بيوتهم. . يتحدثون بذهول عن هذا الأمر. . تحولت السخرية إلى عاطفة حادة تجيش في قلوب مضطربة. . كان أحدهم يضرب كفا بأخرى يتمتم بصوت كالبكاء. . "لا بد أن نفعل شيئا فهو زميلنا على أي حال", الحيرة ملكت عليهم عقولهم فلم تعد قادرة على التفكير أو التركيز. . أقصى ما فعلوه كان رفضهم مواصلة يومهم الدراسي, لكن هذا الموقف كان حديث الساعة في أرجاء المدينة.

والمستشفى الذي دفعوه إليه قسرا هو غطاء لذلك المعتقل الموعود. . فهو الآن في زنزانة صغيرة وحده, يسمع الأنات وسياط التعذيب تلهب ظهور الأبرياء. دمعت عيناه. ألقى رأسه بين ركبتيه, يفكر في أمه التي تنتظره الآن, لقد سحبوه إلى ذلك المكان دون رحمة. . صرخ: "دعوني أتحدث إلى أمي قبل أن أسجن" لكنهم رفضوا أمنيته هذه..

أحد أصدقاءه توجه إلى بيته, طرق باب المنزل, فلا بد أن تعلم أمه بحقيقة الأمر حتى لا يقتلها الانتظار. . نهضت بصعوبة وهي تخطو خطواتها الثقيلة ففتحت الباب. . كان الشاب حائرا, مضطربا, يلتفت يمينا ويسارا خشية أن يتعقبه أحد, ابتلع ريقه. . لا يستطيع أن يمهد فهو الآن هارب عن الأنظار. . الفزع واضح من لهاثه. . شعرت الأم بخطورة الأمر, أصابها الروع:

ـ هل حدث مكروه لمحمد؟

تلعثم الشاب

وقال:

ـ إن محمدا في المستشفى يا خالة.

شهقت بقوة كأن ثقلا كبيرا سقط على رأسها لهول الصدمة, أغمي عليها. . اشتد اضطراب الشاب. . ارتجف وهو يقلبها:

- "خالة. . خالة" يا إلهي. . لعلها ماتت. . ماذا يفعل؟! انتبه إلى التلفون كانت الحرارة مقطوعة. . خرج ليتصل بالمستشفى من محل البقال المجاور ولكنه قبل أن يضع يديه على الهاتف سحبه رجلان وأدخلاه السيارة. . فصرخ وهو يقصد إسماع البقال: "المرأة العجوز مريضة. . مريضة جدا", انتبه البقال وهو يقلب أفكاره من هي المرأة العجوز؟! كأنه فهم "لا بد أنها أم محمد, المرأة الطيبة أم الولد الطيب" كان الباب مفتوحا. . اندفع إلى الداخل, ليلتفت إلى جثة "أم محمد" ملقاة على الأرض جلس وهو يهتف: "خالة. . خالة" أمسك ذراعها يجس نبضها. . صعق لقد تحول جسدها إلى جثة لا حراك فيها. فارقت الحياة, سلمت الروح إلى بارئها بعد صراع مرير مع مرضها المميت, بكى الرجل وراح وهو يطرق أبواب الجيران طلبا للمساعدة لكنهم يخشون الاقتراب من هذا البيت المشبوه.. فتظاهروا بالانشغال. . وقدموا له آلاف التبريرات, إنه لا يعرف من هم أقاربها لكن واجبه يحتم عليه أن يقوم بمراسيم الدفن, فاستدعى زوجته لتساعده في القيام بهذه المهمة, ولم تعرف أخواتها بنبأ وفاتها إلا بعد فوات الأوان.

انطفأت آخر شمعة في هذا البيت العتيق الذي غدا مرتعا لأشباح الأحزان, وغابت عنه أنفاس طالما لهث خوفا واضطرابا. . لم يبق سوى ذكريات. . أسرة مزقها الأنين. . سنوات طوالا. . واستأجرت البيت أسرة جديدة فقد أصبح في حوزة المالك بعدما لاحظ غياب أمارات الحياة في هذا البيت.

لكن الحياة ستستمر في البيت الآخر, الذي ولد فيه ابن هو امتداد لهذا الرجل. . طفل علت صرخاته أرجاء البيت تعانق في الفضاء صرخات أبيه المعذبة المنطلقة من السجن. . مولود شقي لا يعرف أن له أبا بطلا, ستروى له القصص المزيفة, والأساطير التي يرددها الناس. . الصحف نشرت أن محمدا في مستشفى المجانين وليتها كتبت الحقيقة, بل إنه في معاقل الأبطال, سيرقص طفله على ألسنة النار واللهب التي أحرقت قلب أبيه. .

كان محمد يترقب لحظات الولادة في خياله, ويعرف أن خفقاته اللاهثة الآن معناها نداء طفله الوليد في عتاب حزين.. أين ذراعاك لتحملاني إلى حضنك لماذا تتركني وحيدا وكل الأطفال يولدون تحت كنف آباءهم؟. كانت أمه ضائعة الحال. . هدها الحزن وبدت شاحبة, الهالات السود تحيط عينيها, ولقد تخلصت الآن من العبء الثقيل الذي كانت تحمله في أحشائها شهورا

طويلة, أقعدها عن الحركة. . يصرخ الطفل كثيرا ويبكي بانزعاج كبير. . فهتفت أمه في غيظ: "أنت متعب كأبيك" وتحمله على ذراعيها متبرمة. . . "ارحمني يا حسن. . ارحمني يا ولدي".

التعذيب يشتد يوما بعد آخر, لكن لوعة النفس لا تبرح أن تنتزع محمدا من هدوئه, الأخبار منقطعة عنه, كان كثيرا ما يدعو ربه أن يحفظ أمه وأن يلد طفله في بحبوحة من الحماية والأمان.

كان الشباب يصرخون في السجون: "الله أكبر. . الله أكبر" يهتفون هتافا واحدا رغم كل محاولات القمع والاضطهاد, وكلما سمعوا بطلا يتأوه من الألم ينادون: " اثبت فإن الله معنا" وعيونهم تترقب كل بريء جديد يقاد إلى المعتقل, فيرحب به إخوته أشد ترحيب وفي نهم يسألون: "ما الأخبار؟"

ومن ضمن المتهمين بالشغب أحد أصدقاء محمد, كان السجان يقود محمدا في طريقه إلى التحقيق وعندما لمح صاحبه أحمد سأله في شوق ولهفة "أحمد ما أخبار أمي؟"

شده السجان بقوة غاضبة فصرخ صاحبه: "والدتك ماتت, وولدت لك زوجتك صبيا أسمته حسنا"

صمت محمد في حزن كبير لا يعرف ماذا يصنع, هل للفرحة معنى الآن؟ لعلها ماتت عندما عرفت الحقيقة. . أجل قلبي يحدثني أنها قتلت ظلما وحسرة. . مسح طرفه. . انتبه إلى رجل ضخم الجثة يذكره بهيئة الأستاذ عبد الله صاحب الدهاء والمكر, يضرب بسوطه على المنضدة, يدخن سيجارته بعنف.

ـ ها يا محمد. . هل أنت مصر على صمتك؟

وبعنف يجيبه محمد:

ـ أنا لم أصمت ولكني أرفض الحوار مع الأبقار.

يضربه الرجل بالسوط على ظهره, يتماسك. . يعض شفتيه, يحمر وجهه حتى تنتفخ أوداجه. .

يسأله المحقق ثانية:

ـ من هم أصحابك في هذا الحزب؟

يقهقه والغضب يتطاير شررا من عينيه:

ـ نحن لسنا في حزب كما تزعم. . فأنتم تقودون عابر السبيل إلى المقصلة دون ذنب ودون حساب.

يلكمه الرجل على وجهه في غيظ:

ـ "قلت لك تأدب عندما تتحدث معي"

يصمت محمد.

ينادي الرجل:

خذوه. . خذوه. .

وينقض عليه رجال أقوياء. . كأنهم الشياطين, ذئاب بشرية أعدت لهذا الغرض. فينهالون عليه ضربا ولكما وبصقا وركلا بالأقدام حتى يسقط مغشيا عليه, وعندما يفيق يعرض للتحقيق ثانية حتى يفقدوا صوابهم لفرط ثباته وصموده, وينقل إلى زنزانته أمام المعتقلين ليزدادوا فزعا وخوفا لكنهم يهتفون بأعلى أصواتهم:

ـ "الله أكبر. . الله أكبر"

ويرددون الشعارات التي ترعب قلوب هؤلاء السماسرة.

الحيرة تأخذ ألبابهم, فماذا يفعلون لهم, إذ أنهم يزدادون قوة وبطولة كلما أذقناهم عذابا هكذا كان يقول المحقق الخبير العميل صاحب الوجه الأحمر والشعر الأشقر, وفي لكنة إنكليزية يشير:

ـ "الإغراء. . امنحوهم كل ما يريدون, لعلها الوسيلة الناجحة لامتصاص تقمتهم."

خرج "مستر روبرت" بعد أن أطفأ السيجار, يصفق الباب وراءه, وعلى وجهه ترتسم ابتسامه صفراء.

في هذه الفترة حاول "محسن" مساعدة صاحبه محمد ليخرج من سجنه, إذ أثار هذه الفكرة في نفس أبيه:

ـ إنه صاحبي يا أبي وتستطيع أن تتحدث إلى بعض المسؤولين ليفكوا عنه هذا الحصار.

يقول الوالد بغضب:

ـ "هو الذي ورط نفسه في هذا المأزق"

يصرخ محسن:

ـ دعه يتقدم للامتحان هذا الشهر ففيه تحديد مصيره النهائي.

ـ اصمت. . اصمت. . لا تتحدث معي في هذا الموضوع, صاحبك هذا قائد عملية تخريبية داخل البلد, يخلق الاضطرابات والمشاكل لنا, فلماذا تريدني أن أدافع عنه؟ إنني أخشى على مركزي".

يصرخ محسن:

ـ "لكنه بريء. . بريء يا والدي".

يلطمه والده في غيظ:

ـ نحن في ظروف صعبة, والخير أن نبتعد عن كل ما يثير النقمة علينا.

فشلت كل المحاولات

ومضت شهور طويلة, ذاق فيها محمد شتى أنواع التعذيب والمرارة, فاشتد هزاله, ونحف وجهه وتحول إلى شبح إنسان, قدماه متورمان, فهو يزحف زحفا ثقيلا, وتناثرت البقع الزرقاء الداكنة على أنحاء جسده, عيناه متعبتان. . لا تبصران بوضوح, يحس بثقلهما على وجهه المرهق المتورم, يود لو تبتر أجزاء من جسده لعله يخفف عنه هذا العبء الثقيل الذي لا يعرف كيف يتخلص منه. . . الزنزانة مظلمة حالكة السواد, ليس فيها سوى بقعة صغيرة يعتقد أنها نافذة. . أرض رطبة يطفح فيها الماء النتن. . حشرات تلاحق بدنه هنا وهناك. . رائحة العفونة تفوح منها, آثار جافة من الدماء تعود إلى سنوات بعيدة حتى تحول لونها إلى السواد. . فهو ينام على هذه الأرض التي يبلغ طولها المتر وعرضها المتر ولفرط انحنائه احدودب ظهره بعض الشيء. . تشققت شفتاه. . ومزقت الحشرات وجهه الشاحب, أصبح مرعبا ولحيته الكثيفة قد غطت نصف وجهه, كان يتقيأ كلما امتلأت رئتاه بهذه الروائح, ويصيبه, المغص الشديد والآلام في بطنه فيصرخ "النجدة. . النجدة" لا أحد يعيره أدنى التفاتة, فيسقط خائر القوى. .

التقى "مستر روبرت" المحقق الذي بدا متذمرا:

- "لا فائدة منه, عرضنا عليه المناصب والجاه والمال لكنه رفض"

ينفث "مستر روبرت" السيجار في تأمل خبيث, ثم استطرد:

- "اجتثوا جذوره"

برقت عينا المحقق بوميض الدهشة: "نقتله؟"

- لا

- ما نفعل له الآن؟

- أخرجوه من هذا البلد, قتله يحوله إلى بطل في أذهان الشباب, رحيله معناه يأسه من تحقيق ذاته. . الهجرة إلى بلد آخر تقتل طموحه. . . هكذا سيفهم الناس.

غادر "مستر روبرت" المكتب بعد أن أصدر هذا القرار.

وما هي إلا قلائل. . وكان محمد قد استرد بعض أنفاس ادخروها له لكي يستعين بها على الرحيل حتى أعدوا جواز السفر الخاص به.

قال المحقق:

- ستسافر الآن إلى تركيا. . فقد سحبنا منك جنسيتك.

يصرخ:

- لا. . لا أريد. . أريد أن أموت هنا. . ليفهم العالم أن هذه المهزلة تتكرر كل يوم.

كان المحقق قد أعد كل الأوراق اللازمة لهذا الغرض وعند انتصاف الليل أخذته سيارة خاصة بالسجون, وضعوا قيدا في معصميه فآلمه ثقل الحديد. . يداه نحيفتان لا تحتملان هذه القيود. . ولحمه يتآكل. . إنه متعب. . يصرخ في مقاومة:

- "لا أريد الرحيل. . لا أريد الحيل. . سأفضحكم. . سأعلنها عليكم حربا لا تنتهي"

اتكأ على المقعد, يتنهد بصعوبة, الدنيا تضيق به. . يتأمل سبحانه يتمتم له:

- أنت سجين نفسك يا صاحبي لأنك كالورق يصنعون منك كل شيء وأنت لا تقدر أن تصنع لنفسك شيئا.

كأن السجان جدار أصم فلم تمس هذه الكلمات شغاف قلبه, ثم أشاح بوجهه عنه ليلتفت إلى المحقق:

- إني أرثي لساعة ميلادك لعل البوم النحس قد زغرد لك عندما ولدك رحم أمك الشقي.

كان المحقق يحدث نفسه: "ما يقول هذا المجنون لعله يهذي"

يتنهد محمد وفي عينيه الغائرتين لحن كبير. . ولمعة شقاء أبدية:

ـ "إيه يا عالمي المجنون, كم ترتكب باسم الجنون حماقات"

ثم يسأل المحقق دون أن ينتظر إجابة: "لماذا فرضتم على الرحيل ليلا؟!"

يكلمه المحقق:

ـ اخرس أيها الأحمق.

يتمتم محمد:

ـ "الليل البهيم هو الغطاء الساتر لكل الجرائم والمصائب"

ويبتسم في سخرية: "وماذا ستكتبون في الصحف صباح غد؟ سافر في نزهه." يقهقه مقهورا حتى ذرفت عيناه الدموع الغزيرة.

يبدو أن السيارة قد توقفت في المطار وهناك تمت الإجراءات في تعتيم كبير وفي حالة من التكتم, وحتى لا يثيروا دهشة الناس, نزعوا من معصميه القيود, كان الناس يحدقون به باستنكار: "مجرم. . لعنة الله", يهمس آخر: "لعله قاتل, أو لص محتال".

ما زال التعذيب النفسي يطارده, حتى في الوداع الأخير لأرضه, كان الأطفال يقتربون ناحيته يشيرون إليه بخوف: "ماما. . حرامي. . " تشد الأم طفلها من ذراعه بقرف: "ابتعد عنه يا ولدي أعفانا الله من هؤلاء" وتقهقه طفله أخرى تومئ إلى لحيته الكثيفة: "انظروا. . انظروا".

كان محط سخريتهم وشماتتهم, فتلك خطة مدبرة لانتزاع الاعتراف من عامة الناس على أنه مجرم, وقد حرصوا على بث هذا الإيحاء, ملابسه المهلهلة الرثة, ذقنه, وجهه, هكذا يفهم الناس اللغة التي نشأوا عليها منذ نعومة أظفارهم.

أصابه المغص ثانية والرغبة في القيء. . وجعل يتلوى من الألم ووجهه يزداد صفرة. انتبه إلى صراخ طفل رضيع تحمله أمه على ذراعيها فهتف بأسى عميق: "حسن. . حسن" أمل باهت جسد في مخيلته صورة طفله الذي ولد في غابة الحرمان, بكى. . ترمقه امرأة عجوز: "لا فائدة من الندم الآن" وترد عليها أخرى: "يفعل جريمته ويبكي".

يكاد أن ينفجر فهم لا يعرفون سره. . سر بكائه, وألمه, هل أصبح المؤمن ظالما مسحوق الكرامة في نفوسهم. . يود لو يصرخ بأعلى صوته, لكنه خائر القوى منهوك الجسد ثقيل

الخطى. . الحرمان انتزع كل حيويته فقد القدرة على التركيز, مشتت, واهن الروح. . شده المحقق من ذراعه ليأخذه ضابط الأمن في المطار إلى الطائرة.

كأنه كبش الفداء يسوقه صاحبه إلى المذبحة, وهذا الكبش ينازع هذا المصير يلتصق بمخالبه. . بحوافره, على الأرض حتى يشكل قوة دافعة ضد قوة مالكه الذي أعد له خنجرا ليذبحه. . يصرخ. . ينادي. . اتركني. . دعني وشأني. . لكنه يستسلم أخيرا للذبح.

حاول محمد أن يتشبث بانتمائه لكن الكف الغليظة انتزعته من هذا الانتماء. . قهرا. . ووجد نفسه أمام المضيفة تهمس بلطف روتيني مشيرة إلى مقعد خاص به: "تفضل اجلس هنا" رمى بثقله على المقعد, التفت إلى المقاعد التي امتلأت بالمسافرين, يبدو أنه آخر الركاب. . أوشكت الطائرة على الإقلاع. . تستجمع طاقتها وتحرق وقودها لتطير بعيدا عن أرض الوطن. . رحلة إلى الأبد. . انطلقت مرتفعة نحو السماء. . وما لبثت أن دمعت عيناه, وهو يتذكر مراتع طفولته وصباه. . وأمه. . وأصحابه. . بيته. . كل ذكرياته. . تركها هنا. . مع هذا النزف المتفجر في قلبه.. يتأمل الفضاء الرحب. . وظلمته حجبت عنه الحياة. . فتمتم بشرود وعيناه مشدودتان إلى ذلك الليل البهيم. .

"الظلام الكئيب ينسج وحشة. .

على هذا الشاطئ الناعس

ولم يعد من الأمواج الناعمة

غير الذهول أمام الشتاء المريض

إنها تبدو وكأنها شاردة

من شبح الصمت

وقد راع هذا الغروب. . الهروب

ذلك الإنسان الجامد

إنه لا يجد مرفأ لهذا الشرود.

وهو ينساب في القنوات

كما تنساب دموعه الجافة على أعقاب المأساة

لم يكن غيره على ذلك المعبر المسكين

وكأنه تزوج الألم

فانسل من هذا الشباب المقطوب

واستدار. .

ورفع يديه المرتعشتين. . الضارعتين

إلى السماء الخريفية الحزينة

أمام التمثال الغريب. .

وهو يردد نغمات الوطن السليب

وأناشيد الشاطئ المقبور

بالأوساخ والآلام. .

فخذي يا حمائم السلام. . .

سلامي. . إلى وطني الحبيب. . . "

خر باكيا. . وشفتاه تترنمان بندى هذه النفحات الحزينة . . وأشاح بوجهه عن النافذة. . . تاركا ظلام المدينة الذي اختفى وراء الغيوم. . وجفناه النديان يرمقان الأحباب في وداع الرحيل.

----

(13)

سيدة البانسيون

استيقظ محمد عندما توقفت الطائرة في مطار أنقرة, جعل الركاب يتراصون في صف واحد استعداد للنزول, وكان لشدة الإرهاق آثر المغادرة من الطائرة بعد أن انتهى باقي المسافرين من حمل أمتعتهم والنزول بها إلى المطار. لأول مرة يرى وجوها غريبة, أصناف من البشر لا أحد يلقى اهتماما للآخر, كل منصرف إلى غايته, حالة من السكون تسيطر على قلبه. . لكن حقيقة مرة تدور في مخيلته, غربته, وحدته في مكان لا يعرف فيه أحدا. . بيد أنه يطمئن نفسه فالله سبحانه لن ينساه, وسوف يسخر له أسباب الحياة.

فور انتهائه من إجراءات المطار, أوقف سيارة أجرة, كان في جيبه خمسة دنانير, لعله يستطيع تدبير شؤونه, استطاع أن يحولها إلى العملة التركية ثم أقلته السيارة إلى "بانسيون" في العاصمة. . كان لا يستطيع التأمل في الشوارع فكل ما يحس به الآن ليس إلا إرهاقا كبيرا, وثقلا في رأسه, توقفت السيارة عند البانسيون الذي يقع في أحد الأحياء الفقيرة, ثم حمل أمتعته فور أن دفع الأجرة وهناك استقبلته سيدة في العقد الخامس من العمر. . علامات الوقار ترتسم على وجهها تركت مكتبها وهي تشده من ذراعه: "تفضل يا ولدي, يبدو أنك متعب" يجلس على الأريكة, بينما يقوم الخادم بنقل الحقيبة الصغيرة إلى إحدى الغرف المطلة على بستان البانسيون الكثيف الأشجار حيث يتدلى التفاح الأخضر من أغصانها, ورائحة الزهور الزكية تختلط مع رائحة التفاح فتحمل كل المتعة والأنس إلى نفس الإنسان.

كان يتكلم بصعوبة:

ـ هل تعرفين اللغة العربية؟

تجيبه وهي تضع الكمادات على جبينه:

ـ أجل يا ولدي فأنا من أصل عربي وزوجي تركي.

تنهد:

ـ كم الأجرة؟.

تقاطعه:

ـ لا عليك يا بني فأنت الآن مرهق تحتاج إلى قسط من الراحة.

ثم تأمر الخادم أن يعد له أفضل الغرف, وتحمله إلى المكان المخصص له, هناك خزانة بسيطة يضع فيها ملابسه فتضيع ثيابه في الخزانة لا تسعها يرمي جسده على سرير ملاءته بيضاء معطرة, ثم تستدعي له طبيبا, وفي ظرف ساعة واحدة يتقدم الطبيب إلى محمد يتحدث معه بالإنكليزية, فعرف سر تعبه, ثم وصف له بعض الأدوية والمنشطات المغذية وأصناف الأطعمة التي تلائم حالته, بينما كان ممرض يأتيه كل صباح لتطبيب آثار الكدمات, فتعهدت هذه السيدة رعايته والسهر على صحته.

كان محمد يشر باطمئنان كبير بقربها .. استعاد نشاطه وحيويته ,ثم أخد يفضي لها بقصته وأيامه الحزينة التي انقضت من عمره وكأنها أثقل حطت على رأسه ,انخرطت السيدة بالبكاء وهي تتمم:

كان الله في عونك . يا ولدي

اطرق بحزن ,فسألته :

بماذا تفكر يا ولدي؟

شرد ببصره بعيدا ثم تنهد :

لا اعرف.. أفكر في المشوار القادم.

طمأنته:

لا يضق بك الحال , تستطيع بسهوله أن تبحث عن عمل بسيط وتدبر لقمة عيشك

نهض من سريره, كان الحمام قد اعد له, فأصلح هندامه وحلق ذقنه, ثم خرج ,قرر أن يبعث برقيه إلى صاحبه علي لعله يستطيع لقياه في تركيا ,وقد عثر على مبنى البريد قريبا من البانسيون ..وفورا انتهى من هذه المهمة أخذ يتجول بين المحلات والأسواق, يبحث عمل بسيط ,حتى توقف عند إحدى المكتبات العامة,عرض على مالكها خدماته قائلا:

أنا خريج علوم سياسيه وقادر على الترجمة,ولي خبره في تصنيف المكتبات .يتأمله الرجل المسن كان يفحص هندامه, فجعل محمد ينظر إلى ثيابه, ما لذي لفت انتباه الرجل.. فقال صاحب المكتبة:

أريدك بائعا , فالبائعة التي كانت قبلك ستتزوج عن قريب وستترك المكتبة خلال يومين, تستطيع لقائها مساء لتقوم بإرشادك وتدلك على أسعار الكتب

يسأله محمد بفضول :

وكم هي الأجرة؟

خمسون ليرة شهريا, وسأضاعفها لك عندما ألحظ أية زيادة في المبيعات

وفور أن تم الاتفاق عاد إلى البانسيون ليتحدث إلى السيدة حول هده الوظيفة, لعلها تضيف شيء من خبرتها , قالت:

أجرة ضئيلة جدا.

يجيب :

مؤقتا , لعلي أغادر تركيا عن قريب فقد أبرقت إلى زوج شقيقتي, وسأنتظر رده خلال أيام .

أما زملاءه نزلاء البانسيون الآخرون , فاحدهم كان شابا جامعيا يدرس الطب , والآخر رجل قد طلق زوجته واثر الحياة في عزله, ثم رجل عجوز طرده أولاده عندما ضاقوا بخدمته , وكانت الردهة تكتظ بالزائرين في بعض الأمسيات حيث تشاطرهم هذه السيدة أحاديثهم, تعد لهم القهوة التركية مع الكعك.

لم يحاول محمد بالاختلاط بهم فهو الآن معتزل للراحة, في رأسه تدور شتى الخطط, بعد هذا الركود والفراغ العريض في أيامه السابقة .

التقى مساء "البائعة" شابه في العقد الثاني من عمرها , تتحدث بجفاف شديد ودون أن تلقي نظره إلى محدثها الآخر..

أشار محمد لها انه لا يفهم لغتها, عندئذ تحدثت بالانكليزية, وقضت معه ساعات طوالا حتى عرف طريقتها في العمل قالت له بحده :

سأغادر المكتبة صباح غد وعليك أن تباشر العمل من الغد.

كان يحترم طرقها في الحديث وأسلوبها المهذب في التعامل, أسلوب فتاة عمليه تدخر مشاعرها وأنوثتها لذاتها الخاصة, لا تبرزها هوية للبائع حتى يطمع بها اطمأن وشكرها وفورا حياها , ابتسمت في تكلف :

أتمنى لك حظا سعيدا

لم تكن الكتب سوى موسوعات صحية وعلمية تخص قضايا الإنسان المختلفة , ثم لوازم مدرسيه من كراسات وأقلام.. شعر باطمئنان شديد , لعله مكان مناسب يمهد له بعض الاستقرار النفسي الذي فقده طوال السنوات المنصرمة .

كانت سيدة البانسيون تنتظر عند الباب وابتسامتها الحامية ترتسم على شفتيها تلوح له من بعيد :

ها .. ما فعلت ؟

يقول :

كل شيء على ما يرام.

ألف مبروك على سلامتك والعمل الجديد .

ويجالسهم حيث يتم التعارف فيما بينهم, وتنبري السيدة قائله:

لقد جمعت هؤلاء الأصدقاء وحدثتهم عن ظروفك والأزمة التي داهمتك, فقرروا أن يهدوا لك هده الباقة الجميلة من الزهور تعبيرا عن ترحيبهم بانضمامك إليهم .

فيبادلهم التحية ويعرب لهم عن شكره وامتنانه .

تعد السيدة العشاء و الشاي والكعك .. كان الشاب الجامعي يتأمله باستغراب ثم بادره قائلا :

انه لظلم كبير أن تحرم من شهادتك الجامعية لقد بقيت أفكر في هدا الأمر طويلا, لعلك تستطيع أن تلتحق بجامعة استنبول ,أنا متألم جدا لها الأمر .

أخد شريط الذكريات الحزينة يمر في مخيلة محمد ويثير في قلبه الأسى .

غابت ابتسامته وتحول وجهه مسرحا لأنة ذائبة في الفؤاد.. كانوا يلمحون وجهه المنهوك يتعذب وكان صوت جلاد يقع على محياه, حمرة الغضب تائهة على وجهه الباهت, وفور أن يصمت الشاب المتحدث, يقول الرجل المسن, وهو إنسان رغم النكبة التي طحنت قلبه, يعرف كيف يحتوي آلام الناس:

ـ حاول أن تنسى الماضي, وتبدأ صفحة جديدة من حياتك.

يضحك الرجل الآخر:

ـ يبدو أننا في نفس المحنة, فأنا قد طلقت زوجتي. .

تناولوا طعامهم ثم يأتي الخادم بإناء كبير مملوء بالتفاح اقتطفه من بستان البانسيون.

يقول الرجل المسن:

ـ لا بد أن تتزوج الآن. . وأستطيع أن أخطب لك فتاة تركية لتقيم هنا, فالزوجة إلى جانبك تنسيك همومك ومتاعبك بعد شوط المعاناة الطويل.

يقاطعه الرجل المطلق:

ـ ما هذا الفأل المشؤوم, دعه يرتاح من هذا العناء, فليس في الدنيا شيء يضاهي الحرية.

يبتسم محمد:

- لا . ليس الآن, الأمر يحتاج إلى إمكانات, وأنا أفتقدها.

يتحدث الشاب الجامعي:

- إن الأزمة ليست في بلدكم فقط, ففي تركيا صدر قانون يمنع طالبات الجامعة من ارتداء الحجاب, وكانت هناك معارضة شديدة مما جعل النساء يكتبن آلاف الرسائل احتجاجا على هذا الوضع, وحدثت مظاهرات متفرقة هنا وهناك اعتراضا على ذلك الأمر.

عندئذ طفق محمد يحدثهم عن المخطط العالمي الكبير "الأفعى" الذي يستهدف شعوب العالم وذلك بتذويب أخلاقها ومبادئها وفكرها وجعل العلم حكرا على فئة دون أخرى حتى يتم امتصاص الخيرات والنعم لصالح الفئة الباغية.

كانوا مذهولين, فهم يصغون إلى رجل خبير محنك أيقظ فيهم روحا جديدة قد غفلوا عنها, ثم حمل إحدى الصحف, وكانت تتصدر صفحاتها صورة لملكة جمال العالم, قال وهو يشير إلى تلك الصورة:

- هذه وسيلة لشغل المجتمعات بأمور من هذا القبيل تبلغ من التفاهة حدا لا يوصف, فهذه العاهرة التي تعرض جسدها رخيصا وكأنها جارية في سوق النخاسين, تتساقط تحت أقدامها آلاف الدولارات والهدايا على حساب الشعوب الجائعة, وكلما بلغت المقاييس الجسدية حدا "أرقى" تضاعفت النفقات. وللأسف هناك منظمات دولية تنادي بحقوق الإنسان, والمجاعات في إفريقيا دليل حي على ذلك التناقض بين الحقيقة والمزاعم, ثم من جانب آخر تحدث هذه المهازل, ناهيكم عن سلاح الغريزة الجنسية الذي يعتبر واحدا من مصاديق الرعاية الحديثة, فقد كان اليابانيون في الحرب العالمية الثانية يلقون صور النساء العاريات على جنود أمريكا, وما يشبه ذلك, كان الألمان يقومون به بالنسبة لجنود بريطانيا من أجل تدمير نفسياتهم وإلهائهم بالجنس واللذة الجسدية, وكلما انشغل ذهن الإنسان بتلك الأوهام أفسح المجال لشياطين الإنس والجن أن ينهبوا بلاده ويشيعوا في نفوس الأفراد الضعة التخاذل والهوان.

قال الشاب التركي:

- وهذه الصور الفاضحة تملأ شوارع تركيا وتتصدر محلاتها ومكتباتها, وتبدو الصور كقطعة حلوى تنقض عليها أفواج من الذباب.

يقهقه الشيخ الهرم:

- لأن الدنيا دون النساء لا معنى لها.

يقاطعه الرجل المطلق في غيظ:

ـ بل النساء مخلوقات رديئات خلقن لشقاء الرجل.

تبتسم السيدة:

ـ ولكن الرجل لا يستطيع الحياة بدون المرأة. .

رن جرس الهاتف فنهضت السيدة لتتكلم بينما هم محمد أن يغادر إلى غرفته ثم استأذنهم بالانصراف.

قضى محمد ليلته مصليا, يرتل القرآن, ثم يدون ملاحظاته عن طباع الناس في هذه المدينة وأفكارهم ومعتقداتهم, وفكر في القيام برحلات واسعة داخل تركيا ليتعرف على معالمها وتقاليدها, لقد تذكر وهو يكتب كراسته التي فقدها في البيت مع مكتبته وكتبه وأشياء ثمينة حرم منها, لكنه أيقن أن ما فقده هو فداء لله سبحانه. انتبه إلى ضوء الردهة وقد انطفأ. . وخيم السكون في أنحاء المكان, أخلد إلى النوم! والأحلام البعيدة تنتظره في الغد, ما هي المحطة التي سيقف عندها في خريف عمره, إن الذي مضى هو طائر حط على نافذة من حياته ثم سافر بعيدا حيث الشطأن البعيدة ولن يعود ثانية, يئس من حلم العودة, كان يتمنى رؤيا ولده الذي طالما انتظر مولده. . أطياف رمادية قاتمة تتراءى له. . وجه أمه الشاحب, حفر الزمن أخاديده عليه. . دمعتان يتيمتان هما آخر ما قدمته له صباح الوداع الذي لم تعرف أنه كان الوداع الأخير لأحب الناس لديها. زوجته "منال" حلمت مع الأيام أحلام طفلة تلعب بالدمى حتى تكل وتمل, فأدركت أن واقعها مع هذا الرجل حرب طاحنة ضد الأشباح المستترة.

وسادته ندية لفرط الدموع, يبكي أساه, قدره الذي قذفه في هاوية النسيان السحيقة. . آه. . أين مارد النوم ليخطفني إلى دنيا الهروب. كان جفناه يستجلبان النوم من هذا الصخب الكبير الذي يدوي في رأسه, حتى كان هذا المارد رحيما, فأطبق جفنيه الثقيلين على عينين طالما تحديتا نور الشمس.

وفي صباح اليوم التالي استأنف نشاطه حتى الظهيرة. . كانت بالنسبة له أياما روتينية, بدأ الملل يدب نفسه, كان ينتظر الأمسيات فهي الملاذ الوحيد في وحدته يجالس خلالها أصدقاءه في البانسيون, ويخوضون في شتى الأحاديث والمناقشات الفكرية والعقائدية وكان لا ينسى أن يسجل كل ما حفظه في ذاكرته.

استلم برقية من صاحبه "علي" ظهر الأول من فبراير. . ارتجف لفرط السعادة. . كان "علي" بمثابة الخيط الواهي الذي سينتشله من هذه الهوة. . قرأ هذا السطر الذي ملأ قلبه بأحاسيس الأمل تنفجر في كيانه: "سنصل غدا 2 فبراير على متن طائرة الخطوط الجوية المصرية الساعة الثانية بعد الظهر", أطبق الظرف وهو لا يكاد يصدق, تهلل وجهه بالبشرى وحدث سيدة البانسيون أنه سينتقل صباح غد إلى أحد فنادق العاصمة للسكن مع أهله, دمعت عيناها:

ـ هل ستفارقنا؟ لقد أحببناك آنستنا رفقتك.

صمت وهو لا يعرف ما يقول, فمضت تقول وهي مطرقة:

ـ كنت قد خططت لرحلة نقوم بها إلى معالم تركيا.

ـ لا أدري يا سيدتي. . الحياة هنا قيود لا أشعر أنها تفجر طاقتي. . سأبحث هذا الأمر مع زوج شقيقتي.

تناهت إليها فكرة:

ـ أنا أدعوكم جميعا على الغداء

قال وهو يتأملها في ضيق:

ـ يعز علي فراقك.

قالت وكأنها تستجمع بقايا الماضي:

ـ أنا سيدة وحيدة توفي زوجي منذ عشر سنوات ولي بنت وحيدة تدرس في أثينا فن الديكور, وقد تزوجت واستقرت هناك ولا ادري لماذا انقطعت عني أخبارها. وفي هذه الأيام الباقية من عمري, أخدم المحتاجين والغرباء, أخلق في هذا البانسيون جو الأسرة الذي فقدته منذ سنوات طوال, فهو محطة يستقبل أناسا ويودع آخرين, لكنني لم أتعاطف مع إنسان مثلك, أحسست في بريق عينيك الأسى والحرمان كأنك تستغيث. . كنت أثناء مرضك تهذي بأسماء كثيرة.. شعرت أن في حياتك مأساة تستحق مني كل الاحترام والاهتمام. . بقيت في ليلتي أفكر فيك ماذا عساي أصنع لك. . كأني مسؤولة عنك, لقد تدفقت أمومتي من جديد منذ أن رأيتك تتلوى متأوها على سريرك من تلك الجراح, حتى أسررت لي بمكنون أمرك ووقعت في نفسي موقع رضى واحترام.

أجابها بذهول:

- أنت امرأة نادرة يا سيدتي, تذكرينني بهمس أمي الدافئ وخبرتها عندما يداهمنا الألم منذ كنا صغارا, لقد نسيت غربتي عندما رأيتك, كأن الله عز وجل سخرك لراحتي.

دمعت عيناها وهي تربت على كتفه:

- أنا لا أنسى جميلك يا ولدي, فقد علمتني الصلاة وهديتني إلى طريق الله من خلال أحاديثك الطيبة. . إني أدعو لك دائما بالسداد والتوفيق.

انضم الأصدقاء إليهما, وكان حديثهم عتاب حب لرحيل صاحبهم الذي أطلقوا عليه "الأستاذ" فقد كانوا يجتمعوا في الصالون عند كل مغيب شمس ليذهبوا إلى المسجد القريب في الناحية الغربية من البانسيون. يستأجرون سيارة صغيرة. . تقلهم إلى ذلك المكان, وكانت صاحبة البانسيون ترافقهم إلى ذلك المسجد, ليمضوا ساعتين, وبعد أن يتنزهوا في إحدى الحدائق يعودون سيرا على الأقدام.

كان قلبه يخفق اضطرابا. . عيناه تحومان في أنحاء المطار, يبحث من بين المسافرين عن شقيقته وزوجها, يبدو أن الارتباك أفقده التركيز, بيد أنه انتبه إلى صوت يناديه من بعيد "محمد. . محمد"

لمح عليا وفاطمة وبينهما طفلة صغيرة لمعت أحداقه, يرفع ذراعه المرتجفة النحيلة يحييهما. . وما أن تم التفتيش حتى التحقوا به فضمته فاطمة باكية. . بكاء يحمل كل معنى وهي تهتف بألم:

- دعني ألثمك فأنت بقايا أمي.

دفعها بلطف وهو يمسح طرفه, ثم عانق صاحبه في شوق كبير قد بلغ مبلغ النضوج.

- الحمد لله على سلامتكم.

ثم يحضن الطفلة الصغيرة بينما تحاول أن تقاومه في حياء. .

يبتسم أبوها:

- إنها خجلة.

تقول أمها:

- هذا خالك يا أبرار.

يحملها على ذراعيه, يقبلها. . وعيناه تحدقان بأخته التي بدت تميل إلى البدانة وأخذ جسمها نضوجه الكامل, بينما صاحبه علي بدا أشد صرامة فكثف لحيته, وبدت أمارات الخشونة وقسوة العيش على جسده وذراعيه.

أقلتهم سيارة الأجرة إلى البانسيون تلبية لدعوة السيدة, وفي طريقهم جعل محمد يسرد قصته منذ رحيلهما, كانا يصغيان بدهشة, ولوعة محدثتهم تضفي عليهم عاطفة الإشفاق تارة, وتارة أخرى إحساسا بالبطولة, لكن فاطمة ولم تستطع أن تحبس دموعها, كانت تنفجر باكية كلما تذكرت مرض أمها وانهيارها في بيت موحش, فشدتها أبرار:

ـ ماما. . ماما. . لماذا تبكين؟

وفي غيظ:

ـ اللعنة على الأفعى منال, لقد حرمتك من ابنك.

أشفق محمد عليها:

ـ إنها مسكينة ضحية الإشاعات والأقاويل.

تعنفه فاطمة:

ـ كان الأحرى بك أن تأخذ الطفل بأي وسيلة.

ـ لا أستطيع, فهي أمه ومسؤولة شرعا وقانونا عن حضانته ورعايته.

ـ دعني أسافر وأبحث في الأمر.

يصمت محمد ثم يستطرد:

ـ الوضع الأمني غير مناسب هناك إجراءات أمنية مشددة.

يقول علي:

ـ لقد اتصلت بأحد الأصدقاء في لندن وهو صاحب مجلة تصدر هناك وتوزع في جميع أنحاء العالم وهي واسعة الانتشار, وحدثته في أمرك, فأبدى ترحيبا حارا بعملك معه. إذ أنه في أمس الحاجة إلى كاتب محنك ذي اطلاع وخبرة يكون ساعده الأيمن في العمل.

شرد محمد في التفكير كأنه يتذكر شيئا:

ـ "عبد الخالق الهادي" صاحب مجلة "إنسان اليوم"؟

ويجيبه علي:

ـ أجل. ـ أجل, فقد كنا نكتب في مجلته منذ كنا في السنة الأولى من الجامعة, إنني الآن أراسله من القاهرة, أبعث له في كل شهر تقارير ومقالات صحافية عن مصر إضافة إلى قصائدي الشعرية, وذلك مقابل مبلغ مناسب.

اطمأن محمد, وانشرح صدره, وسرعان ما تناهت إلى رأسه الخطط تتدفق كالسيل, ثم أدار وجهه ناحية أخته التي بدت منفعلة غاضبة.

توقفت السيارة أمام البانسيون, كانت السيدة تنتظرهم, فبعثت الخادم ليحمل الأمتعة, حيتهم وهي تشير إليهم:

ـ تفضلوا يا أهلا ومرحبا.

كان الصالون قد تم ترتيبه وتنظيفه تمهيدا لاستقبال الضيوف, قطفت فاطمة زهرة جورية من الأصيص تستنشقها بنهم, ويقوم محمد بمهمة التعارف وتبدو السيدة كالنحلة تطير بنشاط وحيوية, تعد المائدة, صحون الفاكهة, العصير.

تقول فاطمة:

ـ إنها سيدة طيبة.

ويوافقها محمد الرأي:

ـ جدا.

ويحلقون حول المائدة.

تقول فاطمة:

ـ تركيا بلد جميل جدا.

تجيبها السيدة وهي تمضغ الطعام بشهية بالغة:

ـ سأصطحبكم إلى كل معالم تركيا, فهذا الذي رأيته ملامح بسيطة جدا, هناك الآثار العثمانية والغابات والبساتين الرائعة والأسواق الفخمة.

انشغل محمد وعلي في أحاديثهما الهامة, وخططهما التي اعتادا عليها, بينما انصرفت فاطمة والسيدة تتحدثان عن معالم تركيا. .

سألت السيدة:

ـ هل ستمكثون مدة طويلة؟

ينتبه علي إلى سؤالها:

ـ أسبوعا واحدا فقط, فهي إجازة مرضية كانت معجزة أطلت عليّ من السماء, فقد فاجأني خطاب محمد من تركيا واستطعت أن أعرف الأمر ضمنيا, وكان لا بد أن نطمئن عليه, وكانت خطة دبرتها مع أحد الأصدقاء الأطباء كتب لي إجازة مرضية حيث أقنعت المسؤول في مكتب المحامين بضرورة هذا الأسبوع.

ضحك محمد وهو يربت على كتفه:

ـ خير ما فعلت.

تسأله السيدة:

ـ أنت محام إذن.

يجيب:

ـ نعم ولكني الآن أعد رسالة الماجستير في القانون الإسلامي استنادا إلى رسالة الحقوق للأمام علي بن الحسين رضي الله عنهما.

تتأمل السيدة فاطمة في إعجاب:

ـ طبيعي أن تكون مفعما بهذا الطموح ومعك زوجة وديعة كفاطمة.

يحمر وجه فاطمة خجلا.

ثم تحاول السيدة أن تقبل أبرار التي سرعان ما التصقت بأمها في حياء.

تناولوا الشاي, فقال علي وهو يتأمل البستان منا نافذة الصالون:

ـ فلنذهب إلى هناك.

ويحمل الخادم مائدة الشاي إلى البستان, ويصف الكراسي المصنوعة من القصب تحت ظلال أشجار التفاح, وانتقلوا جميعا إلى هناك.

السحر يتدفق من تلك الغصون الندية والزهور المتناثرة على جدران البستان في تناسق بديع يخلب العقل, طبيعة صامتة لكنها تتحدث عن آيات الله في خلقه, انطلقت "أبرار" تلعب كأنها طير قد تحرر من قيود الأسرة, تقفز وهي تصفق, تود لو تحضن العالم بين ذراعيها.

رائحة الورد التي تنشر في العروق ليس لها تفسير تنطقه الشفاه العاجزة عن اختراق هذه الصنائع الربانية, أخذ "علي" ينشد أبياتا في وصف هذا البستان وكل أعماقه ذائبة في لحن الصمت الذي فجر قريحته, بينما شرد محمد في ذكرياته البعيدة إلى أيام من الماضي انطوت, عندما كان في روسيا. . . الشرفة التي كانت تطل على الجبال, وحجاب من الضباب شكل حائلا بينه وبين "سوزان" التي اندثرت مع الأحلام, وضفاف النهر ودماؤهما المتجمدة في العروق, توسلاتها, عشقها المجنون. . انهيارها. . أين هي الآن؟! لقد أصبحت فتاتا, يتناثر مع الرماد, لو كانت تدري أن مصيرها بركة دماء يطفو فيها جسدها لما فعلت كل ذلك, ويحها لقد خسرت الدنيا والآخرة.

ـ محمد! محمد! محمد!

انتفض محمد لنداء علي.

ـ ألم تسمع قصيدتي؟

انطوى الماضي في طرفة عين, لكن محياه ما زال باهتا. . ساهما:

ـ لقد تذكرت شيئا.

قالت السيدة:

ـ ما رأيكم أن تقضوا الأسبوع هنا؟

أجابها علي:

ـ الأمر صعب, البانسيون فيه رجال, وزوجتي محجبة سيضيق بها الحال هنا, سأذهب بعد قليل إلى أحد الفنادق القريبة من العاصمة لاستئجار شقة مناسبة. فترشده السيدة إلى فندق يقع في الشارع الرئيسي لهذه المنطقة وتهمس له بأن الأجرة بسيطة.

يذهب محمد مع علي لاستئجار الشقة بينما تنتظرهما فاطمة.

تبدو السيدة كأنها تستجمع أفكارها فتسأل:

ـ لعل عزلة النساء عن الرجال من عاداتكم العربية أليس كذلك؟

ثم تضحك وهي تواصل حديثها:

ـ رغم أني عربية الأصل لكنني ولدت في تركيا, وتزوجت رجلا من تركيا, ولم يسبق لي أن عرفت هذه التقاليد.

تجيبها فاطمة:

ـ بل هي آداب الإسلام يا سيدتي, نحن بشر لنا ميول ورغبات طبيعية تتفجر حتما في بعض الأحيان, وتخلق المبررات ليدخل هوى الشيطان في العلاقات, خصوصا في مجالس الاسترخاء التي لا تدع أمرا إلا وتثيره, مما يجعل الرجل مندفعا إلى الإصغاء بكل حواسه إلى المرأة أكثر من الرجل.

تنهدت السيدة. . تطرق في عمق ثم تستطرد:

ـ "ابنتي ميسون أنكرت شقائي من أجل تربيتها. . أصبحت أمامها عاجزة فهي تفعل ما يحلو لها, تحضر الحفلات الصاخبة, تشرب الخمر, تجالس الرجال دون تحفظ, فهي غريبة الطباع والمزاج, وقد تزوجت رجلا يونانيا رغم معارضتي, قاطعتني وكأني أنصب لها العداء, إذ حاولت مرارا الاتصال بها, دون جدوى تهرب مني, لعلها تضايقت مني في المرة الأخيرة إذ صفعتها وصرخت بوجهها وقلت لها: إنك فتاة منحرفة مغرورة بجمالها, خطبها أحد الأتراك للزواج ثم تخلت عنه. . لأنها تكره القيود العائلية على حد زعمها, فسخت خطوبتها, تاركة وراءها نقمة قلب الرجل, أنا لا أعرف كيف أحميها من نفسها, حدثتها بتوسل أن تثوب إلى رشدها وتتزوج زوجا يتناسب مع تقاليدنا, إنها تسخر مني وتصفني بالتخلف, لقد فقدتها منذ وفاة والدها. لم أستطع السيطرة عليها, إنها بالضبط عاصفة مدمرة لنفسها وللناس الذين يحيطونها" تنهدت في حسرة وكأنها تجتر أنفاسها اجترارا.

قالت فاطمة:

ـ من الصعب تغييرها الآن. . فهي على ما يبدو قد قطعت شوطا طويلا من هذا العبث, ولن تلتفت إلى نفسها إلا عندما تصطدم في إحساسها, وترى حياتها دخان, أو وهما. . . غمرت نفسها فيه.

ثم تستطرد قائلة:

ـ أرجو أن يحدث ذلك.

دعتها السيدة إلى التجول في أنحاء البستان لتقطف لها بعضا من ثماره, وفور أن أعياهما التعب, دخلا إلى الصالون حيث كان الرجلان في تأهب لحمل الحقائب ونقلها إلى السيارة. .

ينادي علي:

ـ هيا يا فاطمة عجلي, فسنذهب الآن, لقد استأجرنا شقة. . .

تشد فاطمة ذراع أبرار.

ـ هيا يا ابنتي. . . اركبي السيارة.

يشكران السيدة.

تقول:

ـ نبدأ صباح غد رحلتنا الأولى, هل أنتم مستعدون لذلك؟

يجيبها محمد:

ـ نعم.

يحمل أمتعته, تستوقفه السيدة:

ـ هل سترافقنا؟

يحدق بها طويلا:

ـ أجل. . فأنا سأغادر تركيا خلال أيام.

تحزن ولا تعرف ما تقول له. . لكنه فهم ما يدور في رأسها:

يحدث نفسه:

ـ إن أمامي مسؤوليات كبيرة تتطلب مني تجاهل العواطف في مثل هذه الظروف.

يخرج سريعا ويخلفها باكية, فهو يحبس كل إحساسه عندما يقرر أمرا حاسما.

ويتذكر وهو في طريقه فيستدير قائلا:

ـ لقد نسيت أن أقدم لك هذا الكتاب.

يدفعه إليها.

تقع عيناها على العنوان "مكارم الأخلاق".

ثم تفتح الغلاف, وإذ بها تقرأ الإهداء:

"إلى الأم التي انتشلتني من وعثاء الحياة أهدي هذا الكتاب".

ابنك محمد عبد الله

تطبق الكتاب, تضمه إلى صدرها وعيناها تفيضان بدموع غزيرة. . ثم تمسح طرفها هامسة.

ـ شكرا لك. . شكرا يا ملاكي.

ويندفعون جميعا إلى سيارة الأجرة حيث تقلهم إلى الشقة.

كانت السيدة تزورهم كل صباح للقيام برحلة جديدة حيث استطاعوا خلال أيام قليلة أن ينالوا حظا من المتعة في زيارة الآثار والمعالم في تركيا. وقد كتب محمد موسوعة كبيرة أثرت مخيلته ودونها في مذكراته. . . كما التقطوا صورا فوتوغرافية احتفظوا بها ذكرى لمناسبة لقائهم ببطلهم. وقدموا إحدى الصور هدية للسيدة.

قرر محمد الرحيل إلى إنكلترا. إذ قدم استقالته في المكتبة حيث شرح لصاحبها ظروفه الطارئة. . .

غضب الرجل:

ـ لماذا لم تقل لي أن عملك مؤقت؟

ـ أرجو المعذرة.

عنفه ثانية:

ـ المبيعات انخفضت بصورة واضحة سأضطر للبحث عن عامل جديد.

فهم محمد قصده:

ـ لا أريد منك ولا فلسا واحدا.

يخرج محمد متضجرا. كأن كابوسا كان ينوء به انقشع الآن. تحرر من القيد. كان علي قد أعد له تذكرة السفر ومائتي دولار لقضاء حوائجه في الوقت الحاضر, أما السيدة. فقد أقامت وليمة عشاء لوداعه. دعتهم إليها وقدمت لمحمد هدية مع باقة ورد. ثم رافقه أصدقاؤه القدامى في البانسيون إلى المطار. وهناك ودعهم والدموع تتجمد في عينيه. بينما انهمرت دموع السيدة. . .

وشقيقته فاطمة تمتم في حزن:

ـ هكذا حال أخي دائما. سفر طويل لا ينتهي. لم يعرف الاستقرار في حياته, اختفى عن أنظارهم, لعله كان يهرب من حزنه, فهو لم ينقطع عن السفر سوى لأيام قلائل انطوت كالحلم. ولم يشعر إلا والمضيف يقول: "اربطوا الأحزمة ستقلع الطائرة الآن".

تنهد وأوصاله ترتعد وشريط اللقاء يطوف في خياله. . . محطة جديدة قادمة ستخطف كل الماضي. كان يفكر وهم يضحكون. يتخطى بعقله حاجز الزمن البعيد. بينما عادت فاطمة

وزوجها إلى القاهرة بعد اليوم من رحيله حيث لطمأنوا على شقيقهم. . ولم يبق في قلب السيدة سوى ذكراهم وصور تجمعهم في إحدى غابات تركيا. . .

ضمت الصورة إلى صدرها وهي تهمهم بتنهد باك: "فليحفظكم الله يا أبنائي".

--

تــمّــت